كتائب البازنقر

محمد هارون عمر

كتائب البازنقر

محمد هارون عمر

ISBN 9789776597325
Deposit number: 28791/2021

© Willows House 2021

الطبعــة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا / القاهرة

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جبران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
gmail.com@willowshouse3
+211927302302

كتائب البازنقر

محمد هارون عمر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

القسم الأوَّل

1

ما انفككت أفرقع أصابع يد جدي المتيبِّسة المتصلِّبة – أوردتها بارزة، قشورها تماثل وتناظر قشور السمك. أتأمل سمته بعين ثاقبة أطوف بتلك السراديب والأخاديد والتجاعيد، جسد ذابل قاحل ممتقع، أكل منه الدهر وشرب، طاو للعقود، أكثر ما كان يدهشني، هو لون بشرة جدي البيضاء الناصعة التي لا تضاهي لون أفراد الأسرة، اللون الأبنوسي الأسود الداكن جدًا - لون سلالة البازنجر الأفريقية الزنجيَّة، كما لو أنه طلاء قاتم على لوحة خطتها أنامل تشكيلي متشائم عن الموت. شعرنا مجعَّد كالقرنفل، شفاهنا غليظة، أنوفنا مفلطحة، أفواهنا عريضة، أسنانا سميكة صفراء أو بنية، هكذا خلقنا رب الأدغال دينقديت الأسود، خلقنا على هيئته وسمته وملامحه ولونه، شعر جدي ناعم جدًّا، لونه أبيض لكن الملامح زنجية، الأنف والشفاه والأسنان نفسها، زنجي وعربي أو تركي ربما، المهم هو من الجنس الأبيض، هل جامع جدتي شخص أبيض فأنجب هذا الخلاسي؟ جدي زنجي وعربي أو مصري، شيئان مختلفان.

يحرص أبي لإحضار قلة المريسة بزبد راب أبيض يوميًّا من الإندايَة، تلك الحانة البدائية، المريسة - عاقرها جدي، يحتسيها آناء الليل وأطراف النهار، ثم يشعل الشيشة بدخانها الحلزوني المتلوي كأفعى. يقبِّل ثغرها مليًّا، هو لطيف خفيف الدم بسام الثنايا، يحفل لمظهره، يرتدي أبهى وأروع ملابسه حينما يحاول احتساء الخمر، يغرد يصدح بأغانٍ طابعها جنوبي، بصوته المبحوح، صوته رخيم فيه شجا، لون جدي يحيرني يربكني! كيف أنجبت جدتي هذا المصري في مدينتنا أو قريتنا بجنوب السودان، هنا في حامية كسلا، لونه لا يختلف عن لون الجنود

المصريين، الذين أرسلهم خديوي مصر لحماية شرق السودان، حينما رآه الصاغ حازم الأسواني، قال له: أنت عمي من دمي، ولكن جدي كان لا يحب الحديث عن لونه وأصله، لأنه يسيء لجدتي الراحلة، لونه لا يشبه لون الأدغال القاتم الفاحم، بشرة أسلافنا غسلتها جدتي، غمستها في اللون الأبيض فكان عرقًا آخر ذائبًا وممتزجًا في الدم الزنجي الأسود، فعلت تلك المغامرة أو المؤامرة ضد زوجها المسكين، أو اُغتصِبت، حامية ملكال يحرسها المصريون مع جنود من أبناء جلدتنا (البازنجر)، الجنود المستعمرون لا يأتون بزوجاتهم الجميلات المصريات، إذًا فأنهم يغامرون مع فتياتنا، وربما جدي كان ثمرة لتلك المغامرات، فاجأني ذات يوم بالبم - فيه صور عتيقة، آه ها هو شاب في الثلاثين بملابس الميري! يا له من جندي ممشوق! أتراك ومصريون - جنود وضباط وهو أطولهم وأميزهم ببنيته القوية، هنا يعدو ويلعب كرة القدم، جمباز، وثب، ركض، يصرع فيلًا وجاموسًا في غابات مريدي وجوبا، واو ويامبيو، صيد النمور والأسود، والغزلان تكون جوار ذاك المعسكر وسط الأدغال.

سَكِرَ ذات يوم، فطلب من والدي نصف قارورة عرق، ارتدى ملابسه العسكرية القديمة، وقال لي:

- تعال يا حفيدي الأسود سليل الرقيق، لأدربك على فنون الجندية، لا بدَّ أن تكون جنديًّا ذات يوم، على طريق أجدادك، فنحن عبيدها، مهنة أسلافك، لعنة الله على العربي التاجر، فهو أوَّل من جندنا في قواته المسماة بالبازنجر؛ لتحقيق أحلامه في قيام أوَّل مملكة عربية إسلامية في جنوب السودان، كما لعنة الرب على محمد علي باشا، لقد فتح السودان من أجلنا ليجعلنا عبيدًا للجندية، وقودًا لنيران معاركه، بيع جدي عبدًا واُستعبد والدي جنديًّا، نحن سلالة كتبت عليها العبودية والجندية.

جدي يهذي يمور يثور يدور كثور ساقية تحت تأثير شعشعة الخمر، خلع ملابس الجندية العتيقة الرثة، سكب في جوفه دنًّا من العرق ثم أتبعه بدنّين من المريسة، تجشأ بصوت كزئير الأسد، تمدد ثم أمرني بالصعود على ظهره برجولي، أمرني بالمشي على سائر جسده المكدود، جسد قاحل أجرد من اللحم، هيكل عظمي، وهو يتأوَّه ويردد: شديد اضغط، ظهري يؤلمني، عد إلى الخلف للأمام، الأكتاف الأرداف، السلسلة الفقرية وسطها، أجل نعم، هنا اضغط، وثب وسكب دنًّا آخر، نظر إلى الجدران، إلى صورته أمام الحكمدار خورشيد الأغا وهو يوشحه وسام الشجاعة، لقمعه قبائل الجزيرة التي رفضت أن تدفع الضرائب وثارت وتمردت، كان صولًا، قاد القوة بعد مرض الضابط المصري القائد حسني الربيع اليوزباشي، هذه الصورة لها مكانة في قلبه، ولأنه يكره العرب، يفرح جدًّا لهزائمهم المروعة، دائمًا يتوق إلى قمع القبائل العربية التي تثور وتتمرد، هو القاسم المشترك لكل الحملات، كان يقول لي: أسعد يوم في حياتي، حينما أمزق وأحرق خيام البدو، وأشتت شملهم، وأفرق جمعهم، وأجامع نساء شيوخهم، وأطلب من جنودي التغزَّل في فتياتهم، والدماء تسيل من ظهورهم سياطي تلغ دماءهم. وأقتاد بقرهم وجمالهم غنائم، وسجن وجلد وضرب، أفرح حينما تولول وتبكي نساء البدو العرب، أنتشي نشوة شديدة، وتكتمل فرحتي حينما أقتاد الأسرى لسجون المدن وهم يقولون لي بتوسل وخنوع وخضوع سيدي بدل عبدي، كانوا يفعلون بأسلافنا هكذا، يقبضون يسرقون يبيعون، الجزاء من جنس العمل، ما أجمل تمردهم! إنهم يساعدوننا لأخذ ثأرنا. كم كنا السبايا والرقيق! مجرد فرائس وطرائد للمسلمين، حقدي على العرب لم ولن ينتهي، كل حاميات الجيش من الجنود السود الزنوج، لا يوجد عربي معنا، المصريون والأتراك لا يمثلون أكثر من عشرة في المئة، بالطبع منهم الضباط، كالوضع الراهن، في كسلا سنار

الأبيـض، سـنجة الفـاشر دنقـلا. نحـن الأغلبيـة، في ذات يـوم يـا حفيـدي، تحـداني جنـدي مـصري معتـز بأصلـه العـربي، قـال لي العـرب أشـجع مـن مـشى عـلى ظهـر الأرض، قلـت لـه بـل الزنـوج، قـال لي أتتحـدى؟ قلـت نعـم هيـا إلى الغابـة، بدأنـا نتوغـل في غابـات بحـر الغـزال المظلمـة الكثيفـة ذات الأفنـان المتشـابكة بمتسـلقاتها، كل منـا يحمـل بندقيتـه، فجـأة ظهـر صبيـة عـراة رعـاة وهـم يركضـون ويصيحـون الجامـوس، يجـري خلفهـم ثـور ضخـم، تسـلق تامـر الشـجرة كقـرد بينـما وقفـت ولم أتقاعـس أو أتـردد، كاد يردعنـي وينطحنـي الثـور، أوشـك أن يصلنـي، تشـتت وتبعـثر الصبيـة ضاحكـين. كان ثـورا أليفًـا، سرعـان مـا عـاد خلـف الصبيـة وهـم يضحكـون عـلى الجنـدي تامـر مصباح السـلومي، كـدت أقتلـه حينـما قـال: لا يوجـد أشـجع وأكـرم وأجمـل مـن العـرب، إذن فلـماذا هربـت مـن بقـرة إذا كنتـم شـجعانًا، كان أقـصر جنـدي! ولسـوء حظـه هاجمانـا ذئـب، قلـت لـه :كـن شـجاعًا، لا تقتـل الذئـب إلا حينـما يقـترب لمسـافة مترين، قـال لي: قـم بالتجربـة أنـت، البيـان بالعمـل وعـلى مسـافة مـتر ونصـف الذئـب يفتـح فكـه ليفترسـني ليلتهمنـي، غرسـت لـه خمـس رصاصـات في حلقـة سـقط يعـوي ويبـكي وهـو يتقيـأ الـدم، وحينـما ظهـر الذئـب الآخـر أرتجـف وأرتعـد ورمـاه عـلى مسـافة عشريـن مـترًا، زعـم بـأن شـجاعتي مردهـا للـدم العـربي الـذي يجـري في جسـدي، إنـه مكابـر، وفي ذات يـوم وجدتـه في بيتـي خلسـة يعابـث حرمـي التـي طلقتهـا للخيانـة، وجدتـه كـما ولدتـه أمّـه، أشـهرت السـلاح في وجهـه قلـت لـه: أخـتر الرصـاص أو الجـزاء مـن جنـس العمـل. أفعـل لـك مـا فعلتـه لزوجـي، بـكى بـكاء النسـاء، قـال لي: أفعـل مـا يحلـو لـك. أنـا شـاب صغـير لم أتـزوج، انتقمـت منـه بالطريقـة التـي أعجبتنـي! قلـت لجـدي مـاذا فعلـت لـه؟ أي العقوبتـين أخـترت؟ قـال لي هـذا سر لـن أبـوح بـه؟ يـا لـك مـن غبـي! اللعنـة عـلى الرجـل الشـهواني!

عـرى الوسـن جـدي، تمـدد شرع يغـط غطيطًـا، وعينـاه مفتوحتـان، نـوم

الغـزال. أذنـاه ممتلئتـان شـعرًا، صـدره مشـعث، وسـائر جسـده، إنـه ليـس كعترتنـا شـحيحة الشـعر حتـى عـلى الوجـه، لا لحيـة و لا شـارب، د خـل البـط وهـو في قأقـأة - زجرتـه، سرعـان مـا انتـثر وهـرول كالسـلحفاة للبركـة، خرجـت رنـوت لجبـل التـاكا الشـامخ اللؤلـؤي، قشـلاقنا لا ينـأى كثـيرًا عـن نهـر القـاش الموسـمي، تلـك هـي البسـاتين اليانعـة الخـضراء، اليـوم عطلـة مدرسـتنا، أمـيّ وجارتهـا تمشـطان الشـعر المجعّـد الخشـن، الماشـطة تجـد صعوبـة في جمـع الأوتـاد المتمـردة عـلى القبـض - شـعر كالقرنفـل، ليـت شـعر جـدي الناعـم السريـع النمـو كان عـلى رأس أمـيّ، هـما تحتسـيان القهـوة وتـأكلان العجـوة الطريـة، دخنـت العجـوز وكذلـك أمـي، ثـم شربتـا المريسـة بـدن قاتـم عتيـق مـن القـرع الفلينـي، سـكرت العجـوز.

تسـللت لغرفـة جـدي التـي يرفـض أن يدخلهـا أي كائـن مـن كان، فيهـا ملابـس عتيقـة، ملابـس حريريـة، قبعـات، الأوسـمة، الأحذيـة القديمـة، الصـور المتهدلـة عـلى الجـدران، بيـت جـدي مـن الطـين جدرانـه مطـلي منضـد بسـقف بلـدي، لمـاذا تمنحـه حاميـة كسـلا هـذا البيـت وهـو المتقاعـد قبـل عشريـن عامًـا؟ ولمـاذا منزلـه مجـاور لمنزلنـا؟ ألا يكفـي أن تمنـح الحاميـة العسـكرية بيتًـا لأبنـه الأمبـاشي؟ تلـك البخسـة هـي قرعـة ضخمـه معلقـة عـلى المشـلعيب وهـي تتهـدل وتتراقـص. مـاذا فيهـا كـم مـرة رأيتـه يقبلهـا ويودعهـا في أرجوحتهـا، أحيانًـا يسـجد أمامهـا كأيقونـة مقدسـة في خشـوع وذهـول، حركتهـا تأرجّحـت رقصـت، في جوفهـا شيء يتحـرك كالمـاء، سأتسـلق سـأصعد عـلى الكـرسي لأنزلهـا لأرى مـا فيهـا، ليتـه لم يسـتيقظ، سـعل بغلظـة، هـددني ذات يـوم، قـال لي: سـأقتلك إذا دخلـت هـذه الغرفـة، لـو أسـتيقظ لضربنـي كـم مـرة زجـرني فلـم أزدجـر، قـال لي ذات مـرة سـيقتلك الفضـول. سـأقتلك لـو دخلـت معبـدي، لمسـت البخسـة تـارة أخـرى شيء يتلـوى يتمطـى يتمـدد في جوفهـا المعتـم المغلـق، كـما لـو أن فيهـا سـحالي وأفاعـي تتصـارع، توجسـت عـراني الرعـب، تركتهـا -

تابعـت الأيقونـات، ونقـوش، صـور لجـدي مـع ضبـاط وجنـود مصريـين وأتـراك، يتوسـطهم كبعـير وسـط تيـوس - شـامخ، صـورة وهـو يتسـلق جبـل الرجـاف وجبـل لادو، صـورة لنسـائه العشريـن بجنـوب السـودان قبـل أن يتجنـد، قائـد الحاميـة سـامي تامـر، طلـب منـه أن يطلّـق كل نسـائه، وأمـره بالاحتفـاظ بأربـع حسـب الشريعـة الإسـلامية وهـل كان جـدي مسـلمًا؟ أمـر سـامي الجنـود الزنـوج الوثنيـين اعتنـاق الإسـلام أولًا ثـم التجنيـد ثانيًـا، كلهـم أسـلموا طلبًـا للوظيفـة كـما قـال لي جـدي، الجنـدي محمـود المـصري طلـب منـه قائـد الحاميـة تحفيظهـم القـرآن والصـور القصـيرة لـكي يصلـوا في جماعـة خلـف الأمبـاشي الشـيخ محمـود المـصري الـذي تـزوج في واو فتـاة سـوداء، قـال لـه القائـد سـامي تامـر هـذا زواج متعـة يـا شـيخ محمـود أتـترك ميـادة المصريـة مـن أجـل هـذه الفتـاة الأبنوسـية، أم أنـه زواج متعـة مؤقـت؟ ضحـك محمـود، استشـاط جـدي غيظًـا لفـراق زوجاتـه، ولكـن حفـزه الراتـب المغـري الـذي يسـيل لـه لعـاب قـارون، والمكانـة الاجتماعيـة المرموقـة للجنـدي آنـذاك،

2

حكاية أسلافنا حكاية غريبة، ولكن مع ذلك أعترف بأن انخراطهم في سلك الجندية نقل حياتهم إلى وضع أرقى وأفضل، إذا قارنَّا الجنود بأسلافنا الذين لا يزالون في الجنوب، ورغم النقلة، جدي يحتج بأن هذه النقلة ألزمتهم بالتخلي عن عاداتهم وتقاليدهم، وثقافتهم وأجبرتهم على نظام لم يألفوه، الدين الجديد الثقافة الجديدة، المريسة إلَّا بعد نهاية يوم العمل الطويل، زوجة واحدة، لا مجال للتعدد، في الجنوب السلاطين والأثرياء لديهم عشرات الزوجات. أين رجال الدين؟ أين السحرة؟ جدي غاضب على الجنود والضباط المصريين، لم ينسَ حينما تم تجنيده غيروا اسمه الإفريقي من كوال دينق كير إلى نيازي شمسون الجبار، هذه هو اسمه العربي ثم أكرهوه لتغيير ديانته الإفريقية، وبعضهم يلقبه بالزنجي الأبيض، أو الغراب الأبيض، اغتاظ أيما اغتياظ، وذات يوم وفي جنوب السودان بالقرب من رمبيك، يوجد مجرى ماء وسط الأدغال، عميق قال لهم الضابط بطرس حنا، أقواكم يحملني لن أخوض، أو تنحنوا لأمشي على ظهوركم؛ لأعبر المجرى كجسر، رفض جدي هذا الاستفزاز والتطاول، لماذا الجنود السودانيون ينحنون ولا يشمل هذا الأمر الجنود المصريين، قال لبطرس سأحملك هيا أركب، حمله على يديه القويتين وفي منتصف المجرى ادَّعى ومثَّل التعثر فأسقطه وضغطه للعمق سقط عليه، أغرقه؛ كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، صرخ؛ خرجت فقاعات كبيرة، هرول الجنود وأنقذوا الضابط وهو يصرخ ويصيح "غدر بي العبد الزنجي سلالة الخنازير"، ما أصدق قول الشاعر أبو الطيب المتنبي:

لا تشترِ العبد إلَّا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

سـدد لـه جـدي لكمـة قويـة، أسـقطه تـارة أخـرى داخـل المـاء، ولكـن قائـد الحاميـة أنصـف جـدي وعاقـب الضابـط، وقـال لـه أنـت جنـدي شـجاع، لـو لم تفعـل هـذا لكنـت عبـدًا بحـق وحقيقـة. كنـا ننـادي جـدي في البيـت باسـمه الجنـوبي كـوال وليـس نيـازي، وأبي مـدون في حاميـة كسـلا باسـم جمعـة سـبت كمنـدان، واسـمه الأصـلي بـول دينـق كـير، وأنـا في المدرسـة مسـجل باسـم خميـس جمعـة سـبت كمنـدان، في حـين أن اسـمي قرنـق بـول دينـق كـير، غـيروا أسـماءنا، قبلنـا عـلى مضـض ولكـن في البيـت ننـادي بعضنـا بأسـمائنا الأصليـة، أنـا أكملـت المدرسـة الأوليـة؛ دخلـت مدرسـة الصناعـات الحربيـة، عرفـت الآن أن جـدي كـوال دينـق كـير هـو عـم والـدي وليـس والـده، هـو شـقيق جـدي لادو دينـق كـير، وقـع جـدي لأمـي مجـوك كـوال كريـوم في الـرق في أثنـاء حمـلات إسـماعيل باشـا عـلى جنـوب السـودان، وتـمَّ تجنيـده وهـو صغـير. أُرسـل إلى مـصر ثـم أعيـد تـارة أخـرى كجنـدي حـر، ثـم أرسـلت كتيبـة ابنـه - خـالي جـاك مجـوك كـوال – إلى مـصر مـن أم درمـان بطلـب مـن الخديـوي وكانـت المفاجـأة، في مـصر الخديـوي اسـتجاب لطلـب نابليـون صديقـه الفرنـسي وهـو يحـارب في المكسـيك بأمريـكا الجنوبيـة، عجـز الجنـود الفرنسـيون مـن الصمـود في ذاك المنـاخ الاسـتوائي الممطـر بأدغالـه وأمراضـه وأوبئتـه، فطلـب مـن الخديـوي بمـده، بجنـود سـود مـن جنـوب السـودان ليحاربـوا عـدوه، وهـم أقـدر عـلى التأقلـم مـع تلـك البيئـات ذات الأمطـار الغزيـرة، حملـت الكتيبـة السـودانية بسـفن مـن الإسـكندرية، وهـم يترنمـون ويتغنـون ويرقصـون ويضحكـون، كـما لـو أنهـم ذاهبـون في سـياحة بحريـة، ولا يعرفـون بأنهـم ذاهبـون إلى مقابرهـم الجماعيـة في أمريـكا الجنوبيـة، كتبـت علينـا الذلـة والمهانـة والمسـكنة، حـارب أسـلافنا هنـاك وماتـوا موتًـا جماعيًّـا بغـير قضيـة يؤمنـون بهـا كانـوا كـما المرتزقـة، حـرب ضاريـة استبسـل فيهـا المكسـيكيون ضـد العـدو الاسـتعماري الأوروبي، جنودنـا كانـت بينهـم خسـائر كبـيرة. جُـرِحَ

خالي عدة مرات ولكن الرب قد أنقذه، عاد مع عدد ضئيل ويا لها من كارثة! ما أقسى الخديوي الذي يتبرع بجنوده ويبيعهم بيعًا رخيصًا للمستعمرين كمرتزقة! مقابل المال الذي يعطيه له نابليون!

هكذا كان قد حكى لي خالي سعيد مجوك، هذه الحكاية المؤلمة! كوال دينق كير المشهور بنيازي أو الزنجي الأبيض، كان يأخذني إلى مسقط رأسنا في الغابات بجنوب السودان، يشرح لي كيف كان يكمن قانصو الرقيق في هذه الأدغال كالنمور، يختطفون الصبية والصبي المرضع والعذراء والأرملة من الشابات اللائي يحضرن لجمع الحطب أو لجمع ثمار الأشجار، ينقض المجرم على الفتاة ويكمم فمها، تساعده بقية العصابة، تبكي الفتاة، تنوح نواح الثاكلة؛ يضربونها يغتصبونها، وهناك مراكز التجمعات للربط بالسلاسل المعدنية لكيلا تفر فريسة، أحيانًا يشعر أهلنا بالعدو فيدافعون ويندفعون ويتهافتون للقتال، ولكن الأسلحة النارية تحصدهم فلا يستطيعون تخليص أولادهم أو بناتهم، بل يخسرون أرواحهم، يحشرون على المراكب الخشبية كالبقر يرسفون في الأغلال، كان النخاسة أشرس وأخطر من وحوش الغابة في إلحاق الأذى والضرر بقبيلتنا. جدي الصول حاقد على المسلمين من العرب الذين يرتزقون من بيعنا، الحاكم محمد علي باشا ساعدهم أكثر، فالحكومة قد بدأت تصطاد بصورة وحشية، إسماعيل باشا أتى إلى هذه البقاع واصطاد حسب توجيهات والده، لعنة الله عليه ذاك الضابط التركي أو الألباني الذي حكم مصر بعد أن قضى على المماليك في مجزرة القلعة الشهيرة، حرق إسماعيل باشا في شندي يحكيه جدي كثيرًا، وقال إنه يستحق الموت حرقًا، لأنه سنَّ سنة سيئة، عليه وزرها إلى يوم القيامة كما يقول المسلمون، شخص يبيع شخصًا ليقبض ثمنه وهو مرتاح الضمير، لعنة الرب على النخاسة!

في تلك العطلة اصطدنا السمك من المستنقعات، شبعنا سمكًا، في

كسلا غير متوفر، شربنا اللبن والمريسة حتى ارتوينا. اصطدنا الغزلان والفئران، أكلنا الفواكه التي زرعها الرب في أدغاله، مارسنا طقوس عبادة أهلنا، وزَّع جدي نقودًا وملابس، ما زال أهلنا يمشون عراة، لا أحد ينظر إلى أحد، فالأمر في غاية البساطة، بعضهم لديهم ملابس من جلود الحيوانات المدبوغة، يلبسها الوجهاء في المناسبات، للبنات مئزر يغطي وسطهن أما الصدور فهي في الهواء الطلق بغير غطاء، فرغم جمال مدينة كسلا، فإننا نستمتع بمسقط رأسنا. لم أزره إلا بعد العاشرة من عمري، ولكنني أحببته وعشقته، غناء ورقص أهلنا جميل، وخاصة في المناسبات كالحصاد والزواج، مهر الفتاة ثلاثون بقرة، وكلما كانت طويلة يزداد مهرها، الجمال في الطول وليس في القسمات والملامح واللون والشعر كما في مدينة كسلا. عاداتنا تختلف؛ قد يجري الزواج بعد إنجاب طفل أو طفلين، لا توجد كلمة اسمها العار أو العرض، إذا هربت زوجة مع عشيقها وأنجبت الأطفال ينسبون للزوج وليس للعشيق، ويمكن أن ترجع إلى زوجها بعد حل مشكلتها، لا قتل ولا قتال ولا ثأر للعرض كما يفعل بدو الشمال العرب، إذا مات الرجل وترك زوجات يتزوجهن الابن الأكبر، عدا أمِّه، قد تصل الزوجات إلى العشرات، لا يوجد طفل سفاح. لا قتل للمسافحة، هذه غريزة أودعها إلهنا دينقديت لنتكاثر! الأدغال رائعة المستنقعات الأشجار الأعشاب المتسلقات، الطيور الوحوش الحيوانات الصغيرة الزواحف، تحدث أصواتًا، كالورل لتخيف أعداءها المهرولين خوفًا على أجسادها الهشة، الأمطار طوال اليوم تهطل مع زمجرة الرعد وارتسام قوس قزح على وجه السماء الزرقاء، المزن يتهدل كاد يمس أفنان الدوح العليا، الأعطاف تتمايس، الكنار يغرد ويصدح، الأبقار تمرع الكلأ الأخضر، زمجرة أسد وخوار ثور جاموس، وعواء ذئاب جائعة، طبيعة غراء رائعة رائقة ساحرة، لا يفسدها إلا النخاسة المتربصين تحت الأشجار، رقص ليلي

ونهاري مختلط، حب مباح بغير تزمت كما في شمال السودان، عادات وقيم مختلفة إفريقية قحة بدائية، الخمر هنا في كل بيت كالطعام، ما أحلى المريسة! قال لي جدي: في كسلا وأروما والقضارف والسوكي ومدني والخرطوم، وهذه هي المدن التي زارها، للخمر أماكن أو حانات تسمى الإندايـة، وللدعارة أماكن تُسمى الزقاق، أمَّا في الجنوب فأنا ألاحظ، هنا لكل شاب عشيقة وسيتزوجها، أو يبدأ بالزواج العرفي، حبيبان يمارسان ما يروقهما بغير خوف أو تهديد بالقتل أو الأذى الجسيم، أمَّا هنا، كم من شابة قتلت وكم من شاب ذبح، بسبب العلاقة المشبوهة أو الزنا كما يسميه العرب، غدوت في كل عطلة أصر على والدي لأذهب معه إلى مسقط رأسه، لأشبع رغبات مباحة هناك دون خوف، لقد بلغت الحلم وغدوت أقدِّس النساء السمراوات، إني أتوق إلى الزواج من سمراء أبنوسية وسط الأدغال، أمَّا جدي كوال (نيازي) المتقاعد فكان يذهب إلى الجنوب مرتين أو ثلاثة في العام، أمَّا أنا قرنق بول لادو دينق فأذهب مرة في السنة مع والدي بول لادو دينق، المدون في سجلات الحامية حسب مزاج البكباشي مدحت بيومي، جمعة سبت كمندان، وصرت أسمَّى خميس جمعة سبت كمندان، اسم موسيقي يعجب الحكام، في نهاية هذا العام سيتم تجنيدي لأكون ضمن القوات المصرية في السودان.

3

أدمنت وعاقرت البحث في متحف جدي حينما ينام. وكالعادة عندما يستيقظ من السبات يغوص فيها عميقًا ولا يطفو إلا بعد ساعتين أو ثلاثة. فقد حذرني من الدنو منها، قال لي ذات مرة هذه الغرفة كالشجرة بالنسبة إلى آدم إياك والشيطان، فهو يسكن فيها، البخسة تحيرني، تربكني فيها زواحف كالسحالي تتحرك تحاول أن تخرج، هكذا أتخيَّل، جدي يتقن فنون السحر، هو مهرج، كم مرة استضاف الأحباش وسألهم عن فنون السحر، في كسلا هنود أخذ منهم الكثير، بجانب السحر الإفريقي الذي تعلمه من السحرة الزنوج في قريتنا، حاولت ذات مرة إنزال البخسة لأرى ما بها، عجزت عن انتزاعها من شبكتها (مشلعيبها) وهي ثقيلة جدًا كصخرة جرانيت، ثم إن حبال المشلعيب تثبتها كالأغلال كالسلاسل كالأوتاد، رغم أنها من القرع، فهي مصقولة، صلبة ترن كما لو أنها من معدن، لامعة تصلُّ حينما أقرعها، حاولت ذات مرة أن أهشِّمها لأرى ما بها، الحجر اصطدم بسطحها الصلب فأحدث رنينًا رتيبًا كما لو أنها نحاس أو ذهب، هذه بخسة من قرع الجنوب. فجأة انبعث صوت حلو كصوت الكنار، اندفعت هاربًا، استيقظ جدي كوال مذعورًا، وقف مغتاظًا، دمدم في غضب:

- ألم أقل لك لا تدخل هذه الغرفة، يا كلب؟

لم أرد؛ أمسك الكرباج وأمرني أن أنبطح على الأرض، سرعان ما تمددت مرتعدًا ومرتجفًا، ثم تماسكت بمجرد أن سقط السوط الأوَّل على مؤخرتي، عشر ضربات بالسوط، لم أجزع ولم تطرف لي عين، ثم أردف قائلًا:

- أنـت شـجاع، مـن سـلالتنا، لكـن إيـاك أن تدخـل هـذه الغرفـة! أسـمعت؟ سـأجلدك مئـة جلـدة إذا كـررت الخطـأ.
- نعم يا جدي المعذرة، وسوس لي الشيطان.
- بل أنت الشيطان نفسه.

كان عمـري آنـذاك ثمـاني سـنوات بالصـف الأوَّل بالمدرسـة الأولية بكسـلا، مدرسـة الحاميـة. مـا زالـت أتذكـر صـوت البخسـة، كـما لـو أنَّ في جوفهـا روب تهـزه عجـوز لاسـتخلاص الزبـدة، عـش الشـيطان، حلمـت بـأن أنثـى الشـيطان باضـت في البخسـة، فقـس البيـض أفراخًـا زُغْـبَ الحواصـل، والـذي صرخ هـو أكبرهـم لأنـه جائـع، منـذ ذلـك الوقـت مـا زلـت أتـردد وأتوجـس حينـما أدنـو مـن البخسـة. غرفـة جـدي، عـش الشـياطين، هـل كل شـياطين الغرفـة تدخـل هـذه البخسـة؟ سـأحاول أن أعـرف حسـب خيـالي كطفـل، مـا زالـت وسـط الغرفـة، انتهـزت ذهـاب جدي لسـوق كسـلا لإحضـار اللحم الرخيـص الـذي يحبـه، لحـم الضـأن، هـذه هـي طبـول الحـرب لـدى قبيلتنـا، وهـذا قـوس وسـهم، ورمـاح ودرقـة مـن جلـد فـرس البحـر، جلـود تماسـيح ونمـور وأسـود، مـاذا يريـد جـدي بهـذه الرمـوز الجنوبيـة؟ البخسـة تتحـرك تتأرجـح؛ اعـتراني الرعـب؛ هربـت وحينـما اسـتقرت وتوقَّفـت حركتهـا، عدت أبعـثر أنبـش أفتـش، وعندمـا سـمعت صوتـه الجلجـال يزمجـر وهـو يدنـو رويـدًا رويـدًا، هرولـت إلى شـجرة الجميـز تسـلقتها كقـرد، رطـن معـي بلغـة الدينـكا، وفي حيـاء ترجلـت مـن جـوف الشـجرة زجـرني، ولكنـه لم يعلـم بأننـي قـد تطفَّلـت عـلى متحفـه، بـدأ يحـكي لي حكايـات مسـلية عـن بحـر الغـزال، حكايـات أسـطورية. أعطـاني مـوزًا ونبقًـا. ثـم أمـرني بحمـل اللحـم إلى أمـي لتطبخـه، سـيحضر لنـا بعـض الضيـوف مـن أبنـاء جلدتنـا السـود المسـتعربين، جـدي (نيـازي) هـو شـيخ الدينـكا بمدينـة كسـلا، هـو الـذي يـؤدي بمراسـم الـزواج، هـو رجـل الديـن، يعـرف مـاذا يفعـل النـاس في

تلـك الطقـوس، هـو سـادنها الـذي يحافـظ عليهـا، ويحفظهـا عـلى ظهـر قلـب، الغنـاء الشـعبي، كلـه يحفظـه ثـم يـردده في كل المناسـبات لكيـلا يندثـر وينسـاه، دينـكا كسـلا وهـم في وسـط ثقـافي عـربي مغايـر، هـو يمنـع الحديـث باللغـة العربيـة داخـل الحـي بـين النسـاء والأطفـال في الأنـس والسـمر، لهـذا ظلـت لغتنـا حيـة ناميـة لم تبتلعهـا اللغـة العربيـة، كل شـخص يعمـل في الدولـة لـه اسـمان، في البيـت ينادوننـا بأسـمائنا الأصليـة. كراهيـة جـدي للعـرب سرت وتعمقـت في دواخلنـا، كان يقـول لنـا اسـترقوا أهلنـا باعـوا أهلنـا، كل مـن يجـد فرصة للانتقـام فعليـه أن ينتهزهـا، ما ألعن البـدو! كل حاميـة كسـلا مـن أهلنـا، باسـتثناء الجنـود المصريـين وعددهـم ضئيـل، كراهيـة جـدي للعـرب جعلتـه يميـل إلى المسـيحية أكـثر، قـال لجنـود الحاميـة مـن أهلنـا، تنـصروا إذا أردتـم، المسـيحية لا تعـرف العبوديـة، ولم تقتـل، ولم تظلـم، لهـذا ظـل معظـم الجنـود وصـف الضبـاط السـود يبطنـون الوثنيـة والمسـيحية ويظهـرون الإسـلام، ولكـن الوثنيـة أعمـق، في ليـالي السـمر المختلطـة نـشرب المريسـة والعـرق، ونقـرع طبولنـا، نـسرف في الـشراب ونـأكل اللحـم، تغنـي كل الكتيبـة غنـاء الدينـكا وترقـص رقصهـم، معنـا أقليـة مـن قبيلتـي الشـلك والنويـر، كانتـا مندمجتـين معنـا، أهـالي كسـلا لا يعرفـون النويـر والشـلك، يقولـون عنَّـا فقـط دينـكا، غضبـت ذات مـرة وأنـا في مقهـى بمدينـة كسـلا. رأيـت جـواري شـابين أبيضـين وسـيمين عربيـين، قـال أحدهـما لي بالغـة العربيـة الفصحـى:

- هات لي ماءً!

قلت له بغضب:

- لست عاملًا في هذا المقهى.

أردف الطويل في وقاحة قائلًا:

- هات الماء، لماذا لا تخدم سيدك إنه لشرف لك.
- أنا سيدك أنت، قم وأحضر لي الشاي.

ضحك ملء فيه وقال:

- نحن أشراف، أبناء قبيلة (ز) ملوك هذه الأرض، هيا معنا لترعى إبلنا بمقابل كبير، نحن آخر قبيلة أتت من الجزيرة العربية. ألم ترَ اللون النقي الصافي العربي؟
- أنت جاهل، أنا موظف دولة.
- لعنة الله على الدولة التي توظف أمثالكم، لولاها لرعيت إبلي مدى حياتك مجانًا، أتدري لماذا؟

شعرت بأنه لا جدوى من حوار هذا الشاب النزق العنصري المغرور ببياضه وجماله، زادني هذا الحديث حقدًا على كل الوافدين إلى بلادنا وأذلونا، الشكر للحكومة المصرية التي جندتنا في الجيش وهمَّشت البدو المتكبرين.

تمام الصباح، يقف فيه الجنود كالغربان الناعقة، جمال رائع، صفوف قوية متماسكة كالبنيان المرصوص. الضباط المصريون بألوانهم البيضاء تشع في رونق الضحى، وهم كبقع بيضاء وسط ثوب أسود، كل الضباط بيض. الجنود المصريون عددهم قليل، معظمهم صف ضباط أقل رتبة هي رتبة أمباشي، حتى الشباب دون العشرين الذين جُنِّدوا ودُرِّبوا على عجل ثم وزعوا على حاميات السودان، عددهم في حامية كسلا دون الخمسين، في حين أن السود من عشيرتنا يقاربون الألف، الجنود الأجانب متكبرون متغطرسون عنصريون، المساعد أماتنوج قبريال كفية قنجة هذا هو اسمه الجنوبي. مدون في سجلات

الجيش رأفت سعد أبو بكر ملهم، لا يحييه الجنود؛ ينظرون إليه نظرة استصغار كجندي مستجد يقول لهم انتباه! لا أحد يستجيب، اشتكاهم للبكباشي قائد الحامية، فقال له: هم صغار السن ولم يستوعبوا لوائح الجندية، اعذرهم، أنت كبير يا رأفت، هم إخوانك أو أولادك الصغار، الكبير كبير والصغير صغير.

اغتاظ أماتنوج قبريال أيما اغتياظ، ولكن ماذا يفعل مع قانون ولوائح المستعمر المتكبِّر، هذا الجندي الصغير يعتبر نفسه أميرًا هنا، رواتبهم أعلى، مخصصاتهم أكبر، سكنهم أرقى، قال وكيل أمباشي مصعب أباظة حسني للجاويش موبان كير توت، يا عبد العبيد، فما كان من موبان إلا أن سدد له ضربة قوية على عنقه، فسقط يخور كثور مذبوح، ورغم الشهود والظلم والإساءة العنصرية، أودع الجاويش في الحبس وعزل جراء ضربه الجندي.

الجندي قلواك (حامد) أحبَّ فتاة خلاسية جميلة، كانت أمها تبيع الطعام جوار مدخل الحامية. خطبها، وافقت الفتاة والأم، أهلها رفضوا أن يزوجوا قلواك؛ إنها نزعة قبيحة عنصرية، أخفقت كل المحاولات، أشهر أعمامها سيوفهم المصقولة، قال عمها لن نقبل بهذا الغريب زوجًا لابنتنا، ليست لديه أهلية، الإسلام يمنع ذلك، قال له الصول أيمن أسعد المصري سأزوِّجك بنت عمي المصرية إذا انتظرت الإجازة؛ فرح قلواك أيما فرح، ووفر كل راتبه لزواج فتاة حسناء، اعترض جدي. وطلب منه أن يختار أي فتاة من فتيات الحامية الحاميات، أو أن يرجع إلى الجنوب ليختار، ولكن وعد أيمن أسعد جعله يفقد عقله، خاصة أنه شاهد زوجات الضباط والجنود المصريين البيضاوات الجميلات، كان يمنِّي نفسه أن يقتني زوجة تضارعهن وتناظرهن في الحسن والبهاء والنقاء. وبعد عام جاء الموعد، كان قلواك أطوم يتوق إلى رؤية مصر، ولكن في آخر الأيام، وقبل يومين من السفر، رفض أيمن سفر قلواك

أطوم معه، وطلب منه توكيلًا شرعيًا ليتم بمقتضاه الزواج، شعر قلواك أطوم بحسرة ولوعة. وحاول إثناء الصول أيمن أسعد ولكن هيهات، كان معه واضحًا، قال له إذا رأوك لن يزوجوك، أهلنا عنصريون، سأقول لهم اسمه حامد محمد حامد، ضاعت صورته مني، عربي سوداني، لن يرفضوا وحينما تأتي سوسن إلى هنا لن ترفض، وستجد نفسها أمام الأمر الواقع، وافق قلواك أطوم على كل المطالب، أكثر من الاقتراض، أسرف الصول المصري في المطالب، مهر الغواني الجميلات عال غال، اعترض جدي على الابتزاز، خاصة أن أيمن مدمن مخدرات وعربيد وسفيه وغير متزوج، معظم أوقاته في الماخور والإندايه، حذَّره جدي قلوك ولكنه رفض، اعتبر أن جدي يحسده على زواج المصرية البيضاء، كأوَّل جندي في الحامية يتزوَّج ببيضاء، غاب أيمن سافر إلى مصر، وفي كل يوم يتوق قلواك إلى حضور العروس التي كلفته مبالغ طائلة، باع عشرين بقرة بقريته بالجنوب، وراتب عامين، واشترى الذهب والفضة حسب إرشادات أيمن، وبعد ثلاثة شهور من الانتظار الممل والممرض، أطلَّ أيمن في الخرطوم، ويُقال إن معه فتاة جميلة، كان قلواك في مأمورية لمدينة القضارف مع القائمقام، وصل في ذاك المساء الصول أيمن ومعه الفتاة البيضاء الجميلة، كانت بيوت صف الضباط المصريين أجمل من بيوت السودانيين ولكنها في تماس معها، هب كل سكان الحارة لاستقبال زوجة قلواك. النساء الجنوبيات لم يصدقن أن هذه الساحرة زوجة لقلواك أقبح جندي في الحامية، احتارت النساء وهي غير مخضبة ولا مكحلة، أي عروس هذه؟ اغتسلت تسوكت تعطرت تمكيجت، غدت كزهرة البرتقال، هل هي في انتظار زوجها، خشين أن ترفضه لدمامته الفجة، ولطوله الشاذ، إنها بيضاء أجمل وأروع وأحلى امرأة شاهدنها في كسلا.

جاء قلواك من المأمورية، أدَّب البدو وزج بهم في السجون، بسبب قتلهم ثلاثة من الباشبوزق ورفضهم دفع الضرائب. جاء مهرولًا إلى دار

أيمـن أسـعد الـذي احتضنـه بفتـور ليـس باندفـاع قلـواك، انبهـر واندهـش، حينـما رأى السـاحرة الجذابـة سوسـن بيومـي تـادرس، ثـم وثـب وأيمـن يضحـك، الدهشـة تعـروه! هـو حائر، سرعـان همس أسـعد، ثم قـال بوضوح:

- هـذه هي زوجتك سوسـن بيومـي المصرية. أتصدق ذلـك يا قلواك؟

تلعثم تلجلج، وهو يقول:

- الشكر لك، إذا فلتذهب معي إلى بيتي، لقد أعددت كل شيء!

أومضـت بأسـنانها اللؤلئيـة، ثـم أطرقـت وتأوهـت وتنهـدت، زفـرت زفـرات حـرى، سـجعت وهمهمـت وغمغمـت وغمـزت بعينهـا النجـلاء، أطرقـت.

أتجـه نحوهـا قلـواك، انفرجـت شـفاهه أكـثر مـما ينبغـي، بـرزت أسـنانه الطويلـة، قـال لهـا وهـو يمـد يـده:

- كيف حالك يا زوجتي العزيزة!

لم تنبـس ببنـت شـفة، ولم تمـد يدهـا، يـده الضخمـة مشرعـة الأصابـع الطويلـة كأطـراف الأخطبـوط، زجرهـا أسـعد في حـدة وهـو يقـول:

- مدي يدك يا تافهة، أليس هو زوجك الذي أتيت من أجله؟
- يا أيمن لا تغش الرجل!

صافحتـه! غاصـت يدهـا الناعمـة داخـل راحتـه العريضـة، أحسـت بخشـونة يـده كالمـبرد، بينـما شـعر بنعومـة يدهـا، عرتـه رجفـة، تدفـق هيامًـا، أثارتـه كيـف يقـضي منهـا وطـرًا، وتبـدو عليهـا سـيماء الكبريـاء والزهـو، تجاهلـت حديثـه، شـعر بأنـه مهـان ومضطهـد. قـال مسـتفسرًا:

- هل حقيقة هي؟

- زوجتـك، نعـم، خـذ هـذه هـي قسـيمة الـزواج، هـي ابنـة أختـي، لكنهـا مغـرورة، عليـك أن تصـبر عليهـا، اقـرأ وثيقـة الـزواج لتتأكـد!

طفـق قلـواك يفحـص جيـدًا وثيقـة الـزواج، وجدهـا صحيحـة، انفرجـت أسـاريره، تبـددت هواجسـه، زمجـر في حـدة:

- هيـا إلى بيتنـا، أنـت زوجتـي، معـي خـروف كوليمـة، سـأدعو أهـلي وبنـات عمـي.

أردفت قائلة:

- لمـاذا لا تتـزوج مـن بنـات عمـك، ولا شـك بأنهـن جميـلات مثلـك!

استشـاط أيمـن غضبًـا، هاجمهـا طاردهـا، هرولـت هربـت لحـق بهـا داخـل الغرفـة، كـما لـو أنـه يـود ضربهـا، ولكنـه سرعـان مـا التحـم بهـا، وسـوس لهـا في أذنهـا، خرجـت مبتسـمة مشرقـة، فغـر قلـواك فـاه، قـال أيمـن مـرة ثانيـة:

- أنـا ولي أمرهـا، سـتذهب رغـم أنفهـا، وإذا رفضـت اشـتكها لقـاضي كسـلا سأشـهد لـك، بيـت الطاعـة، لا بـد، أنهـا ناشـز!

- لا أحتـاج إلى بيـت الطاعـة، لـديَّ شروط إذا وافـق عليهـا قلـواك، بالطبـع سـأكون زوجتـه، يومًـا معـك ويومًـا مـع خـالي أيمـن أسـعد، مـا رأيـك يـا سـيد حامـد؟

- موافـق يـا سـيدة سوسـن بيومـي، سأسـلمك كل راتبـي، أنـت تأمريـن وأنـا أنفـذ، سـتكونين معـي كأميرة. ولكـن هـذا اليـوم يومـي، هيـا معـي.

- سأنام اليوم مع خالي أنا مرهقة.
- ولكن ولكن ألسنا في شهر العسل؟
- هـذا قـرار ليـس فيـه رجعـة، قـم لبيتـك، تعـال غـدًا بعـد نهايـة الـدوام.
- نعـم زميـلي حامـد، هـذه البنـت مدللـة، لا نريـد أن نثيرهـا، ابنـة أختـي يتيمـة. تحـرك الآن وداعًـا، سأسـلمك لهـا غـدًا بعـد الـدوام،

خـرج قلـواك كئيبًـا، مكسـور الخاطـر. انتابتـه هواجـس ووسـاوس، هـل صـدق أيمـن أسـعد أم كـذب؟ هـذه الفتـاة الجميلـة سـتتعبه. دخـل بيتـه مثلـوم الجنـان، قابلتـه بنتـي خالتـه، نيـاور ونيـاراك، وبنـت عمـه أشـان، سـألنه عـن العـروس التـي طـال انتظارهـا، لم يـرد اسـتعصم بغرفتـه وطفـق ينتحـب وينـوح نـواح الثاكلـة. ثـم ولجـت زوجـة عمـه نياطيـم المشـهورة بمسـكة مسـتفسرة، ولكـن أغلـق الغرفـة بالمـزلاج مـن الداخـل. هل سـتحقق نبـوءة كـوال الـذي قـال لـه: سـيخدعك أيمـن، لـن يزوجـك مصريـة، لا تضيـع وقتـك وثروتـك!

4

جدي كوال دينق كير سمع بوصول زوجة قلواك المصرية سوسن بيومي تادرس، علم أنها في بيت أيمن أسعد، لم تلج بيت زوجها، فهي نافرة ناشزة، فهم بأنه ثمة شقاق، لم يغمس نفسه، آثر التريث ريثما ينكشف الأمر. لاكت الألسن بياضها وجمالها وتمردها على زوجها المسكين، يظاهرها خالها المزعوم. اقتفيت آثار جدي وهو يغذ الخطى نحو منزل الصول أيمن أسعد وخلفه قلواك الذي جاء باكيًا شاكيًا لشيخ الدينكا جدي كوال (نيازي)، دخلنا بغير استئذان؛ يا للأسف وجدناها بملابس شفافة داخلية، أظهرت جسدها الأبيض الناصع المصقول، هرولت وتوارت لبست عباءة سوداء عليها طرحة بيضاء، ولكن شعرها الفاحم الطويل يظهر بكثافة، قبعت أمام جدي قالت:

- أنت أبيض مثلنا، هل لك جذور مصرية؟ أنت جميل يا عم!

استشاط جدي غيظًا، ثم دمدم؟

- من أنتِ؟
- أنا سوسن بيومي تادرس؟
- مصرية؟
- لا هندية.
- كيف؟ هذا أمر غريب!
- غرق أبي وأمي، فتبناني مصري اسمه بيومي تادرس عبد

المسيح غير اسمي، ثم توفى، طردني أولاده، ففررت في كل يوم أنام في بيت، نحن الهندوس لا نكذب هذه هي الحقيقة.

- هل تزوجك قلواك؟ وما علاقتك بأيمن أسعد؟
- مجرد صداقة.
- هل تزوجت قلواك؟
- لا أدري، هذا الأمر يعرفه أيمن، أرى أن تسأله، قال لي مثِّلي، ساعديني لا تحرجيني، هيا معي إلى السودان، سترين الأدغال الأسود والنمور والأفيال داخل الأسواق والناس الذين يأكلون الناس، الناس الذين يتحولون من بشر إلى ذئاب ونمور وصقور، الفضول وحب الاستطلاع هما اللذان دفعاني للمجيء.
- ألست زوجة لحامد؟
- هذا الأمر يعرفه أيمن أسعد، هذه المسرحية مللتها.

وبعد وهلة أطل أيمن مهرولًا، صافح جدي بأدب ناداه بالعم نيازي، انهال على الفتاة ضربًا، حتى هربت ودخلت تحت السرير، شرع يضربها وهي جارية خائفة، أوقفه جدي كوال دينق كير، الفتاة تصرخ وتستغيث جزعة هلعة، أمسكه جدي وأوقفه. وحال دون استمراره في الضرب. ما زال أيمن يلهث غاضبًا، نعتها بالعاهرة، شاهدها الناس متبرِّجة سافرة، طلب منها أيمن أن تذهب مع زوجها. وافقت على مضض، اغتاظ جدي أيما اغتياظ، قال بصراحة وبكآبة:

- هذه يا قلواك ليست زوجة لأمثالك، ابحث عن غيرها، لا تضيع وقتك، لن أتدخل بعد اليوم، هذه مهزلة.

رفض قلواك نصيحة جدي وشرع يتوسل ويتضرع، اقتاد أيمن الغانية اللعوب إلى بيت قلواك المعد لمسرح العروس، قفل أيمن عائدًا وترك سوسن كمهرة جامحة صعبة الترويض، بذل جهدًا لإقناعها لتستقر ولكن هيهات، حاول استعمال الوعيد والتهديد، فكر في جندلتها وتهشيمها، وحينما اقترب شَهَرَتْ سكينها الحادة، تقاعس تقهقر. في انتظار الليل وحينما دلكت الشمس إلى المغيب توارت وأفلت، هي الآن في بيت أيمن؛ لاحقها، أيمن يعده بأن يردها له غدًا، عاد بخفي حنين، سينتظر إلى غد، دعا الرب أن يقنعها لتستقر معه، وفي اليوم التالي أوفى أيمن بوعده أعادها صاغرة، ولكنها إعادة صورية، وهي غير مقتنعة، لكنها وعدته أن تتجاوب وستلبي رغبته. أمرته بأن يناديها باسمها الهندي وليس المصري سواندا برد، وطفق يناديها، مشت في ذاك المساء متنزهة على ضفاف نهر القاش، طلبت أن تمشي وحدها، والشمس تدلك للمغيب، ينسكب عسجدها على لجين الماء، همست آه ما أروع الإسكندرية! أهذا شاطئها الرملي، فجأة وبغير مقدمات خلعت ملابسها وسقطت على الماء المنساب بتياراته بدواماته، سابحة كسمكة غاصت نبعت في منتصف القاش، رغم الطمي والماء غير الصافي، تجمع الغوغاء وهم ينظرون للخوجاية السبَّاحة الماهرة، الفضوليون يتكاثرون، إنهم يهفون ويتلهفون لخروجها لرؤيتها عارية كما توهموا، ولكنها كانت ترتدي ملابس السباحة التي تستر كنوزها، كان قلواك كئيبًا يحدق إلى المشهد الغريب، حبه لها يجعله يتحمل كل هناتها وزلاتها وسقطاتها، خرجت شبه عارية مع وجود العشرات وهم يستمتعون بمشاهدة هذه الغانية ذات الجسد البرتقالي الغض، والشعر الطويل الجميل، أجمل غانية الآن بالمدينة، زوجة أقبح شاب بالمدينة كما قال الغوغاء. عسعس الليل طبخ لها قلواك دجاجة، التهمتها بنهم، قدم لها فاكهة، احتست بضع أدنان من كحول الجن والشري. ذهب

إلى يستحم، وحينما عاد وجدها قد هربت إلى بيت أيمن، بكى تارة أخرى. ماذا سيفعل مع الفتاة اللعوب، تشرب الخمر، وتلج الأسواق نهارًا؛ تلهث لإشباع رغباتها الروحيَّة، تعرَّض قلواك لعزل وخصام من كل الدينكا بالقشلاق نتيجة عبث سواندا أو سوسن، فَقَدَ عترته، لم يعد له صديق أو قريب.

5

ما زلت في التدريب الشاق المميت، صعود ونزول جبل توتيل الشامخ البركاني، وأحيانًا نسبح ونعبر نهر القاش عشرات المرات، سباحة وجري وتمارين رماية. بعد شهرين سأتخرج لأغدو جنديًّا محترمًا محترفًا. في المعسكر انتابتني الذكريات وأنا طفل في قريتنا، ذهبت مع والدي في العطلة، كنت أسبح مع صديقي في المستنقع السطحي، فجأة أحسست بتيار ماء يتحرك نحونا أو موج خفيف يندفع نحونا، توجست قلت لكير: إني خائف، شممت رائحة وحش، ضحك وقال لي: هذا موقع ضحل لا تصله التماسيح، قلت له: ربما تصله لتجد فريسة، هذه حركة مخيفة مفزعة، فجأة وثب تمساح وانقض على رجل كير، قبضت يده، التمساح يجر وأنا أجر، صرخ استغاث قال لي كير: إياك أن تتركني ليأكلني التمساح، اقبضني، الدم رجلي تؤلمني، أنيابه حادة تغوص، كاد يقطع رجلي بأنيابه، ثبتته قبضته بقوة، وأنا أجر وأجر لأخلصه من الفك المفترس، والتمساح يجر ويجر، صرخت، جاء راعي جاريًا وفي يده حربة. يا له من شجاع! وصلنا زرعها في جوف الوحش، هي مسننة معكوسة، ثبّتت التمساح وهو يحاول الخلاص من الكوكاب معكوس الأسنان، ترك رجل كير الذي هرول مجروحًا خرج الماء، الراعي يجر التمساح المجروح المشلول، ذبحه وتعشينا به، جاء ليصطاد فاصطاده الراعي، جروح كير عميقة نازفة، غسلوها بالسمن المغلي، ثم بمسحوق أوراق جافة.

قال لي الأطفال في هذا الدغل نحن نصادق الشيطان وهو يلعب معنا، نمازحه نركب على ظهره، هو وديع عكس ما يقوله الناس، هو ليس شريرًا، أتريد أن تراه وتركب على ظهره؟ دفعني الفضول إلى

متابعتهم، دغل كثيف غصنا فيه، إنهم واثقون بأن هنا عش الشيطان أو وكره، كنت في مؤخرة الركب، عشرة أطفال بينهم ثلاث بنات. رابطات الجأش، يضحكن يثرثرن، يقلن إنهن قد اشتقن إلى جدهن الشيطان، نسور تسف وتعلو وتهبط على أفنان الدوحة الكثيفة التي تتوسط الدغل، هي صومعته، هل هو موجود؟ أي شيطان يتحدث عنه الأطفال، ترتعد فرائصي كلما تغلغلنا وتوغلنا نحو الدوحة، أين إبليس المزعوم؟ توجست، خشيت من غدر النمور، الغابة مظلمة عميقة، تعلوها المتسلقات التي تتطفل على سوق الدوح، تصل إلى قاعها وقمتها ممتصة رحيقها وتنافسها في ارتشاف الشعاع؛ كاللبلاب والسلعلع، الأطفال يزعقون يصرخون: الشيطان الشيطان يا قيطان. صراخهم، أعاد الطمأنينة لنفسي، وشرعت اقتفي أدراجهم بحذر. هم الآن وسط سياج كعش الزنابير تتسلقه المتسلقات المزهرة، تحيطه الحشائش الطويلة وتتمدد أمامه المروج، هل هذا الشيطان من العصر الحجري، الفواكه تتساقط مانجو ونبق وباباي، زأر أسد، وعوى ذئب، قهقه قيطان الشيطان مسرورًا وزمجر بصوته الأجش المبحوح:

- مرحبًا، يا أولادي وبناتي.

اختبأت خلف جزع شجرة مهوقني ضخمة سميكة ذات أوراق وأفنان متشابكة، لا يصل شعاع الشمس إلى الأرض، رأيت شبحاً ذا ضلوع كبيرة. أسود، منزوع الثنايا، جسده كجسد التمساح تغطيه القشور، الرأس أصلع، الجسد أجرد من اللحم، هيكل عظمي، أهدابه فضية، أذناه كبيرتان بفم عريض رغم الشيخوخة كان رشيقًا لطيفًا، انحنى فركبت على ظهره الطفلة نياطيم، نهق ووثب كما لو أنه حمار. ترجَّل ثم امتطاه دينق منوال، فجأة توقف، اعتدل، هو طويل جدًا، أردف قائلًا:

- لا بـدَّ أن معكـم غريـب، أيـن هـو؟ هـل هـو مختبـئ؟ تعـال يـا بنـي يـا قرنـق، خميـس جمعـة سـبت، لعـب العـرب بـك، لـو كنـت في مدينـة كسـلا، لانتقمـت منهـم، أتـراك مصريـون سـودانيون، لعنـة الـرب عليهـم! أنـا قيطـان الشـيطان، آه لقـد ظللـت تحـت هـذه الشـجرة أكـثر مـن ثمانـين سـنة، أتـدري يـا قرنـق؟ مـا ألعـن عدونـا! لعبـوا بنـا، لـولا أمـي لكنـت عبـدًا أعمـل تحـت إمـرة سـيِّد، قصتـي مـع هـذه الشـجرة غريبـة، هـي أمـي وأبي وأختـي وأخـي.

قال قرنق متسائلًا:

- هـل أصابـك الخـرف يـا جـدي قيطـان الشـيطان كـما يسـميك الأطفـال؟

- آه، هـذا حديـث طويـل ذو شـجون، لـو صـبرت سـأحكي لـك كل القصـة والحكايـة، منـذ بدايتهـا إلى نهايتهـا، لمـاذا أنـا متوحـش؟ أعيـش مـع الوحـوش. أمِّـي نيـاراك تـصرخ تولـول والسـوط يـضرب بقـوة عـلى ظهرهـا النخاسـة يسـحبون يدفعـون الأسرى للمراكـب التـي تسـبح في بحـر الغـزال، سـمع شـباب قريتنـا بالـصراخ فهبـوا لنجـدة الأسـيرات، كان ابـن خـالي ويـل يجـري بقـوة. دفـع الحربـة بقـوة نحـو ظهـر الرجـل العـدو الـذي صرخ وسـقط جريحًـا، أطلقـوا عليـه النـار بكثافـة، سـقط والرصـاص قـد ثقـب جسـده؛ الـدم يسـيل مـن صـدره، فـرت حيوانـات الغابـة، أسـقطوا عـشرة، قتلوهـم، مجـزرة مذبحـة، السـلاح النـاري خطـير حصـد العـشرات، والمئـات فـروا بعـض الشـباب الذيـن أتـوا لينقـذوا أخواتهـم، أسروهـم وربطوهـم كأسرى كرقيـق، بعـض الأطفـال جـاءوا يبكـون ويبحثـون عـن أمهَّاتهـم فضموهـم إلى قطيـع الرقيـق. مـن بـين المخطوفـات مرضعـات وحوامـل وعرائـس، تركـوا العجائـز المسـنات وأخـذوا الشـابات الجميـلات والشـباب الأقويـاء، أخـذوا ثلاثـة أربـاع القريـة، تركـوا الحـزن والأسى واللوعـة، أسرة

كاملة أخذوها لبيعها، الحاكم المصري الجديد لديه رغبة كبيرة في الرقيق، يقال إنه يريد أن يقوي بهم جيشه، تابعت العبيد أدخلوهم مراكب كبيرة خشبية كالحيوانات، نثروا لهم الذرة الجاف كما يشتت للدجاج، عنف وقسوة، إنهم ظالمون جشعون، تسللت خلسة، لأرى ماذا فعل اللصوص بأهل قريتي، كنت أحبو وأزحف، أنا الآن أراهم يدخلونهم ويحشرونهم حشرًا كالحيوانات، القرود الفهود كل حيوانات الغابة خرجت تودع المسروقين؛ البوم ينعب الغربان تنعق، تغترب ترفرف بأجنحتها، إنه وداع كئيب أخير، اقتربت كثيرًا لأرى وجه أمِّي، يا لها من نظرة أخيرة لن نلتقي، دموعها نازلة نازفة، بكيت فكرت في القفز واللحاق بها، ولكن تذكرت وصيتها أن أبقى تحت الشجرة لكيلا يسرقني لصوص البشر، لعنة الرب عليهم. آه نياراك تسافر سفرًا نهائيًّا، لهذا تبكي بكاءً حزينًا، تحرَّكت المراكب والرجال اللصوص يطلقون الرصاص، لإخافة أي فرد يحاول اللحاق بهم لتخليص الرقيق، أوثقوهم بالسلاسل أوسعوهم ضربًا، وأمطروهم سبًّا ولعنًا، ما تبقى من سكان القرية من الأطفال والعجائز ظلوا يبكون ويندبون حظهم العاثر وقدرهم القاهر، لاموا رب الأدغال دينقديت الذي تخلى عنهم وتركهم فريسة للصوص، بكوا لعنوا ذاك اليوم، جدتي نيالواك احتوتني احتضنتني، عوضتني حنان أمي كل يوم أحضر إلى هذه الشجرة. لأتذكر ما جرى، حلمت بأن أمي نياراك ستعود ملكة متوجة على هذه الأدغال ستنزل على قمة الشجرة بجانحين، ستسلمني سيفًا لأقطع به رؤوس العرب الذين سيكونون رقيقها، سنربطهم سنجلدهم، كل يوم أنتظر عودتها إلى أن أدركتني الشيخوخة، لا بدَّ أنها ماتت لقد مرَّ على تلك الحادثة، حادثة استرقاقها، أكثر من سبعين عامًا. لا بدَّ أنه قد أشتراها ثري في الخرطوم، وقد تكون قد بيعت في القاهرة، وأتمنى ذلك لكي تعمل في البيت في المطبخ، أمَّا إذا اشتراها مزارع،

سيكون قد أرهقها وحطمها بالعمل في الحقل، لا بدَّ أن تكون في عالم الأموات، ما أشق عمل الحقول! ما أتعس الرق! سأنتقم ذات يوم من الذين استرقوا أهلي! هم الذين سرقوا نصف سكان قريتنا، لبيعهم كسلع، لولا السلاح الناري لما استعبدونا، أولادنا يعملون كجنود عليهم الانتقام كلما تظهر فرصة للثأر. أنا هنا في هذه الراكوبة، أنام على سقفها، فرشي ووسادتي الحشائش الجافة، سقف العريش آمن لا تصله الحيوانات المفترسة ولا الثعابين، مكثت سنين مع جدتي نيالواك، قتلها الجدري، هجم الطاعون فأباد القرية كما لو أنه النخاسة، فرَّ وهرب من تبقى، أنا هنا أكثر من نصف قرن، سأموت هنا أو تأتي أمي كأميرة تحكم هذه الأدغال وأنت يا بني قرنق، ستجد نفسك ذات يوم كسائر أسلافك العبيد، ستكون جنديًّا، ولكن لا تنسَ ثأر أسلافك، إذا وجدت مسلمًا عربيًّا أو زنجيًّا فاقتله؛ انتقم منه ولو بقتل طفله كما قتلونا، هذه وصية الآباء والأجداد، كلب من لم يثأر لأسلافه هو حمار ابن حمار، لو وجد أسود فرصة في عدوه ولم ينتهزها، فهو كلب ابن حمار، لا تكونوا حميرًا، في كل مدن السودان أنتم كسلالة رقيق ستجدون فرصًا.

6

فرحت فرحًا شديدًا، لقد غدوت جنديًّا في حامية كسلا، شعرت بالغرور والزهو وأنا ألبس المِيري المكوي الأنيق، راتب شهري ومكانة اجتماعية مرموقة، في السوق ينظر إلينا الناس كالحكام المصريين والأتراك، زاد دخل عائلاتي، لدينا راتبان، تحسَّن وضع الأسرة، أمِّي سرَّت سرورًا عظيمًا وهي تراني جنديًّا، كانت أمنية أي شاب آنذاك، نحن الزنوج نستأثر بهذه الوظائف، البدو رعاة وزراع. ونحن مهمتنا أن نحمي الدولة من كيدهم، وقمعهم حينما يثورون أو يتمردون على دفع الضرائب، وهنا مربط الفرس، هم يمتنعون عن دفع الضرائب، فتارة يهربون، وتارة أخرى يمتنعون. وفي كل الحالات علينا تأديبهم واستئصال شأفتهم وشل مقاومتهم، لهذا لن أنسى وصية جدي قيطان وجدي كوال دينق، أتمنى أن يتمرد العرب، لأذيقهم العلقم، لأنتقمن لأسلافي من النخاسة الذين اختطفوهم واسترقوهم. كنت أتمنى أن يتمرد البدو لأفي بوعدي لجدي قيطان، وحتى جدي الأبيض كوال يفضل ألا ينسى الزنجي ما فعله النخاسة بأهلنا، تلك حظيرة لمالك، فيها رقيق كلهم من جنسنا، سوق الرقيق مزدهر مكتظ سمعتهم يرطنون، لا بدَّ أن أذهب، ربما أجد أشخاصًا من قريتنا بل من أقربائنا، والدي حذرني، الحامية الزنجية كلها ترنو إلى سوق الرقيق وسط مدينة كسلا بغيظ وغضب، هم أهلنا يباعون كالبهائم، شباب وشابات، حكومة الخديوي التركية، سيطرت على مصر ثم غزت السودان من أجل العبيد، من قريتنا قبض إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا خديوي مصر -قبض المئات وأرسلهم لمصر، لا بدَّ أنهم عبيد في قصر أحفاده، الخديوي عباس باشا ومحمد سعيد باشا، وإسماعيل باشا، لعنة الرب عليهم،

سأنتقم ذات يوم من المصريين والأتراك والسودانيين. ما زالت مشكلة العاهرة سوسن بيومي تؤرِّق رجال الحامية، كلهم جلسوا مع قلواك أطوم وطلبوا منه، أن يشتكي الصول أيمن لقائد الحامية الصاغ تامر بيطار الأغا، ولكنه لم يفعل ما زال يطاردها وهي تتنقل من بيت المساعد إلى بيت الصاغ، جدي كوال. شهر في وجهه سلاح المقاطعة، لأن سوسن شتمته بألفاظ عنصرية سمعها كل سكان القشلاق، قالت:

- أنت سوداني، لا يمكن أن أكون زوجة لمثلك، خدعك الصول أيمن، خذ قروشك منه، أو اذهب إلى قاضي كسلا مولانا حسني الزغلول، سينصفك سيرد لك نقودك.
- أرجوك يا سوسن، أنا زوجك، هذه هي قسيمة الزواج.
- أنا لم أتزوَّجك، اذهب إلى تلك الحظيرة فيها بنات أهلك مقيدات بالسلاسل، فك أسر واحدة اشترها، حررها اعتقها تزوجها، ستدخل الجنة، إنهن كواعب جميلات كما لو أنهن نبعن من ليل الأبنوس الاستوائي.

هكذا كانت تتعالي عرقيًّا، جدي أمر كل نساء ورجال الحامية بمقاطعة قلواك أطوم، لا يحيونه، لا يردون تحيته، منعوه من مجالس شرب المريسة، وليالي السمر والغناء والرقص، شعر بعزلة مميتة، رأى جدي كوال، لا بدَّ أن ينتهي أمر هذه العاهرة التي شاهدها الناس تدخل الماخور والإندايه مع أبناء الأثرياء العرب، وبالليل تقضي معظم وقتها مع الصاغ تامر بيطار الأغا، وأيام كثيرة تنام في بيت الصول أيمن أسعد، الصول أعزب والصاغ أرمل، غرقت زوجته في نهر القاش في أثناء سباحتها لعبوره في فصل الخريف وقد فاض النهر وامتلأ ماءً. جرفها التيار وطوتها اللجج وجدوها على بعد خمسة عشر كيلومترًا،

وسـط الغابـة، دفنـت بمقابـر كسـلا، قبـل عامـين، اسـمها منـيرة لطفـي الصبـاح، كانـت غانيـة سـاحرة فاتنـة جذابـة، كل شـباب كسـلا كان يتـوق ويهفـو ويرنـو إليهـا، بكـت المدينـة وسـكبت العـبرات حزنًـا لوفاتهـا، لأنهـا كانـت طيبـة متواضعـة متوهجـة، حتـى حيُّنـا هـذا، حـي الزنـوج تـزوره، وكانـت تربطهـا صداقـة مـع نسـاء الجنـود، وهـذا لم يحـدث في تاريـخ نسـاء المصريـين والأتـراك، كـن ينظـرن إلى نسـائنا نظـرة تعـال وتكبـر كرقيـق كسـوداوات قبيحـات مـن سـلالة العبيـد، هـل خلقنـا الـرب عبيـدًا أم إن الإنسـان المجـرم هـو الـذي اسـتعبدنا؟ مـا زالـت نسـاء القشـلاق يـزرن ضريحهـا ويترحمـن عليهـا، ويعتقـدن بأنهـا قديسـة أو وليـة صالحـة كـما يقـول المسـيحيون والمسـلمون، وفي الحقيقـة نسـاء القشـلاق ليـس لهـن ديـن، فتـارة مسـلمات وتـارة مسـيحيات وتـارة أخـرى وثنيـات مثلنـا تمامًـا، كلهـن يقلـن ولـو مـن بـاب التعاطـف والحـب: نحـن عـلى ديـن منـيرة، في مقابـر كسـلا جُمِّـلَ وزُيِّـنَ ضريحهـا، عليـه مسـتطيل مبنـي بالأسـمنت والطـوب والحديـد والحجـر الجـيري، شـاهدان مـن الرخـام مكتـوب عليهـما، هـذا قـبر الشـهيدة منـيرة لطفـي الصبـاح المصريـة المولـودة بالإسـكندرية حـي البحـارة، ادع لهـا أيهـا المـار بقبرهـا، عنـد موتهـا كنـت صبيًّـا بالصـف الرابـع، أذكرهـا جيـدًا حينـما تـأتي لخالتـي وتـشرب معهـا القهـوة، ثـم تـأتي عـشرات مـن نسـاء الحـي بالشـاي والكعـك والبليلـة والتمـر، جلسـات سـمر تسـتمر حتـى المسـاء، المصريـات كـن يتعجـبن منهـا وقلـن لهـا مـا الـذي يعجبـك في حـي العبيـد القـذر؟ كانـت تضحـك ثـم تنقدهـن نقـدًا مريـرًا، وتقـول: لأنهـن طيبـات ومسـالمات ووديعـات، لا يعرفـن القطيعـة ولا النميمـة، أمَّـا أنـتن فمعـاذ اللـه، يـا لـك مـن جميلـة يـا منـيرة، كانـت تـشرب معهـن العسـلية والشربـوت، ولكنهـا لم تـذق المريسـة، أمَّـا عـرق البلـح فكنـوع مـن المجاملـة تـشرب دنًّـا أو دنـين، هـل أنـت في الفـردوس كـما تقـول خالتـي، الصـاغ تامـر بيطـار الأغـا رفـض النقـل، وهـو يـزور قبرهـا

آنـاء الليـل وأطـراف النهـار، وهـو ينـوح نـواح الثاكلـة كلـما وقـف بقبرهـا، صباحًـا ومسـاءً، لا أدري مـا جـدوى زيـارة المقابـر، إنهـا تثـير المواجـع، أنـا شـخصيًّا أزور قبرهـا كل شـهر، تأثـرت بمـا قالتـه خالتـي وأمِّـي، نسـاء الضباط المصريـين والأتـراك كـن بعيـدات كل البعـد عـن عـوالم نسـاء الجنـود، لهـذا كانـت منـيرة فلتـة، كانـت مصـدر السـمر والبهجـة نـكات وطرائـف مصرية. وهـي تحـكي لنـا عـن الأزهـر والأهرامـات والبحـر المتوسـط وعـادات مـصر في الـزواج والختـان وأعيـاد الفطـر والأضحـى والمولـد وعائـلات الخديـوي، وكذلـك تحـكي الكثـير المثـير مـن عـادات وتقاليـد مـصر. وكنـت كصبـي أجـد متعـة لا تدانيهـا متعـة، أجلـس عـلى كليـم مـن شـعر الغنـم، كانـت خالتـي تطردنـا، ولكـن منـيرة تطلـب منهـا أن نبقـى ونجلـس لنسـتمع ونسـتمتع بمـا تـسرده وتحكيـه منـيرة مـن حكايـات رائعـة.

حامـد محمـد حامـد، أو قلـواك أطـم، أخفقـت كل محاولاتـه في إقنـاع سوسـن بيومـي لتكـون زوجـة لـه، خاصمـه كل سـكان القشـلاق بإيعـاز مـن جـدي كـوال، لا أحـد يتواصـل معـه، عـانى عزلـة قاتلـة أنـا الوحيد الـذي كان يحـكي لي عـن مغامـرات سوسـن، وصـل بـه الحـزن والقلـق مرافـئ بعيـدة، لم يعـد يـذق طعـمًا للحيـاة المـرة، فكـر في الثـأر، نصحتـه أن يشـتكي الصـول أيمـن أسـعد وسوسـن بيومـي لقـاضي المدينـة المـصري مسـعد السـيوطي، قـال ذهـب ولم ينصفـه، وقائـد الحاميـة ظـالم عشـق سوسـن، بـل أغواهـا وغـدت خليلتـه ومحظيتـه، سُـدَّتَ كل الطـرق أمـام قلـواك، التمسـت منـه أن يطلقهـا، كان حزينًـا لضيـاع ثروتـه، وعترتـه تشـمت وتسـخر منـه، هـو قـد تطلـع إلى زوجـة بيضـاء مـن جنـس آخـر فكانـت هـذه الكارثـة، قلـت لـه تعقـل؛ انسـها، طلقهـا، سـتفقد روحـك بـأي حماقـة، آخـر كلمـة قالهـا لي إني أفضـل المـوت عـلى هـذه الحالـة، شـتمتني اسـتفزتني أهانتنـي، لتدفعـنَّ الثمـن، لتدفنـنَّ جـوار منـيرة الجميلـة، قبرهـا في كسـلا، جـاءت إلى قبرهـا، صدقنـي يـا قرنـق، يـوم الخميـس سـتنام سوسـن في قبرهـا، وسـترى، حاولـت

إقناعها بشتى السبل ولكن هيهات، قالت لي أنت كجدك كافور الإخشيدي ما أروع ما قاله شاعرنا المبدع المتنبي في سلالتكم:

لا تشترِ العبد إلا والعصا معه إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد

لهذا سأرد الصاع صاعين، أيمن أنا له بالمرصاد وقائد الحامية الصاغ تامر سيلقى مصرعه، صممت على الانتقام، لا توجد وسيلة غير ذلك، لا توجد قوة في وجه الأرض تحول دون أخذ حقي، الرب نفسه إلهنا الوثني لن يستطيع أن ينقذهم من مصيرهم. رب السود بالجنوب معي ويشجعني على قتل البيض. يا قرنق، يا خميس بارك قتلي (للحلب).

أخفقت وباءت كل محاولاتي لإثناء قلواك أطوم عن ارتكاب جريمة، قال لي صديقي بيتر، قلواك لن يستطيع أن يقتل ذبابة، فهو جبان هياب متردد، يهدد فقط. يقول المثل الإنجليزي الكلاب التي تعوي لا تعض غالبًا، لقد مرَّ عام على مأساته مع سوسن بيومي، استمر التضرع والتوسل والانكسار والإهانة. نحن معشر الزنوج معقدون، لماذا البيضاء؟ هو يستحق أكثر من هذا، المبالغ التي صرفها على سوسن كفيلة بأن توجه عشر بنات من قبيلة الدينكا، أطول وأجمل من سوسن، لماذا نعتقد بأن البيضاء أجمل، السمراء بل السوداء هي الأجمل، اطمئن! قلواك لن يرتكب أي جريمة، الذي ينوي أن يقتل لا يهدد ولا يتوعد، قلت له: لقد نفد صبره، قد ينفِّذ وعيده، قال هراء هذيان كذب، سترى لن يقتل ذبابة،

7

تلاميـذ المدرسـة كالغربـان في السـواد، ينتـثرون وينتـشرون يوسوسـون ويثرثـرون، كلهـم مـن أولادنـا عـدا أولاد أعيـان القبائـل وشـيوخها مـن العـرب، وهـم قلـة قليلـة، بعـد نهايـة اليـوم الـدراسي، وبعـد تناولهـم وجبـة خفيفـة يتسـلقون جبـال التـاكا وتوتيـل ويسـبحون في نهـر القـاش. يعـودون بُعيـد أن تغـرب الشـمس خلـف الجبـال، ومـن ثـم يتبعـثر شـعاعها العسـجدي عـلى الكـون المتمـدد المستسـلم. قصـة قلـواك وسوسـن، غـدت سـلوى المجالـس، لقبوهـا بالعاهـرة، شـعر قلـواك بالـذل والاسـتهزاء مـن أبنـاء جلدتـه ومـن كل الحاميـة، أصرَّ عـلى الانتقـام، جـاءني وغـروب الشـمس كئيبًـا، اسـتقبلته وحاولـت أن أنـأى عـن جوهـر المعضلـة المؤرِّقـة والمهلكـة، قـال بلوعـة:

- أنـت يـا قرنـق، أصغـر جنـدي في حيِّنـا ومـن أولادنـا، ورغـم كونـك صغـيرًا إلَّا أنـك تتمتـع بعقـل كبـير، كل الحـي خاصمنـي الكبـار والصغـار، أنـت الوحيـد الـذي لم تلتـزم بتوجهـات جـدك كـوال، لـك الشـكر، سـترى غـدًا مـا أفعلـه بالمصريـين.
- المصريون؟ كل الحامية؟
- أقصـد تامـر الصاغ وأيمن المسـاعد والعاهرة العالمية سوسـن بيومي.
- تعقل يا أخي، لا تضيع مستقبلك مع فتاة تافهة ساقطة.
- أصررت على الانتقام.
- سـتنتقم مـن نفسـك، ألا تـدري ذلـك؟ سـتكون الخـاسر الأكـبر أليـس كذلـك؟

- بلى، سأقول كما قال شمسون الجبار عليَّ وعلى أعدائي.
- هذا من الحماقة والتهور، سأذهب إليها لأقنعها.
- ستنظر إليك مجرد عبد آبق، أتدري ذلك؟
- سأحاول وكما يقولون الأرضة جرَّبت الحجر.
- حبي لك يجعلني أحترمك وأنتظرك، سأعطيك فرصة، حتى مساء الغد، وإن غدًا لناظره قريب.
- الشكر لك، سأحاول.
- إياك أن تفشي سري، لا تذكر كلمة انتقام!
- أعاهدك بحفظ سرك.

أنصرف قلواك كئيبًا والحزن يعتصره. آليت على نفسي أن أقابلها، الأصيل يرسل أشعته العسجدية لتلامس لُجين الماء وهامات جبال التاكا وتوتيل تبسق عذبة شامخة. وقبة السيِّد الحسن الميرغني، تنتصب بيضاء مزهوة مخروطية هرمية، سألت عن سوسن قالوا إنها على ضفاف نهر القاش ترنو وتستمتع بالطبيعة خمائل سواقي دوح باسقة زهور وطيور، هرولت على عجل، آه تلك هي الغانية البيضاء. بملابس شفافة تدخن تبغًا فاخرًا وتأكل حلوى، سلمت عليها، لم ترد التحية، عرَّفتها نفسي كابن عم لزوجها المزعوم، هي متكبرة متعجرفة، في البداية رفضت أن تصافحني وبعد جهد أمسكت يدي، يدها ناعمة غضة. رائعة الحسن والجمال متعطرة لها عبق فواح كشذى زهرة، تفرست محيَّاها، وجسدها الممشوق اليانع المثالي، تغازله الريح في فجاجة، سحرتني خلبتني ولكنني انصرفت إلى مهمتي الأساسية. لم تعبأ لوجودي، كانت تمعن النظر في شاب زبيدي وسيم، وهي تنساب نحوه

رويـدًا رويـدًا، اقتفيـت أدراجهـا، ضايقتهـا، مـا زالـت تَعْمَـهُ في غيهـا، تخطـر نحـوه مأخـوذة ببهائـه ونقائـه وجمالـه وسـحر لونـه، ولكنـه ينـأى عنهـا، هـو كيوسـف وهـي كامـرأة العزيـز، لـولا الحيـاء وأعـين النـاس لراودتـه وطاردتـه، مـدت يدهـا مصافحـة بشـبق، وطفقـت تسـأله عـن مسـكنه وهـي تتجاهلنـي، قالـت لي:

- أرجوك أتركني وحالي، لا أحب أن أراك ولا قلواك.

تركتهـا أعطيتهـا فرصـة لتشـبع نـزوة الغـزل، لتتحـدث مـع الشـاب الزبيـدي الوسـيم، اسـمه شـادي محمـد رشـيد، هكـذا أجـاب عـن أسـئلتها يسـكن حـي السـواقي، والـده صاحـب سـاقية، أمُّـه مـن شـمال السـودان مـروي، هـل تريـد سوسـن أن تسـتدرجه إلى فخهـا؟ لم تسـتحِ قالـت لـه بإغـراء وإغـواء:

- هيـا للسـواقي لنرى ماذا في تلك البسـاتين، أو نذهـب إلى تلك الغابة مـن أجـل النزهـة، أنـا ضيفـة فسِّـحني متِّعنـي بجـمال كسـلا مـا أجملهـا!

اعتـذر بحجـة أن والـده قـد أرسـله للبحـث عـن أخيـه الصغـير، وحينـما انـصرف غضبـت أيمـا غضـب، أخـيرًا نظـرت إليَّ في ازدراء وكبريـاء وسـجعت:

- أنـت حاقـد، أخفـتَ الغـلام بشـكلك القبيـح، هـرب منـك. أتـدري ذلـك؟ خـاف مـن أسـنانك البـارزة، أنـت ذئـب!

ضحكـت مـن شـهوانيتها وتهافتهـا عـلى الملـذات، وأخـيرا اقتربـت منهـا بـودٍّ وبشاشـة، انـشرح وجههـا تهلـل، أومضـت بأسـنان كاللؤلـؤ، أعطيتهـا التحيـة العسـكرية، انتفخـت وانتفشـت، صفـى مزاجهـا، هـدأت روحهـا، أفـل نجمهـا الـذي أفلـتَ منهـا بأعجوبـة، هـرب غـلام الرشـايدة الوسـيم، أردفـت تـارة أخـرى:

● أخفتـه طردتـه، خـشي أن تفترسـه أن تنهشـه يـا وحـش الأدغـال الاسـتوائية.

● يـا سوسـن أنـت غريبـة، تعقـلي! لمـاذا أتيـتِ مـن مـصر؟ قـرأتِ قسـيمة الـزواج وهـي صحيحـة مئـة في المئـة، أليـس كذلـك؟

● بـلى، ولكـن أيمـن خدعنـي، لم أكـن لأتوقـع أن أجـد كائنًـا بتلـك البشـاعة والدمامـة، مـن أي كوكـب أتى أمثالكـم؟!

● اتقـي الـرب، نحـن بـشر مثلكـم، لـون البـشرة والشـعر والملامـح كلهـا مـن الخالـق، أليـس كذلـك؟

● أنـا بوذيـة عـلى ملـة أسـلافي، إلهنـا جوتامـا بـوذا، أمِّـي المسـحية تركـت ديانتهـا قبـل عـشر سـنوات.

● إذا كنـت بوذيـة بالـضرورة أن تكـوني نباتيـة، أنـت تأكلـين اللحـم كـما النمـرة، تنهشـين نهشًـا، وتشربـين الخمـر! جوتما بـوذا حرمهـما ومنعهما.

● أنـا كافـرة وثنيـة ليـس لي ديـن كأهلكـم في الجنـوب، لا تجادلنـي في دينـي، الديـن لا يمثـل أي شيء بالنسـبة إليَّ.

● فلنـترك الديـن جانبًـا؛ لندخـل في الأمـر الجلـل. أنـت زوجـة لحامـد محمـد حامد.

● لـن أسـلِّم جسـدي لـذاك القـرد والخنزيـر البشـع ليلغه ليدنسـني، أنـا امـرأة حـرة ونبيلـة وجميلـة ومـن سـلالة نقيـة عزيـزة، نحـن شـعب اللـه المختـار، لأنـه حبانـا بـين سـائر البـشر بالجـمال، الهنـود أجمـل البـشر!

● أتعرفين الخالق؟

● لا أعرفـه، ليـس بالـضرورة أن أعرفـه؛ تلـك زلـة لسـان، أنـا كافـرة ملحـدة وثنيـة مجوسـيَّة جاناتيَّـة، دعنـي وحـالي، اليـوم السـهرة في بيـت

قائـد الحاميـة، الصـاغ تامـر، كـم مـن أمثالـك مـن المجنديـن يأتـون إلى بيتـه لغسـل ملابـسي، سـآمره بـأن يحـضرك غـدًا لغسـل ملابـسي الداخليـة، سـترى مـا أفعلـه بـك غـدًا، أتتجـرأ بمحاولـة إقناعـي لأكـون زوجـة لخنزيـر مثلـك! احـذر، إيـاك أن تحـاورني، أنـت دون مقامـي وكل القشـلاق مـن السـود، سـلالة كافـور الإخشـيدي، سـألعنك إذا لم تتحـرك، اغـرب قبـل أن أراك، اللعنـة عـلى دينـك!

- يـا سوسـن تعقـلي، أتنتحريـن هنـا؟ أتدريـن مـا هـذا؟ هنـاك في الجـزء الغـربي للمقـبرة، أوَّل قـبر، مبنـي منقـوش مطـرز مـوشى مطـلي مزيـن عليـه شـاهدان مـن المرمـر. يختلـف عـن كل تلـك القبـور الترابيـة، ألا تكرهـين أن تنامـي هنـا النومـة الأخـيرة؟ وسـط صلصـال الـشرق الحـار الحـارق ببراغيثـه النهمـة لالتهـام الأجسـاد! خمنـي لمـن القـبر؟

- هـو قـبر المرحومـة منـيرة؛ زرتـه عـدة مـرات مـع سـعادة الصـاغ تامـر، إنهـا لمأسـاة أن تمـوت منـيرة الجميلـة في أرض السـواد. ليتهـا لم تمـت، كـم حزنـت عليهـا، اللعنـة عـلى ديـن نهـر القـاش الغـادر الـذي ابتلعهـا بغتـة وخلسـة.

- إذًا فلمـوت هـو ناقـوس الخطـر للبـشر! في كل زمـان ومـكان، كي يرعـووا، عـلى الفـرد أن يسـتقيم، ليتجنـب المصـير الأسـود والمظلـم.

- وهـل أخطـأت منـيرة؟ هـراء هذيـان، إنـه الغـدر اللعـين اللئيـم، سـنموت حتـف أنوفنـا شـئنا أم أبينـا.

- وقـد نمـوت رغـم أنوفنـا، ندفـع المـوت نحونـا دفعًـا وقـسرًا، مـن منَّـا لا يحـب الحيـاة؟

- الحيـاة تظـل تافهـة حقـيرة لا تسـوى ذرات الهبـاء إذا مـا سـاوم المـرء فيهـا، وبـاع مواقفـه وقناعاتـه مقابـل أشـياء وقحـة قبيحـة زائلـة ذابلة.

- تظـل الحيـاة راقيـة رائقـة إذ فكرنـا بموضوعيـة، بعيـدًا عـن سفاسـف العواطـف والقشـور والشـكليات، مظاهـر الحيـاة خداعـة ومتوهمـة، فهـي ذات بريـق ولكـن بريقهـا كالـشرر كاللهـب، تغـري وتغـوي وحينـما نسـتشرف بـؤرة خداعهـا تحرقنـا، ونكتشـف بأننـا خُدعنـا، لمـاذا ننكـص ونكـذب ولا نعـترف بالمسـلمات والحقائـق التـي قبلناهـا ذات يـوم، ثـم قلبناهـا رأسًـا عـلى عقـب، الـذي تخدعـه وتغـرر بـه الحيـاة فهـو الهالـك والخـاسر الأكـبر وسـيعض بنـان النـدم حيـث لا ينفـع النـدم.

- ينـدم الـذي يخـون قناعاتـه ومسـلماته، ومـن ثـم يتخـاذل خوفًـا مـن نتائـج مفترضـة وخيمـة وعويصـة، المغامـر الشـجاع هـو الـذي لا يخـشى النتائـج، أنـا هكـذا.

- عمومًا، فهمت الآن!

- وأنا كذلك فهمت ما ترمي إليه، وكما يقول المثل.

- مثلنا الدارج يقول: (الحشاش يملأ شبكته)

- فليكن ذلك، ما يوحي ويشير إليه المثل السطحي والساذج.

- قـال الشـاعر: أمرتهـم أمـري بمنعـرج اللـوى فلـم يسـتبينوا الرشـد إلَّا ضحـى الغـد.

- فليكـن ذلـك ولكـن بالحـق. مـا الـذي يجمعـك بـالأدب العـربي يـا سـلالة كافـور الإخشـيدي!

- نحـن مسـتعربون، وأنـت تدريـن ذلـك! ألا تخشـين جـيرة منـيرة في صلصـال كسـلا الحـار! هنـاك يثـوي رفاتهـا، في هـذه الربـوة وسـط الغمـوض والصمـت المطبـق الأزلي في حيـاة الـبرزخ؟

- جدتي لأمي حتشبسوت، الملكة العظيمة، أنا من سلالة الملوك.

- ليس من الكياسة أن يتحدث المرء عن أسلافه، كان آبائي، فليقل هأنذا.

- ضيعت وقتي، أتيت للنزهة، لم أسبح ولم أستمتع بالغروب، هذه سفسطة، جدل بيزنطي، تحرك، لا أحب أن أراك، لا تذكر لي هذا الاسم البشع، قلواك كلواك ربواك نشباك دكواك كواك جكوك حكواك، أهذه أسماء بشر؟ يا لها من أسماء بشعة لكائنات مشوهة! ما أنزل الله بها من سلطان!

- سامحك الله!

- لا أرجو سماحًا من الرب إذا كان من أجلك!

8

فجأة ظهر شاب وسيم أوروبي يحمل حقيبة كبيرة على ظهره، شاحب، سيماء الإرهاق ووعثاء السفر ترتسم على محيَّاه المكفهر، إنه سائح، أشعث أغبر، صافحته بشوق وشغف، تركتني واحتوت واحتضنت ذاك الشاب الأبيض الوسيم، لثمات على الخد حارة تنبعث من جسد مفعم بالشهوة، لا أدري ماذا تقول، دفعني حب الفضول إلى الاقتراب. أعجب بها السائح الأوروبي أيما إعجاب، راعٍ وسيم أبيض، يرعى إبله على تخوم الغاب والنهر، ثم دفع إبله للنهر لتشرب، تركت الخواجة وغازلت الراعي، طلبت منه أن تجرِّب ركوب الجمل، أردفها خلفه، امتطت البعير، صدرها المكتنز يهتز مع إيقاع سير البعير وهو يضغط على ظهره، تلعثم الشاب ارتبك اضطرب، قبضته بكلتا ذراعيها، التفت حوله التفاف الحية، كما لو أنها خائفة من السقوط، مثَّلت، فخذاها يتوسطان سنام الجمل، خبَّ خببًا، ترك الراعي إبله وانطلق بالغانية إلى وسط الدغل، أناخا البعير؛ تواريا، تحت ظل دوحة ظليلة سميكة قبعا، ودجنة الغسق، بعد ساعة تركت الغلام وقفلت عائدة إلى النهر، ما زال السائح ينتظرها بشوق وشغف، سبحت كسمكة، اغتسلت وأزالت أثر الغبار، شعرها الذهبي يصل إلى منتصفها، ما زلت أراقبها من كثب ولو أن سرعة البعير لم تمكنني من متابعة اختبائها تحت الدوحة بعد أن ترجلا من البعير ربما تعانقا أو عبثا! لا مراء بأن الشاب الوسيم الأوروبي قد تعلق قلبه بها، هي تتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، شعرت بغيظ مكبوت ومكتوم، هي ما زالت زوجة ابن عمي قلواك أطوم كير كريوم، سوسن بيومي تادرس فتاة شهوانية، ستقتلها النزوة، في جوفها شيطان الشبق، لن أعارض فكرة

الانتقام، ثقافة البدو شرعت تنتقل إلينا، نحن لا نقتل في العرض، نحن متسامحون، ولكن بعد هذا لا بدَّ أن نفكر في الانتقام. ما زلت أقتفي أدراجها، إنها تقتاده إلى الميس لمنازل الضباط. لا بدَّ أن أتابعها وخاصة أن الليل قد عسعس وطمس معالم الكون الغامض، المطلسم بدياجير الريبة، كانت مهرولة متعجلة متلهفة متهافتة على النزوات، ماذا تريد من هذا الشاب السائح الغريب، الآن أمام منزل الصاغ تامر، ولجت متلهفة والخواجة يقتفي أدراجها، آه تذكرت، طلبت من الخادم آدم برش إعداد الحمام الساخن بعطر الكولونيا، ساعدت الخواجة الفرد مايكل في خلع ملابسه، اغتسل، تسوك، انتقت من دولاب تامر أبهى الحلل لضيفها الوسيم، ثم استحمت، تعطرت، تمكيجت، غدت كزهرة البرتقال، كنت أختبئ مع الطباخ شمعون ليخ، وهو شامي من أصل يهودي، طلب مني مغادرة المطبخ، وعدم الاختباء هنا، قال: الصاغ قال لي في ذهابي خذ الأوامر من سوسن بيومي، يا له من كاذب قواد فاجر فاسق، قال لي: تارة أخرى، ليشعرني برتبتي الوضيعة:

- يا جندي خميس جمعة سبت، لماذا دخلت خلسة، لماذا تختبئ هنا؟ أأخذت الإذن من سوسن بيومي؟ معها ضيف، لا أظنها تقبل بوجود شخص غير ضيفها.
- أخي شمعون، أنا في المخابرات.
- أخرج الآن وإلَّا سأكلِّم سيدتي سوسن بيومي، فهي الآن هي الصاغ، قائد الحامية.
- ألا تدري بأني جندي؟
- أدري، لقد جندوك قبل شهور.
- انتهى التدريب، تخرَّجت، أنا جندي منذ شهرين.

- هـذا شـأنك، مـا يهمنـي ألا يوجـد شـخص في هـذا الوقـت بالـذات، تحرَّك.
- أتأمرني؟
- فسر ما يحلو لك!

نظـرت إليـه في غيـظ، إنـه أبيـض اللـون عريـض الجبهـة، مسترسـل الشـعر، ضخـم الجثـة، صغـير العينـين، قصـير العنـق، عينـاه كعينـي قـط أرقـط، معاقـر للخمـر، سـكران، رائحـة الشـواء تنـداح، بـط ودجـاج وبيـض بالسـمن وحلـوى وفواكـه، كلهـا سـتقدم للضيـف الجائـع، آدم بـرش يعـد المنضـدة عـلى الهـواء الطلـق، أدنـان العـرق تنتـثر، صحـاف العشـاء تعـد، ومـا زال شـمعون يرمقنـي شـذرًا، همـس في أذن آدم بـرش الـذي عبـس في وجهـي. هـما غاضبـان منزعجـان مـن وجـودي. وجـودي غـير مرغـوب فيـه، يـا لهـما مـن قوادينـ تافهـين! لـن أخـرج إلَّا بالقتـال، مـا زالـت سوسـن والفـرد يلتهـمان الطعـام بنهـم ويشربـان الخمـر بتهافـت، ارتفعـت عقيرتهما بالغنـاء الشرقـي والأوروبي، قهقهـات وابتسـامات، النسـيم عليـل، الليـل سـاج، هـل يقبـل تامـر هـذا العبـث؟ أنـين السـواقي يحـرك أشـجاني، هـذه ليلـة حمـراء. يـا لهـا مـن شـهوانية اختطفـت الراعـي، وهـا هـي تختطـف الأوربي الإنجليـزي، السـائح الوسـيم، الجائـع للطعـام وللجنـس، فجـأة دمـدم آدم بـرش، تجلـت دمامتـه ووقاحتـه، شـفاهه الغليظـة انفرجـت أكـثر مـما ينبغـي، يـا لـه مـن كلـب قـذر! نهـق بصوتـه المنكـر:

- اخـرج وإلَّا أخـبرت سـيدتي سوسـن بيومـي! الآن بغـير مماطلـة، نريـد أن نتعـشى، لا تزعـج الضيفـين.
- لـن أخـرج، هـذه دعـارة داخـل بيـت قائـد الحاميـة، القائـد كلفنـي بحراسـة بيتـه.

- ما أكذبك! أنت متطفل وفضولي، تحاول أن تسترق السمع، تتطفل على حياة سوسن، لن تتزوج قلواك أطوم. المدعو حامد محمد حامد. أتتزوج الحمامة الغراب؟

هكذا قال لي العم شمعون ليخ. اغتظت أيما اغتياظ، ما زال شمعون يعد ويسرف في إعداد الطعام، كما لو أنه لعشرة أشخاص، له ثديان مرتخيان، بطنه تنتفخ، تتهدل كبطن المرأة الحبلى في شهرها التاسع، يأكل بنهم، يلعق أصابعه متذوقًا الطعام، انتهزوا غياب الصاغ فعبثوا بطعامه كخدم منزل، يساعده آدم برش ذاك السوداني الأسود هو زنجي مثلنا لكنه ليس من الجنوب، ربما كان قد استرقَّ أسلافَه العربُ، ثم حرروه، همَّا بالتهام الطعام الساخن الشهي اللذيذ، انتفش شمعون ودمدم:

- تحرَّك الآن لا تحرجنا مع السيدة سوسن.
- سوسن سيدتك أنت، هي مجرد عاهرة.
- هي بيضاء وجميلة، وأنت. . .
- أنا أسود وأعتز بذلك.

فجأة اقترب منه آدم برش وتنمر وكشَّر عن أنيابه، زمجر:

- اخرج من المطبخ قبل أُخرِجك بالقوة.
- جرِّب لن تستطيع، حذارٍ فإن النمر لا يلاعب.
- دعنا نتعشى أولًا!
- لن نتعشى يا عم شمعون إلَّا بعد طرد هذا المتطفل.

أمسك شمعون قضيب المدق ورفعه إلى أعلى وهددني بالشج والدم

والكسر، وكذلك أمسك برش الكمشة، شعرت بالغضب أثاراني. لا بدَّ من تصفية حسابي معهما، سددت لكمة قوية لفم شمعون سقط طقمه الصناعي؛ بصق؛ سال الدم؛ سعل؛ جأر؛ زأر. ولكمة أخرى، ضربني آدم برش بالمغرف على رأسي، موهت، صرفتها بذكاء، وانهلت عليهما ضربًا عنيفًا؛ صرخا؛ ركضا؛ هربا، صرخ شمعون وهو يجري داخل السور بسرعة مذهلة:

- أنت عبد العبيد يا سلالة الرقيق.

ما زلت أجري خلفه، وبخفة ورشاقة وثب وتخطى الثور رغم ترهل جسده، آدم برش يقتحم خلوة العاشقين مستجيرًا مرعوبًا، خرجت سوسن سكرانة بملابس داخلية. عندئذ هرولت ويممت شطر داري والخواجة اختبأ تحت السرير رعبًا من العدو الافتراضي الراكض خلف شمعون وبرش.

9

ذهبت إلى العمل مبكرًا، ها هم الضبط والجنود يأخذون التمام في طوابير جميلة، وهم كأسراب طيور تنتثر في رمال جوار البحر، نائب القائد التركي خورشيد الأغا، لم يتطرق لأي مشكلة، ربما آسر شمعون وآدم وسوسن أن يظل أمر صراعي معهما في طي الكتمان، إنه فضيحة فظيعة، إذا سُئلت سأتهم عشيق سوسن المستر الفرد جراهام – سأتهمه بالتجسس، وسأكرر اتهامي إذا تم استجوابي، مرَّت الساعات وئيدة كنت أتوقع الفخ ولكن بحمد الرب تعقّل الخونة ولم يفشوا السر، إذا باحوا به سيكون هم ضحايا تآمرهم، عدت لداري غريرًا. اليوم الاحتفال في دار جدي كوال دينق كير، عشرات الغلمان وعشرات الفتيات، الأمر ليس أمر ختان ولكن أمر ثقافة، عادات تقاليد، لن نتخلى عنها كما الختان بالنسبة إلى لعرب. أولم جدي. ذبح كبشين أقرنين أملحين، هو شيخ قبيلة الدينكا في كسلا، هو الذي سيجري هذه الطقوس باسم إلهنا الوثني، إله الغابات الكريم - دينقديت، أمسك جدي السكين الحادة، أربعة شباب يثبتون الصبي لكي يرسم جدي على جباههم خطوطًا عرضيةً فوق العينين والحاجبين تغطي كل الجبهة بل تمتد حتى تلامس شعر الرأس على الجانبين. خمسة جنود أقوياء يمددون الصبي على ظهره، يثبتونه بقوة، جدي كوال يمسك المدية ويضع يده الكبيرة العريضة ذات الأصابع الطويلة كأطراف الإخطبوط فوق رأس الصبي وهي تغطي معظم وجهه، ثم يغرس السكين بغلظة على بداية الجبهة من ناحية الشمال ثم يسحبها ببطء شديد نحو الضفة الثانية للوجه كما المحراث، ليتدفق ويسيل الدم بغزارة والصبي يتمدد وينكمش، يصيح ويستغيث خمس خطوط عرضية، الدم ينبجس وينفذ

للنطـع، ثـم يرُحـض بمـاء العطـرون، وتتكـرر العمليـة إلى أن يفـرغ مـن العـشرة غلـمان، ثـم نـزع الثنايـا السـفلى. بـكاء ونحيـب ونشـيج، والطبـل يقـرع والمغنيـات يغنـين ويرقصـن مـع طقـوس أفريقيـة حـارة راقصـة، ثـم الوشـم بالنـار عـلى المناكـب والأكتـاف والمعاصـم للصبيـان، فـرار وركـض وقبـض، محـور مشـتعل في الجمـر، رائحـة الشـواء تنـداح تتمـدد تتمطـى. جـزع وهلـع ورعـب، ثـلاث سـاعات مـن العـذاب لهـؤلاء الصبيـة، وعنـد النسـاء الوشـم والوخـز للشـفاه بالشـوك لـكي تكـون لعسـاء تقـوم بـه العجـوز نياكونـق لـواك، وهـي ماهـرة في الوخـز والـكي، لديهـا إبـر وأشـواك ومحـاور, البنـات أشـجع مـن الأولاد رغـم أن عملياتهـن أقـل بشـاعة مـن عمليـات الأولاد زغاريـد وطبـول ودفـوف ورقـص احتفـاءً بهـذه الطقـوس الخاصـة (بالشـلوخ والوشـم) النسـاء يرقصـن ويتغنـين وكذلـك الرجـال رقصـوا رقصًـا جميـلًا، جـاء البـدو ومنهـم مـن يتعجـب ومنهـم مـن يسـخر ولكـن جـدي كـوال دينـق كـير، رفـض طردهـم، تحـرَّش بهـم بعـض شـبابنا، ولكـن شـيخ الدينـكا حكيمنـا، زجـر الشـباب. مريسـة وعسـلية بالبراميـل وهـي بـاردة، لأن الفصـل شـتاء. سـكر الأطفـال والصبيـان، النسـاء والرجـال، جـاءت سوسـن بيومـي ومعهـا عشـيقها السـائح المسـتر الفـرد جراهـام، انتهـزا فرصـة غيـاب قائـد الحاميـة في مدينـة سـواكن- فسـكنوا داره- فـكان بمثابـة فنـدق لقضـاء شـهر العسـل، سوسـن تتوهـج مـع عسـجد الغـروب، الخواجـة يلمـع يتـورد، رفضـا شرب المريسـة كان قلـواك أطـوم كريـوم يتلمـظ يتربـص يـدور ويمـور كنمـر جائـع، وجهـه أزداد بشـاعة وسـوادًا، قلبـه منقبـض، خاطـره منكـسر، جوفـه يغـلي غـلي المرجـل، أيـن القتـل الـذي توعـد بـه الخائنـة.؟ مـرّ أسـبوع للتهديـد والوعيـد ولكنـه لم يقتـل ذبابـة، خـاف أخفـق، لـن يسـتطيع أن يقتـل مـا أكذبـه! كانـت صـدور الصبايـا شـبه عاريـة، كواعـب تهتـز نهودهـن اليانعـة، تعجـب البـدو الذيـن يفرضـون الحجـاب عـلى بناتهـم، رقـص مختلـط وغنـاء جماعـي، كدنـا أن

نثقب الأرض بأرجلنا الغليظة، هذا الرقص الخليع لم يألفه عرب كسلا، تهافتوا تمتعوا اقتربوا، كادوا أن يلجوا الحلقة الفنية لولا الحياء.

ما زلت أرنو إلى قلواك بعجب، وهو مكفهر عابس كئيب، أرمقه بين الفينة والفينة، والوسواس الخناس يراوح مكانه، لاحظ متابعتي له وهواجسي، دخلت سوسن الحلقة وهي مزهوة تستعرض إهابها كالطاووس، تحاول أن ترقص مقلدة الفتيات، كانت سكرانة، لم تستطع أن تجاري الرشيقات الخفيفات الرقيقات، جسدها مترهل كالخنزيرة. دفعها نواح الصبية فهرولت إلى الراكوبة حيث الصبية الجرحى والدم ما زال ينساب و يسح من جباههم الداكنة، صرخت:

- يا للبشاعة! ما هذا التعذيب؟ أتريدني يا قلواك أطوم أن أدخل مستنقع الدم مثلكم؟ كلا لن أنتمي إلى العصور الحجرية الزنجية الاستوائية، أقسم بربي جوتاما بوذا! لن أكون فوق هذا وذاك، أنا مصرية هندية، لا ولم ولن يمتطيني حمار وحشي جاء من الأدغال، أنا شرقية فرعونية بوذية، سلالات نقية قوقازية.

ما زال الفرد يتثنى يتلوى من فرط سكره. جرى حينما جرت نحوه الطفلة المتوحدة المشوهة وهي بعين واحد وبأذن واحدة وبثلاث أسنان، اسمها أضينق دينق، استمرَّت المطاردة، استمتعت وهي تحدث أصواتًا كصهيل الحصين، لها ثلاثة أياد وقرن على جبهتها كوحيد القرن، صرخ الفرد، ركض بقوة نحو الشارع، هاجمت سوسن، سوسن لم تهرب صمدت، أضينق صفعتها نهشتها ودفعتها، وصهلت فيها سرعان ما جرت سوسن، ولت الأدبار والناس يضحكون ويقهقهون. ثم انطلقت نحو شباب العرب ففروا وانتثروا وهم يرددون الشيطان، نظفت الساحة. لم يتبق إلَّا الجنوبيون وعائلاتهم، كانت شرسة قوية، قهقهت وصهلت بفم فيه ثلاث أسنان، وفكَّين عريضين طويلين، رأسها

أصلع كالبيضة. يسيل لعابها من شفتها السفلى المرتخية المتضخمة. لسانها يتهدَّل أحمر كلسان الحيَّة، تلهث، تتدلى خيوط الريالة كخيوط العنكبوت، تحتسي كمية كبيرة من المريسة تدخن بنهم تلعق التمباك، ورغم قبحها فهي متفانية في خدمة الجماعة. فهي كخرساء كبكماء متهافتة للشر، المريسة في جرار، كأس طاف من القرع الأبيض على كل دلنق، والزبد راب، الآن فرغت أضينق دينق من مهمتها، شتت بعثرت الفضوليين، نظفت الحلقة من غير سلالتنا، ها هي تمرر الأدنان مترعة بالمريسة للنساء، وتوزع التمباك للنساء. وتشعل مباخر البخور، تشعلها وسط الحلقة، عشرة مواقد متقدة على البخور من خشب الصندل المعطون في العطر، جو عابق برائحة الخمر وبخور الصندل يتلوى يسمو ينداح في سماء العريش، قُرع الطبل بأنين حزين، ورقص مموسق، أضيق توزِّع الأدنان للسكارى من الرجال وفي مقدمتهم جدي كوال دينق كير الملقب بالزنجي الأبيض. لم يرقه طرد المتطفلين ولكن خلايا الشر حينما تتحرك في جوف أضيق دينق، فإنها كالأسد الهصور، جرحت بمخالبها نهشت زأرت، فرقت صفوف المتفرجين، ثم عادت لتخدم في إخلاص النساء والرجال؛ بمناسبة الختان كما يحلو للجنوبيين أن يسموا المناسبة، أغدقنا الطعام للجرحى والموشومين، ملابس تركية ومصرية زاهية للجنسين، حلوى وعسلية ولحم ودخان فاخر من الشيشة التركية التي كانت تحركها أضيق من ثغر إلى ثغر، والدخان يتكاثف يتآلف وينداح على سماء العريش، قلواك أطوم هو الوحيد الحزين، رفض أن يشرب وأن يأكل.

الأولاد والبنات في أبهى هندام - زخرفة وزركشة، سكسك وخرز وريش نعام وأذيال حيوانات وقرونها. كان نزع الثنايا الأربع من الفك الأسفل قاسيًا وأليمًا، ها هو جدي بمقلاعه العتيق ينزع الأسنان نزعًا ويهشمها تهشيمًا، والأطفال يصرخون ويستغيثون ويجزعون ويولولون

كانت مقاومة عنيفة من الصبيان، ولكن الشبان الأربعة الأقوياء يثبتون الضحية تثبيتًا قويًا. الدم يسيل من الأفواه من مواقع الأسنان المنزوعة، عرق ودموع وصراخ وزغاريد ودخان، فرغ جدي من الأسنان الآن نحو الجباه لفصدها لنحرها، لا بد من رسم خطوط طوليه عميقة، لماذا هذا التشويه يا أسلافي؟ عندما كان جدي يمرر المدية عابرًا الجباه المسمرة والسكين تغوص وترتوي من دم البنات الشجاعات، كانت الصبيات أشجع من الصبيان، جدي كما لو أنه يريد ذبحهن. يا لهن من شجاعات؟ لماذا نشوِّه وجوه أولادنا وبناتنا؟ يا لها من عادات صعبة! في الختام طرقت المغنية الرقصة الخطيرة، كل الناس وسط الحلقة يرقصون وقد تحركوا مع إيقاع الطبل والرجال يحملون الحراب والرماح والأقواس والدرق. قفز ووثب إلى أعلى، أصوات كالرعد غناء كورالي عذب بأصوات شجية، جميلة وقبيحة تتقاطع تتمازج وتتماوج، أضيق دينق الطفلة العفريتة كما يحلو للجيران بتسميتها في مقدمة الركب تصهل تنهق، وأحيانًا تحدث صوتًا كصفير البلبل، حتى الجرحى قاموا ورقصوا بعد أن جفت دماؤهم، كما لو أننا في الجنوب، لا أحد من البجا أو العرب إلا الجيران، محمد عثمان، وصالح ممتاز بجاويان محترمان، يشاركاننا الفرح، هما الجنديان الوحيدان اللذان ينتميان إلى الشمال المسلم، دعاهما جدي كوال دينق كير، ها هو يتقدم الركب يقفز مترًا ثم يهبط كنسرٍ مكسور الجناح، يرتدي جلد نمرين وطاقية من جلد ذئب محلاة بريش النعام، يتنكب رمحًا طويلًا، هذه رقصة الحرب المقدَّسة، وطبول الحرب تُقرَع. البنات خلفنا يُشيدن بشجاعته وفحولته، هو أمامهن كغضنفر يطعن وينهش ويهش يزجر عدوًّا افتراضيًّا كما لو أنه أمامه.

إيقاع سريع بقرع سريع، وحركة سريعة، كل الأجساد تهتز بقوة وفتوة، شيب وشباب وبعد نصف ساعة، ركضنا داخل الحلبة كما

تركـض البقـر، الرقصـة الأخـيرة - صراع الجواميـس! زعـق جـدي ووثـب إلى أعـلى جبتـه انتفخـت كـما المظلـة ثـم هبـط كنـسر، شرعَ ذراعيـه كنهايـة للحفـل السـنوي لأجـراء طقـوس قبيلـة الدينـكا، نـثر جـدي الفـول والتمـر والنبـق، صفّـق الراقصـون والراقصـات إيذانًـا بختـام الحفـل البهـي السـنوي الموسـمي، لقبيلـة الدينـكا بمدينـة كسـلا.

10

جـدي تمـدد عـلى سريريـن مـن شـدة طولـه، سريـر واحـد خشـبي لا يسـعه، عينـه فاتحـة والأخـرى مغمضـة كـما الغـول، كان سـكرانًا مرهقًـا بعد أسـبوع مـن العمـل المضنـي، فهـو الـذي ينظـم ويرتـب الحفـل السـنوي، وهـو الخاتـن والحجـام، ختـان الجبهـة والأسـنان وليـس الأعضـاء التناسـلية التـي يمزقهـا عـرب الـشرق خوفًـا مـن العـار، قالـوا الختـان الفرعـوني يضعف ثلاثـة أربـاع شـهوة المـرأة فهـو خـصي لهـا لكبـح جماحهـا، أمَّـا نحـن فـلا نخـاف مـن العـار، ولا نقتـل الفتـاة إذا حبلـت سـفاحًا أو عملـت بالدعـارة، عندمـا تلـد فتـاة مولـودًا نحتفـل بـه، بـصرف النظـر عـن كيفيـة ولادتـه بالحـلال أم الحـرام، للمـرأة حريـة كبـيرة، نحـن متسـامحون متصالحـون مـع أنفسـنا، كانـوا يقولـون العبيـد كالبهائـم، لعنـة الـرب عليهـم! بيـوت الدعارة تغـص بالمطـرودات مـن العربيـات بسـبب الحمـل السـفاح، إنهـم يدفعونهن دفعًـا نحـو احـتراف الدعـارة، والتـي لا تـسرع في الهـرب تُقتَـل بأبشـع وأقسى الوسـائل، كـم مـن الضحايـا مـن الفتيـات الصغـيرات، مـن الـذي أحبلهـن؛ أليـس هـم أبنـاء العـرب أنفسـهم؟ رغـم العبوديـة والاسـترقاق القـسري فنحـن أطيـب وأفضـل، حتـى الإسـلام الـذي يدَّعونـه يأمرهـم بجلدهـن ثمانـين جلـدة ثـم تركهـن، إنهـم يقتلونهـن؛ لهـذا يهربـن خوفًـا مـن المـوت. البـدو ليـس فيهـم عاقـل، يضحكـون منَّـا يتهكمـون لشربنـا الخمـر ولتـبرج فتياتنـا وللاختـلاط؛ عندمـا أمـرُّ بسـوق الرقيـق أغتـاظ أيمـا اغتيـاظ وأحقـد عـلى العـرب الذيـن اختطفـوا هـؤلاء الأبريـاء كلهـم مـن بنـي جنسـنا بـل مـن قبيلتنـا، يـا للظلـم! فيهـم عشـيرتنا.

ولجـت غرفـة جـدي التـي سـميتها بالمتحـف، ومنـذ عُيِّنـتُ جنديًّـا، صـار لا يعاتبنـي في الدخـول، أنـا الآن في وسـطها، جـدي كـوال شمسـون

يمارس السحر، له أوعية ورموز وناموس وطقوس، يعرفها جيدًا، قناني وفتايل وحشرات محنطة، وأشلاء حيوانات صغيرة، وهو يستغلها في علاج أطفالنا بل الكبار. جدي نطاسي ماهر، يمارس الدجل والشعوذة والسِّحر، سمعت وسوسة، أقشعرَّ بدني، حاولت الهرب ولكنني شبه مشلول، حركتي بطيئة أين الباب، عراني الرعب والفزع، تنامى صوت، رفع عقيرته بالبكاء، توجست ترددت، الصوت يتضح أكثر. دمدم:

- كان يجب أن يسموك سبت جمعة خميس، عكس اسمك هذا. اعكسه سيكون أجمل وأنبل، ولماذا لا يسمونك باسمك الأصلي الجنوبي قرنق بول دينق كير، اسم غير عربي، وغير موسيقي ولا يناسب مزاجهم.
- من أنت؟ أرجوك.
- لماذا تتلعثم وترتبك وتضطرب. ألست جنديًّا جنوبيًّا؟
- نعم من أنت؟
- شيطان؟
- شيطان؟
- بسم الله الرحمن الرحيم.
- لو قالها مسلم لكانت أجدى، هل أنت مسلم؟
- هذا ليس شأنك، اخرس.
- لن تخرج، وقعت في الشبكة يا فضولي، سأشرب من دمك.

ضباب ودخان ووسوسة ورذاذ ونعيق غربان ونهيق حمير، أقشعرَّ بدني، تصببت عرقًا، أين المفر، جدي ساحر وملك للجن سأناديه، لن

أقـع في هـذا الخطـأ بعـد اليـوم، إني نـادم. عـلى الجـدران أفعـى ضخمـة تنسـاب تفـح بغـير انـزلاق أو سـقوط، وسـط الطنافـس تجـلى رأس كلـب محـلَّى بريـش النعـام وأذيـال الأبقـار، عـواء جـاف وفحيـح، تحتـي جـرذان تتجـارى تتقافـز، هرولـت داخـل الغرفـة، تـوارى البـاب. حاولـت أن أصيـح مسـتغيثًا ولكـن هيهـات، صـوتي يتبـدد يتـلاشى، لا يخـرج مـن حلقـي، مـا هـذه الشـياطين، قـرون وأظـلاف، جـدي سـاحر ماهـر، أيسـتعرض سـحره وهـو نائـم؟ لمـاذا هـذا الابتـزاز والإرهـاب؟ مـا زالـت الحركـة المريبـة داخـل المتحـف تتململ، حركـة كحركـة دجاجـة تنفـض ريشـها، الأفعـى تفـح فحيحًـا، وتـارة أخـرى غـراب ينعـق، قريتـي في الجنـوب تظهـر جـدي قيطـان ينحنـي ويبتسـم، ويـردد هنـا تجـار وصيـادو الرقيـق اختطفـوا أمِّـي، أحـد تجـار الرقيـق يصـوِّب نحـوي رمحًـا، وآخـر بندقيـة بماسـورة طويلـة، عـليَّ أن أستسـلم وأدخـل رجـلي ويـدي وعنقـي في القيـد، صرخـت ولولـت، سـمعت صـوت جـدي يحمحـم، فجـأة تـوارى الدخـان والسـديم لم أرَ غـير مقاعـد الأبنـوس والقـرع والحـشرات والعـروق والجلـود، انسـحبت، وجـدت جـدي قـد اسـتيقظ ثـم همـس احـذر، أنـت فضـولي، مـا الـذي يعجبـك في مخـزني، فجـأة ظهـر قلـواك أطـوم كئيبًـا غاضبًـا، قبـع أمـام أرجـل جـدي وهـو يبـكي، قـال بحـسرة:

- أوصيـك بأمـي، هـي عجـوز راقبهـا، وأنـا الوحيـد ليـس لهـا ابـن غـيري بنتهـا في حاميـة سـواكن وهـي متزوجـة كـما تعلـم.
- لماذا توصيني بأمك؟
- لأني سـأرتكب جريمـة، ومصـيري معـروف، إمَّـا الإعـدام أو الهـرب وفي كل الحـالات سـتفقدني.
- أنت؟ أترتكب جريمة لماذا؟

- سأقتل سوسن وعشاقها.

- هـذا الأمـر مـرَّ عليـه عـام! أليـس كذلـك؟ لـن تسـتطيع أن تقتـل ذبابـة، مـن يتـزوج عاهـرة لا يمكـن أن يقتـل، اغـرب عـن وجهـي، أمثالـك ليـس لهـم مقـام في مجتمـع الدينـكا، زواج بعربيـة بيضـاء! هـل أنـت أبيض؟ لمـاذا لا ترغـب في بنـات جنسـك السـوداوات؟ قـم وإلَّا ضربتـك، أنـت تافـه، هـذه العاهـرة لهـا سـنة كاملـة، لمـاذا لا تقتلهـا خـلال عـام كامـل؟ يُقـال إنـك مـا زلـت تتوسـل إليهـا لتقبلـك زوجًـا، رغـم كونهـا اليـوم عاهـرة لكبـار الموظفـين، ولأبنـاء الأثريـاء في المدينـة، أتريدهـا أن تطعمـك مـن عملهـا الشريـف؟ أتريـد مهـرك الـذي لم تـذق لـه طعـمًا، أنـت جبـان هيَّـاب!

طفـق يبـكي وينـوح نـواح الثاكلـة، وثـب جـدي ورفسـه وصفعـه ودفعـه خـارج بيتـه، غضـب جـدي كـوال مدمـر، أرغـى أزبـد هـاج مـاج كالأسـد، هـرول سـادمًا نادمًـا، أهانـه جـدي أيمـا إهانـة.

11

بطرس بطليموس بطة هو مدير مديرية كسلا برتبة قائمقام وهو يرأس الصاغ تامر قائد الحامية، دعاه الصاغ لليلة حمراء، انتثرت فيها الأدنان المترعة بالصهباء، الخمر الحبشي المعتق مع غوان رائعات ساقيات يسكبن الكؤوس يوزعن البسمات، أعجب ذاك الضابط الأبطن المترهل صاحب الأسنان الذهبية بسوسن، راقته وسحرته، فأخذها عنوة إلى مخدعه رغم أنف تامر، أعادها في الليلة التالية، شكت له من مضايقات قلواك أطوم وصفقة الصول أيمن، أمر تامر بحبس قلواك، وضع وراء القضبان ظلمًا، اشتكى قلواك من الظلم لا يريد غير المهر الغالي الذي دفعه. وبعد أسبوع خرج كئيبًا، ذهب إلى القاضي ممدوح الأغر أشاح بوجهه عن دعواه، هل يستطيع أن يحاكم قائد الحامية الصاغ تامر؟ هل يستطيع أن يردع مدير المديرية القائمقام بطرس بطليموس بطة؟ أُستجوب الصول أيمن أسعد ثم لم يحاكمه، شعر قلواك بأسى ولوعة وحسرة، قرر الانتقام، الحكام، ظالمون شهوانيون، لعنة الله عليهم! انتزعوا زوجته، لا بدَّ أن تأخذ نصيبها من الانتقام. ناداه الصاغ وكان يتناول الصهباء في صفاء ونقاء لداره، الغانية كانت تشدو متبرجة، وهي تجيد الغناء والعزف، جوارها شابتان جميلتان حبشيتان تغنيان معها وتنثران البسمات وتوزعان الأدنان المفعمة بالخمر، جاء وقت العشاء، أُستدعِي قلواك ليمسك الإبريق ليغسل للسمار، إمعانًا في إهانته، ثم جمعت ملابس الغواني وطلب من القائد أن يغسلها الآن كعقوبة إضافية، وافق على مضض سكب لهم الماء، غسلوا أيديهم، تناولوا وجبة دسمة أعدها شمعون وآدم برش، انتظر ريثما يفرغون من طعامهم، وهم يقهقهون ثملون، انتصب كما التمثال المتكلِّس،

نصف ساعة، الغواني يأكلن كما تلتقط العصافير الحَبَّ، لقمه صغيرة تُدار تُقلَّب ثم تودع الثغر الدقيق الجميل، في حين يلتقم ويلتهم وينهش بطرس كما السبع، وممدوح الأغر يبتلع كما يبتلع التمساح الفريسة بنهم وتهافت.

استمرًّا سمر السمَّار الليلي بخمره بغنائه برقصه، غلمان وقيان حِسان غناء حبشي، ورقص خليع وغناء برقص شرقي (عشرة بلدي) بلغة جسد ساحرة ناطقة، أظهر قلواك أطوم الود، كما لو أنه استسلم، ونسي ما جرى وإمعانًا في الإهانة كلَّفوه بغسل ملابس الغواني في كل يوم وتجفيفها وكيها، ومساعدة شمعون وبرش في طبخ الطعام وغسل الأواني، ثمَّ ذبح الخراف وسلخها وطبخها، المشاركة في عملية تنظيف وإعداد الدجاج، ذبحه ونتف ريشه وغسله، وإحضار الخمر من المواخير، تساعده غانيتان حبشيتان جميلتان، أبدى مرونة كخادم وفيٍّ، أعاده الصاغ تامر إلى الخدمة كجندي وانخرط في عمله، ظنوا أنَّ هذه العقوبة قد كبحت جماحه وروضته! أخافه وأخضعه العمل الوضيع، المذل، غدا مقرَّبًا للصاغ تامر وللقائمقام بطرس بطليموس، كان يضمر الحقد، ظل كلغم، كبركان خامل خامد متى يثور متى ينفجر.

في ذاك المساء هو الديدبان، يتنكب بندقيته ليحمي مخزن الذخيرة والسلاح، انعقد السامر، جلسة حمراء، ما زال صوت المغنيات الحبشيات، يشنِّف الآذان في غنج، دارت الكؤوس، طفقت سوسن تغرد، تعالت القهقهات والليل يرنو بارتياب، تحرَّك قلواك بهدوء نحوهم كنمر يتربَّص بغزال. الصول أيمن أسعد يحرسهم عند الباب زمجر الكلب، طفق ينحيه مغتاظًا، أمسك أحدث وأقوى بندقية، أمام أيمن قارورة عرق حبشي وهو يحتسي نشوانَ، ها هو يترنح ويصغي للغناء من بعيد، اقترب منه ودمدم:

- أتعرف يا قواد بأن هذه آخر دقيقة في حياتك؟
- ماذا تريد يا عبد العبيد!
- مت كما تموت الكلاب!

أفـرغ عـلى رأسـه ثـلاث طلقـات، سـقط صريعًـا مضرجًـا يخـور كـما الثـور، ثـم اقتحـم مجلـس السـمر، فـرَّت الحبشـيتان ومـن خلفهـما سوسـن، أطلـق عـلى سوسـن طلقتـين سـقطت تـصرخ ترفـس تسـتغيث، ثـم أطلـق النـار عـلى القائمقـام بطـرس بطليمـوس عـلى بطنـه المترهلـة فثقبهـا، سـال الـدم، ركـض الصـاغ مختبئًـا ولكنـه لاحقـه وأفـرغ عـلى رأسـه خمـس طلقـات، انهـار القـاضي ممـدوح الأغـر وغـدا يتوسـل ويتـضرع وهـو يقـول:

- أرجوك يا بني، أنا عجوز وغريب وقاضٍ.
- مت كما تموت الكلاب.

أطلـق عليـه مجموعـة عـلى صـدره، سـقط صريعًـا والـدم ينبجـس كـما لـو أنـه ثـور مذبـوح، مذبحـه، تسـاقطوا يتمـددون ينكمشـون يصرخـون يحشرجـون والـدم يجـري بغـزارة، هـرول قلـواك وسـلَّم نفسـه للجاويـش المنـاوب، حيـث أودعـه وراء القضبـان بعـد أن تسـلم منـه البندقيـة، ضجـت المدينـة تزلزلـت، الحـدث الجلـل، سـارت بـه الركبـان أصـاب الحكومـة في مقتـل. مـصرع مديـر المديريـة، قائـد الحاميـة، ورئيـس قضـاء المديريـة وسوسـن الفاتنـة، ارتبكـت إدارة المديريـة، تضعضعـت ترنحـت تداعـت، كبـار المسـؤولين خائـرون حائـرون تائهـون، لا بـدَّ مـن تبليـغ الحكمـدار في الخرطـوم وهـو الرجـل الأوَّل، وهـو بـدوره لا بـدَّ أن يبلـغ الخديـوي في مـصر، الهواتـف متعطلـة، الفنيـون ينهمكـون في إصـلاح العطـب لنقـل الحـدث الجلـل، بـل الجريمـة البشـعة، كـرر الغوغـاء: فعلهـا العبـد الآبـق،

شعور عدائي منذ الفجر لكل حي الجنود السود، من المصريين والأتراك، حفرت أربعة قبور جوار قبر منيرة، أطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة، حمل الضباط والجنود التوابيت بقلوب كئيبة وعيون دامعة، شيعوا تشييعًا مهيبًا تجاهله سكان مدينة كسلا الذين فرحوا لقتل الطغاة، تذكروا حرق الملك نمر إسماعيلَ باشا في شندي، اعتبروا قلواك بطلًا، في حين اعتبرته الحكومة مجرمًا. قبيلتنا استنكرت الجريمة التي اقشعرَّت لها الأبدان. لا جدال بأن قلواك أطوم كريوم، المشهور بحامد محمّد حامد، كان مظلومًا، ولكن اغتياله كبار رجال الحكومة أزعج كل كتيبتنا السوداء بحيها الأسود كما يلقبه سكان المدينة، جدي كوال دينق كير شيخ الدينكا، استشاط غيظًا، لأن هذا الفعل أساء إلى العلاقة ما بين الحكومة وجنودها السود، ذهب جدي إلى مدير المديرية الجديد واعتذر له، ولكن عذره ذهب أدراج الرياح، كان الغضب شديدًا على كل زنجي يعمل في الجيش التركي المصري. شكلت محكمة عسكرية شفهية لقلواك بقيادة اليوزباشي سمير مطرف البغدادي، لم ينكر المتهم التهمة، اعترف بالقتل العمد مع سبق الإصرار، حكمت المحكمة عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، لم يحفل للحكم وهو يعلم بأن جريمته ستعدمه، ظل ثابت الجنان، وفي صباح اليوم التالي أُقتيد إلى الدروة في وجود قائد الحامية الجديد الصاغ ميلاد حنا تادرس الذي خلف المرحوم تامر الأغا، انقسم أهلنا، على أي دين يموت قلواك أطوم كريوم، وثنية، مسيحية أم إسلام، أخيرًا أقنعهم جدي بأن يجري الموت على طقوس الأديان الثلاثة، لم يعترض قلواك وافق مسرورًا وهو يودع الدنيا، ها هو يمشي الهوينى، مرفوع الرأس، لم يتوجس أو يتردد، قال في ثبات:

- هأنذا أموت سعيدًا بعد أن انتقمت من الذين ظلموني، هم قد سبقوني إلى القبور، أنا المسرور، أنام معهم الليلة النومة الأخيرة، الرجل لا يُضرب من الخلف، لن أمشي إلى الدروة لكي أُضرَب من

الخلـف. سـأمشي معكوسًـا، سـأنظر إلى بنادقكـم، أطلقـوا الرصـاص عـلى وجهـي وصـدري وبطنـي، انظـروا كيـف يمـوت الرجـال!

فجـأة ظهـر كلـب أسـود بعينـين حمراويـن يلهـث، شـقَّ صفـوف الكتيبـة المصطفـة بالمئـات، وجـوه كالغربـان في السـواد، جوارهـا السريـة البيضـاء وفيهـا الجنـود البيـض، جـرى نحـو قلـواك طفـق يشـم، في ود ويهـز ذيلـه، إنـه كلبـه الـوفي الـذي فقـده عـشرة أيـام بعـد حبسـه، جـاءت لحظـات الإعـدام أرسـل قائـد الحاميـة جنديًـا لهـشِّ الكلـب لكيـلا يمـوت مـع صاحبـه. قـال قائـد الحاميـة الصـاغ لحامـد محمـد حامـد (قلـواك):

- الآن ستدفع ثمن جريمتك البشعة يا جبان.

- الجبنـاء هـم الذيـن قتلتهـم هاربـين فاريـن. انظـر كيـف أمـوت.

أشرف ميتـة للجنـدي أن يمـزِّق جسـده الرصـاص، رصاصـك الآن وجهـه لوجهـي لصـدري، هكـذا يمـوت الرجـال أبنـاء الرجـال، لـن أتلعثـم لـن أتلجلـج ولـن أتـردد.

- أنت مجرد مجرم.

- المجرمـون هـم الزنـاة البغـاة الطغـاة، مروجـو الدعـارة، سـارقو الزوجـات! لقـد جعلـت مدينـة كسـلا مقـبرة لهـم، وأعتـز بذلـك.

- قـبرت رجـالًا مبدعـين، أمثـال القائمقـام بطـرس بطليمـوس، الصـاغ تامـر الأغـا، والقـاضي ممـدوح الأغـر.

- وسوسـن بيومـي، ألم أقبرهـا، أليسـت منكـم؟ أم لأنهـا عاهـرة؟ أنسـيتها الآن؟ هـي لا تشرفكـم بالطبـع تتهربـون مـن سـيرتها.

- خلصونـا مـن هـذا الزنجـي القبيـح، يـا جـلاد، أيـن النطـع؟ أيـن المقصلـة؟ إلى مزبلـة التاريـخ أيُّهـا الجنـدي الوقـح.

فجأة ظهرت أسراب نسور سوداء، تسف وتعلو وتحوم حول الكتيبة، كما لو أنها تشاهد إعدام قلواك أطوم كريوم، اقشعرَّت أبدان الجنود وهم يرنون إلى السماء الزرقاء التي دفعت بهذه الجوارح، لسبب غامض ومجهول، ما زالت النسور ترتقي معارج السماء سابحة، وهي تمخر عباب الجو، تمور جيئةً وذهابًا، سقطت بيضة على رأس قلواك، تهشَّمت سال البياض والصفار على وجهه المسمر، الملتهب المقطَّب، ظن البعض بأن أحد الجنود قد أطلق طلقة كاتمة صوت ففجرت رأس حامد محمَّد حامد، فسال الدم ممزوجًا بالمخ، ولكن الشاب ما زال منتصبًا في مواجهة الجلادين. قال قائد الحامية الصاغ لجنوده:

لا أريد أن أرى هذا المجرم، عجلوا بنهايته!

همس نائبه في أذنه بأن ثمة طقوس زنجية قبل الإعدام لا بدَّ منها، عندئذ تقدم كوال شمسون واقترب منه وأوصاه بالشجاعة والصمود والنطق بالشهادتين، خلفه أمتونج لتلقينه الطقوس الوثنية، وموسس يلقنه الطقوس المسيحية، ثم اعترافه، أرادوا أن يموت بديانة ثلاثية، قال أمتونج:

- قل ربي دينقديت، إله الغابات والنباتات والأمطار والسود! ثم ارفع سبابتك للشمس كإله أكبر، وقل هذا ربي هذا أكبر! هو للضياء للنماء والرخاء، هو عون لإله الكون دينقديت.

فعل ما أمره به أمتونج، ثم صدع قائلًا خلف موسس: لا إله إلَّا الأب الرب وابنه يسوع الرب وروح القدس - العذراء! ثم قال له كوال شمسون قل: أشهد ألَّا إله إلَّا الله ـ محمد رسول الله، فعل ما أمره به الثلاثة رجال، ثم زجرهم القائد بالنأي، تقهقروا تقاعسوا ماعدا الكلب.

12

الصاغ ميلاد حنا تادرس يتوجس من الجنود السود، ظنَّ أنَّ الإعدام ربما يثير مشاعر العداء، وهم أكثر، الجنود المصريون أقلُّ؛ خمس القوة، لهذا ما زال الخطر ماثلًا، همس في إذن اليوزباشي بديع حسني بأن يحرِّك الكتيبة إلى الميدان الشرقي إلى حين إعدام الجندي حامد محمَّد حامد - قلواك أطوم كريوم الذي قتل بطرس، تامر، القاضي ممدوح الأغر وسوسن بيومي، غمغم همهم ثم همس، مخاطبًا الضباط المصريين دون أن يسمعه بقية الجنود:

- منذ أن أحرق الجعليون بقيادة ملكهم نمر في شندي إسماعيل باشا، ظلت حكومتنا تتخوف من تجنيد العرب في الجيش، السود الزنوج حاقدون، أنا أخشى كيدهم، ها هو العبد الآبق يرتكب مجزرة لا يمكن أن ننساها، أخشى أن يفتكوا بنا تارة أخرى، ربما يثورون إذا رأوا الدم! إذا شاهدوا دم حامد محمَّد حامد، يا إلهي ماذا أصنع؟! هذه علامات التمرد، هذا أغرب إعدام!

ما فتئت الغربان تنعق والبوم ينعب ويطير محلقًا على هامات الجو الكئيب المكفهر، القائد يتوق إلى اختفاء كل الكتيبة من في ساحة الإعدام، ما زال قلواك صامدًا صامتًا يستنشق شعاع الشمس الضاحية المتداعي، والشمس تزهو منسابة لكبد السماء الزرقاء، لعق قلواك تمباكًا ودخن سيجارة، في انتظار رصاصة الرحمة.

أمر الصاغ اليوزباشي بأن يحركهم إلى الميدان الشرقي، لكيلا يروا الإعدام؛ فزعًا من فوهات بنادقهم، تقدَّم الشاب الوسيم اليوزباشي وديع حسني صفوت، وسجع بصوته الناعم الرقيق:

- لليمين در!

كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة، أو تماثيل من العصور الحجرية، لم يتحركوا قيد أنملة، تجاهلوا الأمر، في حين نفذ الجنود المصريون الأوامر، وتحركت سريتهم في خفة ورشاقة نحو الميدان الشرقي، كرر النداء تارة أخرى، لم يستجيبوا. هذا ما كان يخشاه الصاغ ميلاد حنا تادرس قائد الكتيبة. عرت الريبة القائد، هل سينقض السود، وجنوده البيض قد اصطفوا في الميدان الشرقي المشجر المعشوشب، السماء الزرقاء الخريفية تلقي بظلالها بألقها على المشهد الرهيب، اقترب من الكتيبة وردد النداء نفسه:

- لليمين در!

وتارة أخرى يتمردون، هل هم يتعاطفون مع القاتل؟ أيريدون تخليصه من فك المقصلة؟ ماذا دهاهم؟ ماذا عراهم؟ فغر فاه، انتصب كتمثال، لماذا لا أحاورهم، العنف لا يجدي في هذه اللحظات القاتلة، ما أصدقك يا أبا الطيب المتنبي، همس: أنجاس مناكيد، يحتاجون إلى العصا! ثم هَزَمَ تارة أخرى:

- لليمين در!

لم تتحرك الكتيبة، أصنام منتصبة، زمجر بغيظ:

- من ينفذ الأمر سينجو من العقوبة، سأعد حتى خمسة، من يتحرَّك يكون قد أطاع الأوامر، ومن لم يتحرَّك يكون قد عصا الأوامر، أليس كذلك؟ واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة.

- لليمن در!

صكَّ صوته الآذان، انطلق ملعلعًا لعنان السماء بغير تجاوب. احمرَّ وتورَّد وجهه، غلى الدم في عروقه، استشاط غيظًا وحقدًا، والمصريون من على البعد يتابعون ثورة قائدهم.

- لماذا لا تستجيبون ألا تسمعون؟
- نريد أن نحضر الإعدام، ونودِّع حامد محمَّد حامد.
- من هذا الذي يتحدَّث من وراء الكواليس؟

أطرق الصول والبد جاويش والجاويش والأمباشي ووكيله، بل كل صف الضباط السود. عيون الكتيبة كعيون الغربان الحذرة الجائعة.

- أنا الجندي خميس جمعة سبت، يا فندم!
- يا لك من شجاع! تقدَّم لأراك.

تحرَّك خميس واخترق الصفوف ووقف أمام القائد، وحيَّا الصاغ ميلاد حنا تادرس، الذي بادله التحية العسكرية بحبور وسرور. اطمأنَّ قلب القائد، لا توجد سمات غدر، ولكن ريبته لم تزايله، تردد توجَّس، أينفذ الإعدام أم يتركه ليوم آخر، هاجسان يتنازعانه بين التنفيذ والتأخير، ما زال خميس جمعة سبت متسمرًا كالتمثال، ثم أمره بالرجوع إلى الطابور بعد أن أثنى عليه، ماذا يفعل الآن وفرقة الإعدام متحفزة مهيأة لإنهاء المهمة، هل يتقاعس ويتقهقر السود عن رأيهم، أيصارعهم ويصعِّد الأمر، أم يقدم تنازلًا؟ هل يأخذ رأي نائبه؟ ألا يعتبر ضعفًا أمام الكتيبة التي تتمرد نهارًا جهارًا؟ إعدام إسماعيل باشا حرقًا في مدينة شندي ماثلًا أمامه، ألم تحذره الحكومة المصرية من الفظاظة؟ وفجأة زمجر:

- للشمال در!
- أجلنا الإعدام إلى يوم غد، انصراف.

سرعان ما افرنقع الجنود.

13

دمـدم الرصـاص قُبيـل الفجـر، ارتعـدت فرائـص النـاس، واقشـعرَّت أبدانهـم، مـا الـذي جـرى، والشـمس تسـطع وشـعاعها العسـجدي يتـلألأ و ينسـكب عـلى أكـواخ الكتيبـة الكئيبـة، انتـشر النبـأ الأليـم، أُعدمـوا قلـواك أطـوم كريـوم - حامـد محمَّـد حامـد كـما هـو مـدون في سـجلات الكتيبـة، جـاء جنـدي مـصري أبيـض كئيبًـا وأخطـر جـدي كـوال – شمسـون الجبـار، وبـدوره أخطـر كل أبنـاء قبيلـة الدينـكا، خففنـا للـدروة، القائـد ميـلاد حنـا تـادرس، منـح الكتيبـة عطلـة ثلاثـة أيـام خوفًـا مـن ردود الأفعـال. وجدنـاه مسـجَّى مغطًّـى ببطانيـة وتحتـه بركـة دم حمـراء، ثقـب الرصـاص ظهـره وصـدره ورأسـه، حملنـاه عـلى عنقريـب، وصلنـا إلى حيَّنـا، كفنَّـاه بالطريقـة الوثنيـة، لم نفكِّـر في قـداس جنـازة، ولا صـلاة جنـازة. قـال جـدي: قلـواك لا مسـيحيًّا ولا مسـلمًا، بـل وثنـي. غسـلناه عطرنـاه كفنَّـاه، جـدي كان يجيـد كل فنـون التحنيـط، بكـت النسـاء حينـما تحرَّك موكـب الجنـازة، أخته كادت تلحـق بـه، تولـول تـصرخ وتنـوح، يـا لهـا مـن ثاكلـة نادبـة! عـشرات النسـاء ذهـبن معنـا إلى المقـبرة وسـكان المدينـة يعجبـون يدهشـون، نسـاء العـرب هنـا لا يذهـبن إلى المقابـر، هـذا هـو مصـدر دهشـتهم، في حـين أن نسـاءنا يذهـبن ويشـاركن، حـارس المقـبرة رفـض دفـن قلـواك بحجـة أنـه ربـما لم يكـن مسـلمًا، كونـه جنوبيًّـا، ثمـة مقـبرة صغـيرة عليهـا صلبـان - عـشرة قبـور، هـذه مقـبرة النصـارى، لـن يمنعنـا أحـد، لمـاذا يرفـض المسـلمون موتانـا؟ مـا دخـل الأرض بالأديـان؟ مـا علاقتهـا بذلـك؟ مـاذا يضـير الميـت المسـلم إذا دفـن جـواره وثنـي أم نـصراني؟ أمـر غريـب، تعصـب أعمـى، مكتـوب عـلى الشـواهد الأسـماء والرتـب، عشريـن قـبرًا، ثلاثـة ضبـاط وثلاث نسـاء والباقـي جنـود مصريـون وأطفالهـم، هـذه القبـور الأربعـة لسوسـن

وعشاقها الذين أسكنهم وزرعهم قلواك في الصلصال الحار! اليوم ينام معهم! كلها قبور نصارى والصلبان ترقص كشواهد، هم أقباط أو من نصارى الشرق ما أكثرهم! جرجس، بطرس، وليم، حنا، روماني، عبد المسيح، ونبيل، حفرة طولية زرعناه وطمرناه فيها، وجدِّي يرتِّل الطقوس الوثنية الجنائزية، (يا ربي دينقديت، أتاك عبدك اليوم قلواك أطوم. فضمه إلى صدرك، عامله كابنك، أودعه بركة الخلود في جنة الأدغال والأمطار. آمين آمين) وضعنا في قبره كل مقتنياته ودفناها معه، لاحظت كيف عرَّى جدي الجثمان، نثر مسحوقًا ممزوجًا بزيت خروع على رأسه، أدخل خرقًا معطونة في العطر ما بين فخذيه وأذنيه وعينيه وفمه، محلول أسود رَحَضَ به الصدر والبطن، ثقوب الرصاص مسحها وغسلها بماء حار ممزوج بالعطر، أدخل القطن في كل المنافذ، معطرًا مضمخًا، نثر مساحيق عدة على سائر جسده وهو يهمهم ويغمغم، ما زال دمه نازفًا، كم غاص الرصاص في جسده، مزقوه أفنوه، كما لو أنهم يقتلون فيلًا، ورغم ذلك فقد انتقم لشرفه لعرضه؛ تأثُّرًا بثقافة العرب الذين من حولنا، يا لهم من غجر! يقاتلون بضراوة في مسألة العروض والثأر والسرقات، سأنتقم منهم ذات يوم، أتمنى أن يجري اختياري في حملات التأديب للممتنعين عن دافع الضرائب. لا بدَّ أن يطل ذاك اليوم الجميل، لأنتقم لأسلافي المسترقين، وخاصة أنَّ العملة ليست متوفرة بأيديهم وهم يكرهون دفع أنعامهم كضرائب، الإبل الضأن البقر مقدَّسة عندهم لا يبيعونها، سيأتي يوم الانتقام، سترون ما يحل بكم على أيدي العبيد السود الزنوج، لم تطلق المدفعية عشر قذائف في أثناء الدفن، لم يصطف الطابور ولم ينفخ البروجي بوقه كعادته حينما يموت جندي، أهانوا قلواك، همشوه، لأنه قتل قادتهم، لولا خوفهم من السود لمزقوه إربًا إربًا، نعقت الغربان في أثناء الدفن، عدنا إلى بيوتنا، لإقامة المأتم حسب طقوسنا الوثنية، أولمنا، ذبحنا عجلًا، رقصنا رقصة

الموت على أنغام طبل الحرب، عجب الناس لرقصة الموت السحرية، العرب لا يقرعون الطبول إلَّا للطرب والحرب، نحن نختلف عنهم، ولماذا نتفق معهم، نحن من الجنس الأسود وهم من الجنس الأصفر أو الأسمر. أمر غريب؛ جاء المصريون يعزوننا، مجموعة جنود يقودها صول مصري أبطن مترهل، قبل جدي العزاء، الأمر الأغرب جاء شيوخ البدو وهم يتحدثون لغة البدو، وفد رفيع المستوى من قبائل بني عامر، خاسة، هدندوة، سبدرات، أرتيقا، حلنقة والرشايدة وهم عرب خُلَّص ببشرات بيضاء، قرأوا الفاتحة على روح قلواك الشريرة، رفع جدي يديه كما لو أنه يقرأ الفاتحة، لماذا نقرأ سورة لا نؤمن بها؟ نحن وثنيون، جدي منافق، ما كان له أن يمثِّل! ألا يعرف العرب بأننا غير مسلمين، ولا ينبغي لنا ولا نتشرف بذلك، الإسلام ليس ديننا، لأن أتباعه باعونا اشترونا تاجروا بنا كالبقر، سننتقم ذات يوم.

الغريب أنَّ أطفال العرب يقتربون ليروا رقصة الموت بإيقاعها البطيء والرزين والطبل يئن ويئن، والنساء يرقصن وكذلك الأطفال والرجال، كما لو أنهم يتحدون الموت الذي غافلهم في دجى أو غسق فاختطف والتقط قلواك، وعليه أن يجرِّب تارة أخرى، لو كان رجلًا شجاعًا، سيُطرد ويُقتل بواسطة إله الأدغال الذي له بالمرصاد، لقد سرق روحًا بريئة بغتة وفي غفلة ابتلعها، هكذا تقول كلمات الأغنية التي تغنيها الحيزبون بلغة الدينكا. مدة أسبوع لم يتوقف الطرق والقرع والرقص والذبائح والولائم، روح قلواك معنا الآن تأكل وتشرب وترقص وتسكر، العرق للكبار الرجال فقط، لأن كحوله مركّزة! أمَّا بقية المشروبات للعامة مثل المريسة، العسلية، الدغبوبة والشربوت كل هذه المشروبات الروحية ذات الكحول الخفيفة تفيض بها الأزيار والقلل، زبدها أبيض راب، أيُّ فرد يستطيع أن يحتسي حسب سعة بطنه حتى الثمالة، البعض يهمهم ويغمغم ويرطنون من فرط السكر، ألفاظ نابية

ضـد السـماء وضـد كل الأديـان عـدا الوثنيـة وإلههـا الأسـود الطيـب ملـك الأمطـار والأدغـال والوحـوش.

أسـبوع كامـل نحـن نرقـص ونغنـي أغـاني المـوت والعـرب الفضوليـين الثرثاريـن يندهشـون ويعجبـون لطـرب المـوت، انتهـت مأسـاة قلـواك أطـوم كريـوم - حامـد محمَّـد حامـد، نضبـت الدمـوع، ذبلـت الآهـات، تـلاشى وتبـدد الحـزن، المحكمـة حرمـت الوارثـة الوحيـدة أي حقـوق. الدولـة لـن تقـدم أيَّ مكافـأة لقاتـل رهـط، فيهـم مديـر المديريـة وقائـد الحاميـة وقـاضٍ وصـول وفتـاة لعـوب - مومـس محترفـة، سررنـا للانتقـام المـروِّع، لقـد فرحنـا لتلـك المجـزرة التـي قصمـت ظهـر الحكومـة، تسـاءل العـرب، فقلنـا لهـم القتـل كان مـن أجـل العـرض، انتقـام! انتهكـوا عرضـه، مـدح البـدو المرحـوم ووصفـوه بالبطـل، فهـم يكرهـون الحكومـة التـي أرهقتهـم بالضرائـب. انفـض السـامر وعـاد النـاس إلى أعمالهـم تركنـا، في بيـت المرحـوم قلـواك شـقيقته نياكونـق الطويلـة الجميلـة الأرملـة، مـن سيسـاعدها بعـد مـوت شـقيقها، لا بـدَّ أن جـدي كـوال دينـق كـير سـيلزم الجنـود بدفـع راتب شـهري، كل واحـد حسـب اسـتطاعته، إذا أعطوهـا خمـس ريـالات شـهرية سـتعيش بمسـتوى معيشـة لا بـأس بـه، وأظنـه سـيفعل كـما عودنـا، ونحـن طـوع بنانـه ورهـن إشـارته. لا بـدَّ أن نتعـاون مـع أختنـا نياكونـق الأبنوسـيَّة اليتيمـة الأرملـة.

14

تدهـورت الأوضـاع، عانينـا الأمرَّيـن ثلاثـة شـهور لم نقبـض رواتبنـا، في حـين أن الجنـود المصريـين يتقاضـون رواتبهـم في وقتهـا، مديـر المديريـة القائمقـام كان يضـع أولويـة خاصـة لرواتـب الجنـود المصريـين، ويتجاهـل أو يتسـاهل في حقـوق السـودانيين، جعنـا؛ أهلكنـا الجـوع، التجَّـار أوقفونـا، لم نعـد نسـتطيع أن نفـي بالتزاماتنـا المنزليـة، كيـف نـأكل وكيـف نـشرب؟ البـؤس يكـشِّر عـن أنيابـه الحمـراء، الجـوع ينهـش بأنيابـه الحـادة. الجنـود المصريـون يصرفـون شـهرهم الخامـس، ونحـن موقفنـا يـراوح مكانـه، قلـب لنـا التجَّـار ظهـر المجـن، بلـغ السـيل الزُبـا، ضاقـت الأرض بمـا رحبـت، جعنـا تسـيَّبنا عـن العمـل، سـقطت كلمـة انضبـاط، غـاب الضبـط والربـط، ضعـاف النفـوس مـن الجنـود طفقـوا يقطعـون الطـرق، وبعضهـم يجـوس ببيـوت العاهـرات ليـلًا لابتزازهـن وإرهابهـن مـن أجـل نهـب أموالهـن، وكذلـك بائعـات الخمـر في الحانـات تعرضـن لإرهـاب الجنـود الجوعـى، بعـض الجنـود شرعـوا يبيعـون ممتلكاتهـم بأسـعار بخسـة. وفي مدخـل مدينـة كسـلا يقـف كل يـوم خمسـة مـن رجالنـا، يقولـون للشـخص الـذي يريـد دخـول كسـلا: هـات مـا عنـدك! وإذا رفـض ضربـوه، وفي ذات يـوم جـاء أحـد أفـراد قبيلـة الهدنـدوة، وحاولـوا ابتـزازه وتهديـده بمسـدس قديـم تالـف، وسرعـان مـا وثـب كالنمـر وكان يخبـئ سـيفًا مصقـولًا تحـت ثوبـه وصدريتـه الزرقـاء، غـاص السـيف في رأس بـول وقطـع يـد لـوال واجتـث رقبـة ويـل، فـرَّ كـير ودينـق، أمرنـا جـدي بإحضـار الجنازتـين بغـير ضوضـاء، كل مـن قُتِـلَ وهـو معتـدٍ لا تُقـام لـه طقـوس المـوت، دُفِنـوا بملابسـهم الحمـراء، لا عـزاء ولا ضوضـاء، فقدنـا أكـثر مـن خمسـة عـشر شـابًّا خـلال عمليـات النهـب والسـطو، قتلهـم الرشـايدة والهدنـدوة وبنـو عامـر. في أثنـاء

قطـع الطريـق، تلـك قبائـل شرسـة شـجاعة، سـيوفهم المهنَّـدة تجعلهـم كالأسـود الضاريـة، فتكـوا برجالنـا قتلوهـم بجـروح عميقـة، زجـر جـدي الجنـود اللصـوص، وطلـب منهـم أن يضغطـوا عـلى الحكومـة وليـس عـلى الشـعب المسـكين، أكثرنـا مـن الاحتجاجـات ولكـن هيهـات، الحكومة سـادرة في غيهـا، أعطـوا كل جنـدي جـوال ذرة والمجاعـة تـضرب شرق السـودان حتى حـدود الحبشـة وإريتريـا، بدأنـا نغـلي الـذرة كبليلـة ولكننـا مللنـاه، كطعـام خشـن بائـس غـير مستسـاغ، المصريـون يأكلـون اللحـم والحلـوى ويشربـون عـرق التمـر والنبيـذ والفواكـه. ونحـن نعـاني الجـوع، أعطونـا جـوال ذرة آخـر ولكـن هيهـات أن يضمـد جراحـات الجـوع، ضعفـت أجسـادنا، اقـترح جـدي أن نثـور ونسـتولي عـلى الحاميـة، وجـد هـذا الاقـتراح القبـول، ثـورة مسـلحة لانتـزاع حقوقنـا، لا بـدَّ مـن العنـف مـع هـذه الدولـة الظالمـة. يمكننـا القضـاء عـلى حاميـة كسـلا، عددنـا أربعـة أضعـاف الجنـود المصريين. لـن يسـتطيعوا أن يقاومـوا أو يصمـدوا، هدفنـا حقوقنـا فقـط! ثـورة بغـير قتـل، هـذا هـو الشـعار الـذي طرحـه جـدي كـوال مـن أجـل انتـزاع الحقـوق، هـذا هـو الشـهر الخامـس ولا بصيـص أمـل. قائـد الحاميـة، زعـم بـأن الأمـور الماليـة مـن شـؤون مديـر مديريـة كسـلا سـعادة القائمقـام، وإنه لا حـول لـه ولا قـوة، هـو قـد رفـع الأمـر للحكمـدار بالخرطـوم ولم يأتـه أي رد؛ لهـذا أدار ظهـره كـما لـو أن الأمـر لا يهمـه، مـلَّ الجنـود الانتظـار ورأوا في وصفـة حكيمنـا وزعيمنـا شمسـون الجبـار (كـوال) الحـل الأمثـل لهـذه القضيـة المزمنـة، كـثر اللصـوص وقطـاع الطـرق في وسـط جنودنـا السـود. العبيـد كـما يحلـو للبـدو بمناداتنـا وأحيانـا يقولـون السـودانيين، سـوداني يعنـي أسـود أو عبـد، أمَّـا هـم فليسـوا سـودانيين إنمـا عـرب.

مـدة شـهر ظللنـا نناقـش أمـر الثـورة في سريـة بلغتنـا الأم - لغـة الدينـكا التـي لا يفهمهـا أحـد غيرنـا. وضـع لنـا جـدي كـوال خطـة محكمـة، للإجهـاز عـلى الفرائس.

15

أمر غريب، في أثناء التمام الصباحي وقبل يومين من تنفيذ خطة الإجهاز على الحامية، خاطبنا الصاغ ميلاد تادرس بحسرة ولوعة، دمدم:

- البدو لعنة الله عليهم، بخلاء جبناء، بلغني من سيادة مدير المديرية القائمقام بأنهم اعتدوا على الباشبوزق الذين ذهبوا لجمع وتسلم الضرائب، أمرني سيدي بأن تتحرك سريَّة لسحق المتمردين وتلقينهم درسًا لن ينسوه، قتلوا ثلاثة، وفرَّ بقية جامعي الضرائب وصلوا ليلة أمس بعد ثلاثة أيام من الجري، مات أحدهم بلدغة ثعبان والتهم ضبع آخر، وغرق آخر، وثلاثة مفقودين، وصلت نصف القوة. لا بدَّ من فرض هيبة الدولة، هيئوا أنفسكم منذ الفجر ستتحرك سريَّة بقيادة حسن أحمد حسن الجاويش، لن يذهب أي ضابط، اقبضوا على الشيوخ كبِّلوهم قيدوهم، خذوا معكم رهائن من الشباب، اجلدوا عذبوا اضربوا انتقموا لزملائكم الشهداء، اقتحموا مقر شيخ الشيوخ اجلدوه أمام نسائه ورجاله، كونوا قساة، لا بدَّ أن يدفعوا الثمن غاليًا، جروح وحريق ونار ودخان وجلد وقتل إذا اقتضى الأمر، طوبى لكم أيُّها الشجعان الأشاوس. فرحت فرحًا شديدًا أتمنى أن أكون ضمن السريَّة؛ لأنتقم لأسلافي العبيد.

ومن حسن الحظ، أخبرني الصول المصري ماهر صداح بأني ضمن الجنود الأربعين المناط بهم تأديب البدو وقمعهم وتشتيت شملهم وتخريب ديارهم، فرحت فرحًا شديدًا، هذه أوَّل حرب غير متكافئة سأخوضها، أسلحتنا نارية وسلاحهم أبيض بدائي، سنتحرَّك عند الفجر، هي حملة انتقامية من القبيلة القاتلة وهذه المرة السابعة لتمردها،

أعطونا أوامر مشددة بسحقها وعدم الرحمة والرأفة، الغنائم لنا نصفها، لم أنم في تلك الليلة، غدًا سأقتل، سأنتقم من الذين استرقوا واستعبدوا أسلافي. ما زال سوق الرقيق مكتظًا بالمئات من عشائرنا، سيرى البدو الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون، أوصانا القائد بالحسم وضرب البدو ضرب غرائب الإبل كما قال زياد ابن أبي سفيان، وصلنا قيادة الحامية زرافات ووحدانًا، انتظمنا في الطابور الأخير للرحلة، وجدنا الأسلحة جاهزة، كل جندي تسلم عهدته بندقية زمزمية بطانية وذخائر، جمال سمينة وُضِعَتْ عليها المؤن والمعدات، خبز جاف وعسل وسمن وبلح، كان هذا سيأكله الجنود المصريين، لم نرَ هذا الطعام، بخلوا به. الآن أخرجوه من أجل كسب المعركة التي شدَّد عليها مدير المديرية، كل واحد لديه رديف على ظهر بعيره، عدد الجمال أقلُّ من عدد الجنود، معنا بدوي ملثم أبيض البشرة، علمت أنه دليلنا ومرشدنا لمراتع ومضارب ومرابع القبيلة المتمردة، هو خصمها وعدوها، يتمنى أن تبطش وتفتك الحكومة بهذه القبيلة الشريرة قبيلة بني أسد التي حاربت قبيلته وفتكت بها قبل أعوام، وقتلت إخوانه الثلاثة وعشرة من أبناء عمه، سحقت بني حامدي قبيلة جاد الرب سوار الذي يتقدمنا مرشدًا ملثمًا، برغبة عارمة أن يرى القتلى والجرحى والأسرى، بدأ جاد الرب سوار ينظر إلى الصول بول أدوك كير - المشهور بسعد أسعد حسون، الاسم الذي اختاره له الأتراك أو المصريون، قال: يا سعد بناتهم جميلات، سترون حوريات في مخادعهن وخدورهن، عربيات نقيات. أيقنت من حديثه أنه يريد أن يستعدي الجنود على بنات بني أسد، وهل إذا وجد جنودنا فرصة سيضيعونها، دائمًا يشتهون بنات العرب ويتحدثون عن جمالهن وألوانهن وشعورهن وأجسادهن، لا أعتقد أنهم يحتاجون إلى توصية. جاد الرب سوار الحامدي خبيث، يصطاد في الماء العكر، يوسوس يسوِّل يغري يغوي.

انحسر لثام جاد الرب سوار الحامدي، يا له من وسيم! شاب أبيض بملامح عربية جميلة، أنفه مستقيم حاد، بشفاه رقيقة وشعر كث متهدِّل على عنقه، عليه خصائص النبل رغم خبثه، ها هو يستعدينا على جيرانه الشجعان الذين مرغوا أنف قبيلته في الأرض، صخور ناتئة جيرية وجرانيتية، تلال عفراء صفراء، شجيرات ذابلة منتثرة شاحبة، جفاف يرتسم على وجه الأديم. تقدَّم الحامدي يغيظني، كما لو أنه تاجر رقيق يقودنا إلى أسواق وسط السودان ليبيعنا، لا بدَّ أن يمشي خلفنا. حاولت أن ألحقه ببعيري البشاري الأبيض، الآن كاد الجملان يلتحمان، كان نشوان بدأ يتغنى بمقاطع من شعر الدوبيت:

يا سيِّدي الحسن أبو قبة لبنية اكتب لي حجاب من راسي لكرعيَّ

تذكرت قبة السيِّد الحسن الهرمية المدببة الناصعة البيضاء بمدينة كسلا، إنها تمثل رمزًا صوفيًّا روحيًّا لهؤلاء البدو، ها هو يستجير بالسيِّد الحسن لينقذه ليحفظه قبل ربه الله، ما زلت أنظر إليه وصوته الشجيَّ يتردد صداه، ما فتئ نشوان، لقد تحسس وتلمس ما سيجده عدوه اليوم على يد زبانية العذاب، قوات هولاكو التتري وجنكيز خان وتيمور لنك، ثم قال للصول ليُوغِرَ صدره:

- بنو أسد بعد أن قتلوا قوات الباشبوزق حرقوا الجثث، قال لهم شيخهم المغرور، النار مثواهم ومأواهم في الدنيا والآخرة، هؤلاء العبيد لا يستحقون إلَّا الحرق والضرب والقتل. حرقوا يوسف مطر قبل أن يموت بالطعنة العميقة على ظهره، كان يقول: ماء ماء لا تحرقوني أنا حيٌّ. كانوا يضحكون ويقولون تبكي يا امرأة؟ لقنوهم درسًا اقتلوهم كما قتلوا الأبرياء من شرطة الضرائب.

قال الصول بول أدوك كير - المشهور بسعد أسعد حسون في سجلات الجيش:

- اليـوم لأنتقمـن انتقامًـا لـن ينسـوه، يرفضـون دفـع الضرائـب ويقتلـون الباشـبوزق. أيـن ديارهـم، لأخربنَّهـا وأحرقنَّهـا؟

- سـنصل بعـد سـاعتين قبـل مغيـب الشـمس، سـتجدونهم في الوقـت المناسـب. زمـن عـودة البهائـم مـن المرعـى سـيحلبون سـيتغدون، إنهـا فرصـة للقضـاء عليهـم.

- سـيكونون عظـة وعـبرة، لـن أقتـل شـيخًا مشـايخهم، سـأقبضه ليحاكـم بالسـجن مـدى الحيـاة.

- لا تتركوا فردًا بالغًا!

- هـذا عمـلي وسـترى مـا أفعلـه؟ لقـد اختـارني سـعادة الصـاغ ميـلاد تـادرس بعنايـة وهـو يعـرف قسـوتي وعنفـي وجبروتي.

- هـذه القبيلـة، كـم قطعـت الطـرق ونهبـت وسـلبت وسـبت، أدِّبوهـا لعنهـا اللـه!

- أنـت يـا جـاد الـرب سـوار، كـن قريبًـا لـترى مـا سـأفعله بهـم، أنـت لا تعـرف قسـوة رجـالي، لا يفرحـون ويضحكـون إلَّا حينـما يـرون القتـلى والجرحـى والنـيران والدخـان. كـم أدبنـا وقمعنـا كثـيرًا مـن القبائـل المتمـردة عـلى الدولـة، جعلناهـم يبكـون بـكاء النسـاء، سـتعطف عليهـم أنـت وسـتقول هـذا يكفـي، أرحموهـم.

- واللـه لـن أقـول قتلـوا مـن بنـي حامـدي أكـثر مـن مائتـي شـاب، ثأرنـا معهـم لـن ينتهـي، ابطشـوا بهـم دمروهـم - زلزلوهـم أحرقوهـم.

كادت الشـمس تدلـك للمغيـب عـشر سـاعات مـن الهرولـة التـي أنهكـت الجـمال الجائعـة، ظـمأ وجـوع وإرهـاق، تناولنـا التمـر والخبـز الجـاف ونحـن عـلى ظهـور الجـمال، ورغـم ذلـك الجـوع يلسـع ويلـدغ،

فكرنا في البحث عن مورد لكي تشرب الإبل، دخلنا ديار السلاطين وهي قبيلة صغيرة، ها هم يجتمعون، وليمة عرس أو ختان، القيان يغردن، أمرنا الصول بالنزول على المائدة رغم أنوف أصحابها، الجمال تحاصر الحلقات، بخلاء لم يقولوا تفضلوا، المائدة تتمدد على الأسمطة، وثب الجنود وهجموا على الطعام بعد إطلاق نار كثيف. أردينا ثلاثة قتلى ففرَّ الباقون جرحوا ثلاثة جنود. هجمنا على الطعام كالنسور كالذئاب الجائعة، لم نأكل إلَّا اللحم.

ارتفعت عقيرة النساء بالبكاء، تحوَّل العرس إلى مأتم، نواح وعويل، قتلى وجرحى، أكلنا كل الثور، شربنا المريسة كلها، ركبنا جمالنا وانطلقنا والإبل تخبُّ خبًّا، دغل كثيف، ثم شجيرات تنتثر على السفوح الغبراء والقمم على مناكب الجبل المزهو، وفي الوديان تتكاثف الأشجار وتتضخم، تتفرع مزهرة، رمال وصخور، طريق وعر شائك حصى ورمل وصخور مدببة مسننة مرجانية، الجمال تهرول مسرورة بعد أن أكلت وشربت في أثناء التهامنا ثور الوليمة، طفقت تركض ونحن نلهب ظهورها بالعصي النارية. دفعنا الناقة (الحايل) لتتقدَّم، والجمال تحاول اللحاق بمؤخرتها لشمها والالتحام بها لتلقيحها رغم أنفها، قبل المغيب لا بدَّ أن نشتت شمل بني أسد، جاد الرب سوار، يصرُّ على تقدُّم الموكب رغم زجري له. العرب يحبون الزعامة، أن يكونوا في المقدمة في كل زمان ومكان. هل هو قائدنا هذا النخَّاسي؟ يا له من وقح! الأبيض الوحيد كالدرة وسطنا، أو كحمامة بيضاء وسط غربان. طفق يشدو بصوت رخيم ينم عن سعادة غامرة، فجأة هتف ملء فيه وبتشنَّج وتوتُّر:

- الله أكبر تلك خيام بني أسد، استعدوا للقتال، خيمة الشيخ مسعود وسط الحيِّ.

فرحنـا فرحًـا شـديدًا لحسـم العـرب، لنرجـع بُعيـد الفجـر لكسـلا، بعـد أن نبيدهـم ونحرقهـم.

16

وقف المرشد جاد الرب سوار فجأة، جذب بقوة رسن بعيره حتى كاد يلتحم رأس الجمل بالسرج (الحوية)، أشار بسبابته لمجوعة خيام وسط التلال الصغيرة، صفراء وبيضاء وسوداء، إذًا وصلنا، لم يتحرَّك قيد أنملة، ودعنا وتمنى لنا النجاح في مهمتنا. انطلق وجمله البشاري يركض ركضًا، تابعته. توقَّف تحت ظل شُجيرات متواريًا، لا بدَّ أن الفضول يئزُّه أزًّا. ليستمتع بمشاهدة نواح وعويل الثاكلات النادبات النائحات. تحفزنا للهجوم، أمرنا الصول بول أدوك كير، أن نشكل مثلثات قتالية، عمَّرنا وصوَّبنا بنادقنا، أمر بالبداية الصارمة، وقتل عشرين شخصًا على الأقل، لزرع الرعب فيهم، لكي يستسلموا دون مقاومة. لا بدَّ من عنصر المباغتة والمفاجأة لشل قواهم، ران الغسق وقبيل حلول الظلام اكتسحنا الحي كالإعصار المدمِّر. جحافل منطلقة لا همَّ لهم غير القتل، من حسن حظنا كانوا يرقصون ويعرضون والقيان يسجعن والطبل يهدر بأغاني الحماس، وثب إلى أعلى بسيوف وعصي غليظة، إنها رقصة الصقرية، كل الحيُّ في هذه الساحة، حفل زواج أو ختان، كانوا في نشوة تبلغ درجة الثمالة، الدلوكة تقرعها قيانهم بأصواتهنَّ المبحوحة المرتعشة، ولكن الشعر قوي يهزُّ الوجدان، لم يرونا - العتمة ساعدتنا بدثاراتها ووشاحاتها، ظنوا الجمال جمالهم، وفجأة أطلقنا النار على الراقصين، فرَّت النساء والرجال هربوا لإحضار أسلحتهم؛ اعتبروا أنَّ بني حامد يطلبون ثأرهم، عشرة رجال قتلى وسبعة جرحى. حملوا أسلحتهم البيضاء وصالوا وكرُّوا، جرحوا ثلاثة أسقطناهم جميعًا، عشرات القتلى والجرحى استسلموا بعد أن يئسوا من المقاومة غير المجدية، قبضنا على الأسرى قيَّدناهم وفي مقدمتهم الشيح محمَّد حامد

عثمان دين، وهو زعيم وسيم صلب، بكى من شدة الغبن وهو يرنو إلى رجاله الأسرى والقتلى والجرحى، وهو حسير أسير سجين مهزوم، عرفوا أننا الحكومة، فقال بوضوح مخففًا الألم للأسرى:

- لا أحد يستطيع أن يهزم الحكومة المصرية. حاول الملك نمر ففشل، رجالي أخطئوا في قتل الباشبوزق. لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي القدير، حسبنا الله ونعم الوكيل.

بقية جنودنا انتثروا وانتشروا لتمشيط الحي، ومطاردة الفارين، بكاء نساء، استغاثة نواح وصياح أطفال، قتلت عشرة أشخاص في أثناء المعركة، وكنت أتمنى أن أقتل مائة، كنا ثلاثة، طلب منَّا الصول بول أدوك كير أن نحرس الأسرى المربوطين، بدأت أضربهم ضربًا مبرحًا بالسوط حتى سال الدم، لم يجزعوا كانوا شجعانًا، فكرت في أن أصفيهم ولكن الصول حذرني، لأن الشيخ محمَّد حامد دين شيخ بني أسد يعتبر أكبر غنيمة للدولة، طلب الأسرى الماء، قلت لهم: سيقتلكم العطش، ستمشون بأرجلكم من هنا إلى سجن كسلا، حيث ستحاكمون بالإعدام شنقًا حتى الموت، لما ارتكبتم من جرائم بشعة ضد رجال الدولة، الويل لكم!

الأسرى في خزي وهم يسمعون نواح المستغيثات لا بدَّ أن رجالنا اعتدوا على عفافهنَّ وشرفهنَّ المزعوم كما يزعم العرب، المرأة خُلِقت ليجامعها الرجل، ولا يوجد جماع حلال وجماع حرام كما يزعم العرب، فكَّرت في الانتقام من الأسرى، هؤلاء هم رقيقهم وعددهم عشرين لم نربطهم ولم نهينهم، شبعوا من المهانة في أثناء العبودية الإجبارية، كلهم اللون نفسه والشبه والسلالة أنفسهما، لا بدَّ أنهم من قريتنا، فقدوا لغتهم، يتحدثون بلهجة البدو العربية، يعجزون عن نطق بعض الحروف (الألف والعين والذال والخاء) نسوا الرطانة، أُستعبِدوا

واُستعرِبوا، هم فرحون بسيطرة رجال سود مثلهم على مصائر سادتهم، لأوَّل مرة يرون الشيخ وكل الوجهاء مربوطين بالحبال داخل حظيرة أغنام، السرور ظاهر على وجوههم. لم يقاوموا، قلوبهم معنا، وسيوفهم مع بني أسد! إنهم من سلالة حام السوداء، التي استعبدها الناس بسبب ألوانهم وضعفهم، ترك التاريخ القاسي في جوفي المشوَّه الأحقاد، بدأت أضرب بقوة على ظهر الشيخ المربوط، لم يجزع ولم تطرف له عين، استسلم، تساءل في غيظ وغضب:

- لماذا تضربني يا بني؟ هل أنا قاتل والدك؟ هذا ليس من صفات الرجال، أتضرب أسيرًا مربوطًا؟ يا للعار!

- أنت لا تستأهل إلَّا الضرب يا شيخ الكلاب، يلعن الرب صليبك! سأدوسك يا حشرة، شيخ؟ أنت مجرد مجرم، أتقتل ضيوفك؟

- اتقِ الله!

- لا أعرف الله؟ أنا وثني! ربي هو دينقديت!

- الله موجود في كل مكان، يا كافر ويا فاجر، سيدخلك النار يوم القيامة، قتلنا الباشبوزق؛ لأنهم اغتصبوا فتاتين.

- اليوم سنغتصب كل النساء، بمن فيهن بناتك، كل رجالك أسرى. ألا تسمع غنج بنات قبيلتك؟

- بل صراخ عفيفات شريفات، اللعنة على كل عبيد الدنيا! إذا قُدِّر لنا أن نعيش سننتقم، سنأخذ حقنا بيدنا، وسينتقم الله من الظالم.

- نحن لا نخاف الله ولا نعرفه، نحن وثنيون، سترى ما يحل بك الآن، من سينقذك من سطوتي؟ أتعتقد أنَّ هناك من يمسك يدي؟ ويمنعني من ذلك؟ أتظن ذلك يا ملعون؟

- إن لم يكن الآن ففي يوم القيامة، لماذا لا تسلمون، فتسلمون من العذاب؟ إذا أسلمتم سيغفر الله لكم فعلكم هذا.

- لن نسلم، لا نريد غفرانًا، أسلم أنت ليغفر لك ربك، اتركونا للكفر، لن نسلم، سننتقم من كل فرد استعبد السود. كم عدد عبديك؟

- عشرة.

- لعنة الشيطان عليك وعلى والديك.

بدأت أضربه ضربًا شديدًا حتى سال الدم من ظهره، كان شجاعًا، لم يجزع، ولم يئن، سمعته يقول:

- اللهم لا تسلِّط هذا العبد على غيري. اجعلني آخر ضحاياه.

كلمة عبد أثارتني استفزتني، لطمته لكمته حتى سقط، سال الدم من فمه، دسته بحذائي مشيت على صدره وبطنه، ثم قلبته ومشيت على ظهره ورأسه وخده وعنقه، ضربته مائة سوط حتى تمزَّق ثوبه، سال الدم، لم تطرف له عين، ردد في غيظ مكتوم ومكبوت:

- أنت كلب ابن كلب، من سلالة الرقيق، لعنة الله عليكم، العبيد أنجاس مناكيد، جبناء خبثاء.

حذرني أحد الجنود من العنف المفرط، ربما يموت هذا الأعرابي، كففت عن الضرب، أغمض عينيه، دخل في شبه غيبوبة، رشقته بالماء، استيقظ وهو يئن ويئن. لن أمسَّه بأذى فهو هزيل الجسد صنديد، ولول الليل بمواويله الغامضة الغاضبة الممتزجة بأنَّات وصرخات المغتصبات والثواكل والأرامل، نار ودخان ورماد، القتلى أكثر من سبعين ومثلهم الأسرى، فقدنا ثلاثة جنود، هم لوال ويل وكير بالغدر بالطعن

بالرمـاح، أمرهـم الصـول بدفـن موتانـا، أمَّـا مواتهـم سـتأكلها النسـور إذا لم تُدفَـن، قررنـا أخـذ الوجهـاء، وعددهـم عشريـن، ثـم سـتة مـن الشـيوخ وكبيرهـم الـذي علمهـم السـحر، شـيخ الشـيوخ صاحـب الظهـر المجـروح – المدعـو محمّـد حامـد عثـمان ديـن - لم ننـم طـوال الليـل، أمـر قائدنـا عبيـد بنـي أسـد بذبـح عـشرة خرفـان مـن الغنيمـة، شـبعنا لحـمًا، أوقدنـا نـارًا في جـزع شـجرة منقعـرة، تسـامى لهبهـا الأرجـواني، وهـو يبـدد دياجـير الدجـى، التهمنـا اللحـم لدرجـة الشـبع، والأسرى جوعـى عطـشى، ينامـون عـلى الحـصى الصلـب القـاسي. ظـلام دامـس ران وتخـثَّر عـلى الهضـاب والجبـال والوديـان، إننـا لنتـوق للفجـر قبـل أن تتحلـل الجثـث، العـدد الـذي سـنصطحبه إلى سـجن كسـلا ليس كبـيرًا، سـيُطلَق سراح معظـم الأسرى ليدفنـوا موتاهـم ليلعقـوا جراحهـم، تذكـرت قـول الشـاعر ربمـا المتنبـي في مـدح سـيف الدولـة الحمـداني أمـير حلـب:

فمساهم وبسطهم حرير فصبحهم وبسطهم تراب

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

هكـذا كنـا كسـيف الدولـة الحمـداني أمـير حلـب، لقـد أدَّبنـا بنـي أسـد، ولقنَّاهـم درسًـا لـن ينسـوه، اقتدنـا معنـا الغنائـم التـي بلغـت مئـة بعـير ومثلهـا مـن الضـأن، بجانـب أنَّ زمـلائي سرقـوا ذهبًـا وفضـةً، انتزعوهـا مـن أجسـاد الغـواني الجميـلات بعـد اغتصابهـن، جيـل مـن السـود سـينجبنه بعد بضعـة شـهور، كلهـم كعنـتر ابـن شـداد العبـسي في اللـون. لـن يفتخـروا بعـد اليـوم بالنقـاء العرقـي، لوثناهـا بالـدم الحامـي الزنجـي الـذي يكرهونـه. الحرائـر الجميـلات سـينجبن عبيـدًا سـودًا!

17

مـا زالـت أزمـة المرتبـات لم تـراوح مكانهـا، بعـد أن حسـمنا البـدو أعطونـا راتـب شـهرين بعـد بيـع الغنائـم مـن السـوام والأغنـام، راتـب شـهرين لم يـفِ بمتطلبـات وحاجـات الجنـود المتذمريـن المتمردين، سـتة شـهور أخـرى، ووعـد مديـر المديريـة وقائـد الحاميـة كوعـد عرقـوب، جـدي شـجعنا عـلى الثـورة، ولكـن بالـضرورة ضبـط النفـس وعـدم إراقـة الدمـاء، اعتقـال تحفظـي كابتـزاز، اعتقـال لمديـر المديريـة وقائـد الحاميـة، بقيـة الموظفـين المدنيـين لـن نعتقلهـم، هكـذا خطَّـط جـدي بعنايـة للثـورة، ثـورة مـن أجـل الحقـوق، الأجـور فقـط، بعـد الاعتقـال سـيتحرَّك الحكمـدار في الخرطـوم وسـيتصل بالقاهـرة وسـيتم توفـير المرتبـات بسرعـة مذهلـة، هكذا كان ينظـر جـدي إلى الأمـر بجديـة، هـذا هـو الشـهر الثامـن ولا أمـل، ضاقت الأرض بمـا رحبـت، جـدي كـوال وبَّـخ الذيـن لجـأوا للسرقـة والابتـزاز بسـبب الجـوع، اجتماعـات سريـة بلغتنـا الأصليـة لغـة قبيلتنـا لـكي لا يتـسرَّب النبـأ، المخابـرات لهـا غواصـات مـن أجـل التجسُّـس علينـا، تعطـي مـالًا مقابـل المعلومـات، غواصتنـا قالـت: القائـد متخـوِّف مـن التمـرد بعـد الضائقـة المعيشـية التـي عاشـها الجنـود بسـبب عجـز الدولـة عـن دفـع الرواتـب. لم ينقلـوا أي معلومـة طمأنـوه، لذلـك تبـددت هواجسـه ووساوسـه. آخـر اجتـماع كان مـع كل صـف ضبـاط الحاميـة السـودانية، لم يظهـروا لـه أي غضـب أو تذمُّـر! الخطـة، أو سـاعة الصفـر تبـدأ باليـوم الـذي يكـون فيـه أفـراد الحراسـة كلهـم مـن عشـيرتنا، لا يكـون هنـاك أي جنـدي مـصري أو تـركي، في ذاك اليـوم سـتُنفَّذ الثـورة، والتـي سـتبدأ باعتقـال قائـد الحاميـة وكل ضباطـه مـن البيـض، ثـم اعتقـال مديـر المديريـة القائمقـام، ثـم مديـر الشرطـة، يجـب حجزهـم وسـجنهم في سـجن الجنـود جـوار مخـزن الذخـيرة في رئاسـة الحاميـة.

اكتملت الخطة التي وضعها جدي كوال، وأنا قرنق - سأشترك، طلبت أن أشارك في اعتقال قائد الحامية أو مدير المديرية، لا بدَّ أن أشترك في أخطر العمليات. صممنا، حددنا ساعة الصفر، يوم الخميس اليوم الذي ينغمس فيه كل الضباط في اللهو خمر ورقص وغيد حسان وغناء مع الغواني، على كل أفراد الكتيبة أن يلبوا النداء عند الواحدة ليلًا، نمشي بالزي الرسمي - المِيري - نستغل الظلام لنستشرف الكتيبة، يُفتَح مخزن السلاح، نتسلح ونتحرك في شكل مجموعات كل مجموعة يقودها جاويش، على أن يظل الصول دينق كوال – قائدًا للعملية، عربة حنطور يجرها حصانان ستتحرك إلى بيت مدير المديرية ليُعتقَل، أمَّا ميس الحامية الذي يسكنه الضابط فقريب من الحامية التي في تماس مع منزل قائد الحامية، جاء الخميس مشرقًا، وعلى عجل دلكت الشمس للمغيب وعسجدها الهلامي ينسكب ويتدفق على مغاني وأكواخ كسلا الجميلة وأديمها يتمدد كبساط زبرجدي، عدد الجنود الأجانب مائة. كلهم يسبحون في بحيرات المجون والفسوق. ليالٍ حمراء وغانيات مغنيات. الخميس أجمل أيَّامهم، لديهم النقود وما أكثر المواخير! رأي جدي كوال ألا نعتقل الجنود المصريين، وإذا لا بدَّ فصف الضباط، قررنا اعتقال صف الضباط لتأمين حركتنا، وصية جدي بحسم وقمع أيِّ تفلت لكيلا تخفق الحركة المطلبية. اشترط أن توكل لي أصعب المهام، قالوا لي اعتقل مدير المديرية. وافقت وكم كنت أتوق إلى اعتقال قائد الحامية الصاغ ميلاد حنا تادرس، وعند منتصف الليل وصلنا الميدان الشرقي. حركة نشطة داخل الحامية، أمرنا الصول دينق كير بالتوجه إلى مخزن الذخيرة الذي كان يحرسه بيور كرشوم، من عترتنا، تهافتنا كخلية النحل، كل جندي قد تنكب واعتمر بندقيته، بعد شحنها بالذخيرة، مئات وقفوا مسلحين، استلمت العربة الحنطور التي يجرها حصانان، مع ستة جنود كلهم أقدم مني، ولكن الصول

دينـق قـال لهـم يقودكـم قرنـق، اسـتشرفنا المنـزل المنيـف والليـل قـد سـدر في غيِّـه وأطبـق أجفانـه الكثـة عـلى مدينـة كسـلا الغانيـة النائمـة، حارسـان أسـودان كقطـع الليـل البهيـم، سرعـان مـا انسـحبا؛ ليـتركا لنـا فرصـة افـتراس الفريسـة، السـاعة الآن الواحـة بعـد منتصـف الليـل، عطـر صـارخ ووسوسـة وغنـج، ليـس مـن الأدب أن نباغتـه، لا بـدَّ أن ننـذره، ربما نجـده في حالـة محرجـة، ولكننـي خفـت أن يسـتعمل مسدسـه، زوجتـه وأولاده بالإسـكندرية، يعيـش أعـزب مـع محظيتـه وخليلتـه وصفيتـه سـوزان نيكـولا الحبشـية الخلاسـيَّة، أبوهـا إيطـالي وأمُّهـا حبشـية، هـما وسـط الحديقـة على سريـر واحـد في الهـواء الطلـق، هـما مسـتغرقان في عناقهـما، صفَّقـت بيـدي لـكي أنبِّههـما. التفـت، رفـع رأسـه كـما الأفعـوان، زمجـر في غيـظ وغضـب:

- مـاذا تريـد يـا أسـود، مكانـك، أتدخـل في هـذه اللحظـة؟ يـا ابـن الكلـب يـا ابـن العبـد! اللعنـة عـلى ديـن الـكلاب!

- الأمر هام، البس ملابسك!

- يلعـن اللـه دينـك يـا وثنـي! يـا عبـد يـا قليـل الأدب، أنجـاس مناكيـد! أنـت جنـدي، سـأطردك مـن الخدمـة، سـأخبر الصـاغ ميـلاد بفعلتك هـذه.

- الأمـر هـام وخطـر، كسـلا تتعـرض لهجـوم مـن قـوى مجهولـة. البـدو الشـياطين، لسـت أدري، طلـب منـي سـيادة الصـاغ ميلاد حنـا تادرس، أن أيقظـك، هيـا معـي، العربـة جاهـزة، ألم تسـمع صهيـل الحصانـين.

رطنـت سـوزان بلغـة الأحبـاش لم أفهمهـا، يبـدو أنهـا انفعلـت وغضبـت، لاقتحامـي سـمرهما، امتعضـت، اكفهـرَّت، عـلا صوتهـا الأغـن.

- مـن أنـت؟ اذهـب سـأحضر بعـد ربـع سـاعة، انتظـرني في الديـوان ريثما ألبس ملابسي العسـكرية، ألم تجد الحارسـين، مسـعود ومسرور؟ تحرَّك!

- لا لن أذهب إلَّا وأنت معي؟

- يـا كلـب يـا ملعـون يـا ابـن القحبـة! أمُّـك! أتتحـدى أتتجـاسر أتخاطبنـي بمثـل هـذه الوقاحـة؟ سـأقوم لأدوسـك، أيـن حـرسي، يـا مسـعود ويـا مـسرور، اقبضـا عـلى هـذا الكلـب العبـد الآبـق.

- قـم وإلَّا انتزعتـك مـن الفـراش انتزاعًـا، سـتقوم رغـم أنفك، سـأنفِّذ أمـر سـيادة الصـاغ مهـما كلفنـي الأمـر مـن تضحيات!

- أتقـول مثـل هـذا الـكلام لمديـر، أنـا المديـر القائمقـام. أنـا أعـلى مرتبـة مـن تـادرس، الآن يـا حـمار يـا ابـن الحـمار، يـا عبـد العبيـد! يـا حـشرة! سـترى مـا يحـلُّ بـك!

وثـب بغضـب خطـف قطعـة قـماش كالبشـكير أو الطرحـة لفهـا حـول وسـطه، غطَّـى منتصفـه جيـدًا، جـاءني مهـرولًا مزمجـرًا، أراد أن يضربنـي أو يدهسـني، وقبـل أن يمـدَّ يـده أو يلتحـم بي أنعمـت النظر في جسـده المترهل المكتنـز كالخنزيـر، أبطـن، أصلـع يترجـرج جسـده ويلمـع ويترنـح مـن شعشـعة الخمـر، لونـه أبيـض بحمـره غامقـة. رفـع يـده ليلطمنـي ليلكمني، سرعـان مـا وجهـت فوهـة البندقيـة لصـدره، وهزمـت بقـوة وغلظـة:

- مكانك، ثابت لا تتحرك قيد أنملة! حذارٍ فإن النمر لا يلاعب!

وقـف كتمثـال، مرتبـكًا متلعثـمًا مرتعبًـا، سـقط البشـكير، أراه عاريًـا كـما ولدتـه أمُّـه، طـارت السـكرة، سرعـان مـا ظهـر زمـلائي الأربعـة الذيـن كانـوا يختبئـون خلـف أشـجار الحديقـة الكثيفـة، أسـقط في يـده، استسـلم قـال متوسـلًا متضرعًـا متوجسًـا:

- دعـوني ألبـس ملابـسي! مـن أنتـم يـا أولادي؟ مـاذا تريـدون؟ أرجوكـم اتركـوني، ألبـس ملابـسي؟ مـاذا حـدث؟

جـرت سـوزان عاريـة إلى غرفـة نومـه، تحـرَّك أحـد زمـلائي، وخطـف البيجامـة التـي كانـت تقبـع عـلى كـرسي جـوار السريـر، لبـس بسرعـة وجسـده يرتعـد، صوتـه متهـدج، كان يـردد؟ حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل.

وعـلى عجـل دفعنـاه للعربـة، ركـب واجـمًا مطرقًـا حائـرًا. والعربـة تنطلـق نحـو رئاسـة الحاميـة، الحصانـان الجامحـان ينطلقـان يرمحـان الأرض المعـذاء. ردَّد بصـوت خافـت مرعـوب مهـزوز:

- قولـوا لي يـا أبنـائي، مـا الـذي حـدث؟ أتعتقلوننـي بغـير أسـباب؟ أنـا حاكـم مديريـة كسـلا.

لم نـرد عـلى تسـاؤلاته، لقـد أسـاء إلينـا بألفـاظ نابيـة، ألفـاظ عنصريـة، وسـب لـلأم بعبـارات سـوقية تافهـة ينـدى لهـا الجبـين. لـن نقسـو عليـه، إنَّـه سـكران، أدخلنـاه السـجن وجـد الصـاغ ميـلاد سـكران حائـرًا خائـرًا، رابه الأمـر، هـو نفسـه لا يعـرف أسـباب الاعتقـال، المسـاعد دينـق كير سـيخبرهم بأهـداف الحركـة، وبعـد سـاعة قبضنـا عـلى مديـر المخابـرات الـذي كان ينـام مـع عشـيقته الحبشـية، ثـم القـاضي ومديـر الشرطـة، وكل صـف الضبـاط، الجنـود صرفناهـم وقلنـا لهـم كونـوا في منازلكـم لا تأتـوا لرئاسـة الكتيبـة، سرعـان مـا نفـذوا، قفلـوا عائديـن بغـير تـردد، رأوا أنَّ هـذه الحركـة المنظمـة خطـيرة، الآن المدينـة كلهـا بيـد الجنـود السـود، المسـاعد دينـق كـير غـدا الرجـل الأوَّل وكلنـا نأتمـر بأمـره، وكان هـو يتلقَّـى الأوامـر مـن جـدي كـوال - شمسـون الجبـار.

التمـرد سـارت بـه الركبـان، كل المدينـة حائـرة كيـف تمكَّـن الجنـود السـود مـن الاسـتيلاء عـلى المدينـة مـاذا يريـدون، لم يصـدِّق النـاس بـأنَّ المديـر وقائـد الحاميـة والقـاضي ومديـر المخابـرات في السـجن، حـاول الأعيـان الاقـتراب مـن رئاسـة الحاميـة، ولكـن جنودنـا الأشـاوس طردوهـم.

18

جـدي كـوال القائـد الفعـلي للثـورة أمرنـا بتحصـين المدينـة المداخـل المخـارج، حملنـا مدفعـين يجرهـما جمـل، ووضعناهـما عنـد مدخـل المدينـة مـع تحصينـات جيـدة، مـع جـولات تـراب، الحراسـة مكونـة مـن ثلاثـين جنديًّـا مسـلحين ببنـادق رمنجتـون ذات الماسـورة الطويلـة وطبنجـات، وضعنـا حراسـة مشـددة عـلى كل مرافـق الدولـة، مصلحـة الزراعـة والصحـة وغيرهـما، الجنـود ينتـشرون في أرجـاء المدينـة تحسـبًا لأي طـارئ، اسـتتب الأمـن، المواطنـون مندهشـون لمـا جـرى، الأسـواق تعمـل كعادتهـا، كل حديـث المدينـة لمـاذا فعـل الجنـود هـذه الثـورة؟ ومـاذا سـيصنعون بالسـجناء الكبـار بعـد نجـاح الثـورة؟ الحكومـة في الخرطـوم مـاذا سـيكون رد فعلهـا؟ هـل سـتترك المدينـة للسـود ليحكموهـا؟ كل النـاس حائـرون! مـا يهمنـا رواتبنـا، ولا نريـد غيرهـا. نحـن جنـود مخلصـون للحكومـة المصريـة التـي أسـاءت إلينـا كيـف نعيـش؟ لقـد اضطررنـا إلى الثـورة مـن أجـل انتـزاع حقوقنـا السـليبة، كلفنـي المسـاعد دينـق كـير بالإمـدادات اللوجسـتية، بمـد جنـود الحراسـة بالطعـام والـشراب، بجانـب طعـام السـجناء مـن الوجهـاء، اعتمـدت عـلى عشريـن جنديًّـا في الخدمـة وعشريـن طباخًـا، كلهـم جمعتهـم في بيـت الصـاغ ميـلاد حنـا تـادرس قائـد الحاميـة المعتقـل، سـاعدني طباخـون نسـاءً ورجـالًا، فيهـم عـشرة مـن طباخـي كبـار الموظفـين، فتحـت المخـازن التـي تخـص مـؤن الضابـط والجنـود الأتـراك والمصريـين، هـي مكتظـة بالمـؤن أرز وعـدس فـول، جـبن وعسـل وخـل، وبصـل وسـمن وزيـت وبهـارات، وخبـز جـاف مـصري، حظـيرة الأغنـام وجـدت فيهـا عـشرة أكبـاش وثلاثـة ثـيران وخمسـة تيـوس، وبعيريـن، بدأنـا نذبـح كل يـوم، شـبع جنودنـا، الجنـود المصريـون كنـا ندعوهـم لتنـاول الوجبـات، شرحنـا لهـم

نـوع الحركـة، لم يعلقـوا، لا يمكنهـم أن يقاومـوا استسـلموا صاغريـن. وبعـد أسـبوع أطلقنـا سراح صـف الضبـاط الذيـن لم يحتجـوا، بـل بعضهـم قـال مـن حقكـم أن تثـوروا، سـتة شـهور بغـير رواتـب؟ الحكمـدار في الخرطـوم كرئيـس للدولـة اهتـم بالأمـر، وقـال سـيحل المعضلـة في غضـون أسـبوع، أخـبر الخديـوي بتمـرُّد الكتيبـة، عرفـوا الأسـباب الماليـة، ولكـن سـمعنا بـأنَّ الحكمـدار سـيعاقب الذيـن قـادوا الحركـة، وبعـد أسـبوع هاجمتنـا قـوة كبـيرة اقتحمـت المدينـة هزمونـا شر هزيمـة، فقدنـا خمسـين، اعتقلونـا، وقمعونـا، ثـم أطلقـوا سراحنـا، بعـد أن عـززوا قبضتهـم عـلى المدينـة. أصـدر الحاكـم العـام عفـوًا عنـا، هـو لا يريـد أن يفقدنـا، ظهـرت قافلـة الجـمال وهـي محملـة بالسـلع الغذائيـة والأمـوال، جـاء محاسـبون مـع الحملـة، وسرعـان مـا شرعـوا في صرف الرواتـب كلهـا، تسـلمناها. كل الجنـود صرفـوا حقوقهـم مسروريـن، سـمحوا لنـا بدفـن موتانـا، وبعـد ذهـاب البعثـة إلى الخرطـوم، ألقـى ميـلاد حنـا تـادرس الصـاغ القبـض عـلى كل صـف الضبـاط الذيـن قـادوا التمـرُّد، وقُدِّمـوا لمحاكـم عسـكرية إيجازيـة، حكمـت بالسـجن مـدة عشريـن عامًـا عـلى كل صـف الضبـاط المتآمريـن، أمَّـا الصـول دينـق كـير - المـدون في سـجلات الحاميـة بحسـن أحمـد حسـن - فقـد حكـم عليـه بالإعـدام رميًـا بالرصـاص، ولكننـا كـرد فعـل، نفذنـا الخطـة السـابقة نفسـها، تمرَّدنـا، لم نعتقـل أحـدًا، كسرنـا المخـزن وتسـلمنا أسـلحتنا واعتصمنـا بالميـدان الشرقـي، مطلبنـا هـو إلغـاء الأحـكام العسـكرية التعسـفية، خـاف قائـد الحاميـة مـن هـذا التمـرد، فألغـى أحـكام المحاكـم العسـكرية، وأطلـق سراح السـجناء مـن صـف الضبـاط بغـير قيـد أو شرط، ومـن ضمنهـم، دينـق كـير أو حسـن أحمـد حسـن، الـذي ظللنـا ننظـر إليـه كبطـل أسـود.

مـن نتائـج تلـك الثـورة؛ فـزع ورعـب الدولـة مـن الجنـود السـود، شـعرت بأنهـم قـوة لا يسـتهان بهـا، فهـم ليسـوا مـن سـلالة الرقيـق الخانعـين الخاضعـين، يمكـن اسـتغلالهم لحسـم أي تفلُّـت أو تمـرُّد دون

تقاعس، ولكن بالمقابل يمثِّلون خطرًا. فهم سيف ذو حدين، اغتيال مدير المديرية وقائد الحامية السابق والقاضي دخلت في التقييم الجديد، بدا المنظر مختلفًا، حذروا كل الضباط وصف الضباط المصريين من التعالي والكبر والنظرة الدونية العنصرية للسود! كان الجندي المصري لا يعبأ لأي صف ضابط أسود، لا يقف عنده باحترام، وفي الخرطوم رفض جندي أن يحيي ضابطًا سودانيًّا جرت ترقيته، وكثرت المخالفات، كلها تعكس تعالي المستعمر، ولكن بعد تلك الأحداث طبَّق القانون العسكري على الجميع، صف الضابط السوداني غدا مهابًا من الجنود المصريين، وما عاد الضبَّاط المصريون يطالبون الجنود بغسل وكي ملابسهم، زيدت الرواتب، الذرة الذي كان يوزَّع عشوائيًّا، صار توزيعه راتبًا وبتوقيع المتسلم. بدأت علاقة جيدة وجديدة ما بين كل الجنود بصرف النظر عن الجنسيات، اندماج كامل وانضباط جميل. أعادت الثورة الحق المغموط والمسلوب، وأعادت الهيبة للجندي السوداني، الذي كان يعتبر ظلًّا للجندي المصري، وهو طوع بنانه ورهن إشارته، الجندي المصري كان يأمر الجاويش السوداني بل الصول السوداني، هم فوق القانون العسكري، ولكنهم الآن أصبحوا سواسية معنا. انتهى ذاك العهد بعد أن لدغنا الحكومة في يدها، لدغة سامة، وكدنا نلتهمها.

19

عبق وعرق يتناغمان، خمر زبدها رابٍ على البرمتين، والكأس يطفو ويسبح كزورق، هات الكأس يا حفيدي، عسلية ومريسة، لكي أحكي لك بالتفصيل ما جرى. كم وعدتك مئات المرات، اليوم لا بدَّ أن تسمع القصة الحزينة التي جرت لعشيرتك غير الرق في الداخل، مأساة، هل نحن مرتزقة؟ الويل للحكمدار! الموت للخديوي، تبدأ القصة من ملكال أوَّل مدينة في نطاق قبيلتنا الكبيرة. تجنَّدت وعمري سبعة عشر عامًا، بعد عام من بلوغي، ما الذي جعل الأتراك والمصريين يميلون إليَّ ألبياض لوني؟ أم لطولي الفارع وبنيتي القوية؟ قالوا مرحبًا بالزنجي الأبيض – أنت كالغراب الأبيض. لم يعجبني مزاحهم. انخرطت في التدريب بهمة عالية، استوعبت العلوم العسكرية، في الطابور كنت المتألِّق دائمًا. الأفضل انضباطًا. وفي الرماية كنت الأوَّل، صرت أفضل جندي في كتيبة البازنجر، كنت أراهن على صيد الطائر وهو طائر في السماء، عشرات المرات، حتى إنَّ أحد المصريين واسمه وجدي مجدي قال لي: أنت من أحفاد رماة الحدق، عرفت بعد ذلك، بأن هذا اللقب أطلقه عبد الله ابن أبي السَّرح على النوبة حينما فقأوا بسهامهم التي لا تطيش عيون جيشه. لديَّ ذكاء حاد في استيعاب العلوم العسكرية، كنت أوَّل دفعتي حينما تخرَّجت في معسكر التدريب، بعد عام نُقِلَت كتيبتنا إلى كسلا، وبعد أربعة أعوام ترقيت مرتين، صرتُ أمباشيًّا أصيلًا، بشريطين يزينان ملابسي العسكرية، ثم نُقِلَت كتيبتنا إلى الخرطوم و كنت ضمنها، ضاعفوا لنا جرعات التدريب، تدربت على كل أنواع الأسلحة حتى المدافع، جمعوا خيرة الجنود من كل الحاميات، سمونا كتيبة القيادة، منحونا زيًّا متميِّزًا زادوا رواتبنا، كل ضباطنا مصريون. أغرب شيء لفت

نظـري، رقـوا سـتة مـن صـف الضبـاط الكبـار إلى ضبـاط، بعـد كورسـات مكثفـة، لأوَّل مـرة أرى أسـودَ ضابطًـا، في الأمـر شيء، حسَّـنوا غذاءنـا أعطونـا رعايـة وعنايـة خاصـة، عـلاج ترفيـه رحـلات مسـكن مـأكل ومـشرب.

زارنـا الحكمـدار في عنابرنـا، وقـدَّم لنـا الهدايـا والحوافـز، ووعدنـا برحلـة ترفيهيـة إلى مـصر، فرحنـا فرحًـا شـديدًا مـن منَّـا لا يتـوق إلى رؤيـة مـصر أم الدنيـا، الأهرامـات القناطـر والبحـر الأبيـض المتوسـط والأحمـر، هـذه هـي المواقـع السـياحية التـي ذكرهـا لنـا المصريـون الجنـود بالغـوا في الوصـف السـاحر، إنهـا جنـة اللـه في أرضـه، إننـا نرنـو ونصبـو إلى ذلـك اليـوم، أخـشى أن يكـون كوعـد عرقـوب، كل فـرد يتلهـف إلى ذاك الوعـد، أخـشى أن تكـون كذبـةً، القصـد منهـا تحفيزنـا للتفـاني في التدريـب. ولكـن الضبـاط المصريـين أكَّـدوا حتميـة الرحلـة إذا وصـل أمـر التحـرُّك للكتيبـة.

وفي ذات يـوم، وبعـد تمـام الصبـاح - والشـمس ترسـل أشـعتها الذهبيـة عـلى المعسـكر الجميـل بشـجره الغزيـر الكثيـف - خاطبنـا القائـد خورشـيد لطفـي مـروان وهـو بكبـاشي، قـال لنـا: رحلتنـا إلى مـصر سـتكون الخميـس القـادم رحلـة سـياحية، اسـتعدوا بغسـل وكي ملابسـكم، وتجهيـز حقائبكـم وكل معداتكـم، رحلـة طويلـة داخـل خميلـة جميلـة اسـمها مـصر أم الدنيـا، سـترون أبـا الهـول والأهرامـات والمسـلات والموميـاوات. وقصـور الخديـوي والقناطـر، وقنـاة السـويس. مـصر أجمـل دولـة في الدنيـا، موعدنـا الخميـس، سـيصرف لـكل جنـدي راتـب شـهرين كحافـز اسـتعدادًا للسـفر، وفَّقكـم اللـه وسـدَّد خطاكـم.

لم أنـم طـوال الليـل، انتابتني الوسـاوس والهواجس سـأرى مـصر الجميلة، أتمنَّـى أن تطـول الرحلـة السـياحية، تسـاءلت هـل تخسـر الحكومـة المصريـة أمـوالًا طائلـة مـن أجـل سـياحة لعبيـد حسـب فهمهـا، عبيـد معظمهـم جـرى صيدهـم وبيعهـم، أو تجنيدهـم إجباريًّـا كسـخرة ثـم برواتـب ضئيلـة.

مـاذا يريـدون بزيارتنـا مـصر؟ لمـاذا السـياحة؟ هـل طلبنـا ذلـك؟ أمـر غريـب، أصبـح سـفرنا مؤكَّـدًا، أمـا كان مـن الأفضـل زيـادة الرواتـب بـدلًا مـن تبديدهـا في سـياحة؟ هـل حكومتنـا المصريـة كريمـة لهـذه الدرجـة؟ أسـئلة أرَّقتنـي أرهقتنـي، طـوال الليـل تخـترق سـكون ذهنـي الخامـل ولم أجـد لهـا إجابـة. شـعرت بـأن سـفري إلى مـصر صـار حقيقـة، وكنـت أسـعد الجنـود لرؤيـة مـصر، الحاكـم العـام هـو الحكمـدار رئيـس الدولـة، كنـا عـشرة جنـود، طلبـوا منَّـا الذهـاب إلى قـصره للمسـاعدة في نظافتـه، وافقـت عـلى مضـض لـو أبديـت أيَّ شـعور عـدائي ربمـا يحرمونـني مـن السـفر. يـا للأسـف كان العمـل قـذرًا لا يليـق بـشرف الجنديـة، غسـيل ملابـس نسـائية، انتـثرت الأحـواض في المغسـل، ضيـوف مـن مـصر، عـشر بنـات شـقيقات وقريبـات زوجـة الحكمـدار، شرعنـا نغسـل ونكـوي طـوال اليـوم. أطعمونـا طعامًـا مصريًّـا لذيـذًا. البنـات الجميـلات داخل القـصر متبرجات كالفراشـات رشـيقات داخـل الحديقـة الغنـاء، حسـناوات رائعـات غانيـات، ظللنـا ننظـر ونعمـل وهـنَّ ينظـرن بدهشـة إلى ألواننـا الفاحمـة الداكنـة، ونحـن نتعجَّـب مـن بياضهـن الصـارخ. وجودهـن كاسـيات عاريـات في الحديقـة خفَّـف عنـا وطـأة العمـل المضنـي الكثيـف الثقيـل، الملابـس الداخليـة وجدنـا متعـة في غسـلها وتفحصهـا، وتخيَّلنـا الأجسـاد الناعمـة بداخلهـا كيـف تكـون! تمنيـت أن يتـم اختيـاري غـدًا للمهمـة نفسـها، تلكأنـا في إنجـاز المهمـة. تركنـا ملابـس للغـد لنعـود تـارة أخـرى. ويـا لـه مـن معسـل يقطـر شـهدًا وعطـرًا. أعطونـا حلـوى وطعامًـا شـهيًّا لم نذقـه قبـل ذلـك. شـبعنا، كان القـصر عـلى ضفـة النيـل الأزرق اليـسرى. امـرأة ضخمـة بيضـاء جميلـة، شـعرها يصـل لمنتصـف ظهرهـا ذات أرداف بيضاويـة، ووجـه مسـتدير كهالـة القمـر، تمـشي بكبريـاء مزهـوة كالطـاووس، قالـت للخـادم مرسـال:

- لاحـظ يـا مرسـال دراج نظافـة الملابـس فالعبيـد لم يتقنـوا الغسـيل؛ تسرَّعـوا؛ هـات العصـا كـما قـال جدنـا المتنبي:

لا تشترِ العبد إلَّا والعصا معه إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد

هـل تعنينـا نحـن، احمـرَّ وجههـا، رأيتهـا منفعلـة غاضبـة تـضرب الخـدم مـن الرجـال والنسـاء وهـي تـردد: مـا أسـوأ الكسـل للعبـد والأمـة، لم تصـل إلينـا، اكتفـت بزجـر عبيدهـا وكلهـم سـود مثلنـا مـن نسـلنا، عـشرة عبيـد وخمـس أمـات، لعنـة اللـه عـلى سـوزان أبـو الفـوارس، زوجـة الحكمـدار، متبرجـة تدخـن بنهـم بطنهـا الضخمـة مقـبرة للطيـور والحيوانـات، قلـت هـذه (الحلبيـة) إذا تجـاسرت وضربتنـي سـأضربها سـألعنها، لأنهـا قاسـية شرسـة رغـم جمالهـا السـاحر، شرعـت أكـوي الملابـس الداخليـة للغـواني بتهافـت. أتخيـل الأجسـاد التـي سـترتدي هـذه الملابـس، شرعـت أتحسـس المواقـع والمواضـع الحسَّاسـة، أجسـدها أصوِّرهـا خاصـة الصـدور والنحـور والثغـور والأرداف والأفخـاذ.

تامـر ابـن الحكمـدار يركـب عـلى ظهـر عبـد قـوي اسـمه ذئـب، يمتطيـه كالدابـة، ويأمـره أن ينهـق كـما تفعـل الحمـير ويخـبُّ كـما يفعـل البعـير، العبـد ينهـق ويركـض لـكي يفـرح سـيِّده، حزنـا كلنـا لهـذا الاسـتعباد والاسـترقاق، سـوزان تـرى بطـر ابنهـا وغـروره، لم تزجـره بـل غـدت تقهقـه وهـي تصيـح:

- حمارك بطيء كالسلحفاة العجوز.

تامـر الوسـيم الـذي يُشـبه الفتـاة في النعومـة والشـعر والصـوت، طلـب مـن الأمـة سـميرة البيضـاء – أن تدخـل الغرفـة وهـي ذات أصـول شرقيـة وأم حبشـية، اشـتراها الحكمـدار مـن سـوق الخرطـوم كأغـلى أمـة حتـى الآن - هرولـت ولبَّـت رغبـة سـيدها تامـر، طفـق تامـر يـضرب بالسـوط جسـد العبـد حتـى أدمـاه، يـا لـه مـن سـادي! يسـتمتع لجـزع وأنـين العبـد، اتجهـت الأمـيرة سـوزان نحـو المغسـل ثـم الحديقـة، شـاهدت أمَّهـا تتعـثر،

أمرت سميرة البيضاء ومعها خادمتين من بني بشرتنا أن يغسلن أمَّها في المغسل بالصابون وعطر هندي صارخ، حملت الخادمتان الثياب النظيفة المكوية كما أمرتهما سيدتهما، ولكن سميرة البيضاء أمرها تامر أن تجهز له ملابسه من دولابه، تختار ما يروقها من ملابس ليلبسهما، وهي تختار المزركش المطرَّز والموشى بالسندس والحرير الهندي الأحمر أو العسجدي، ثياب فاخرة، تركت أمر سوزان، وسرعان ما يممت شطر غرفته، ولجت مستسلمة لنزوة سيدها المستيقظة، تامر زير غوان، وبعد قليل ذهبت إلى حمام آخر اغتسلت رحضت جسدها الجميل بالعطر، ثم قفلت عائدة إلى غرفة تامر، أوصدت الباب بالمزلاج، لا بدَّ أن الشاب الشبق النزق يعبث الآن بجسد الغانية البيضاء، فهي من ملكة أيمانه، هو في السابعة عشر من عمره، مراهق مفتون بشبابه، خرجت سميرة مبعثرة الشعر، كهرمان الوردي كبير الخصيان هو أبطن مترهِّل كما الخنزير، يأكل فتات موائد الحكمدار الدسمة قالت له سوزان بقسوة:

- يا وردي، أنت مهمل، ألم ترَ ما فعلته هذه العاهرة مع هذا الطفل؟

ركض وجبته المزركشة كالطاووس تحدث جلبة وخشخشة في أثناء هرولته صاغرًا، انحنى أمامها، جثا على ركبتيه وقبَّل يدها، وسجع بصوته الأنثوي:

- لبيك سعديك سيِّدتي، كنت في المطبخ أراقب الطباخين، كاد سيدي الحكمدار يحضر، وجبة الغداء، الدجاج لم يعجبني شواؤه، ثم إن مرق الحمل كثير، عمومًا أنا تحت إمرتك، من هي العاهرة؟

- أتوجد عاهرة غير سميرة السوداء؟ وهل هي بيضاء القلب؟ بيضاء في بشرتها سوداء في قلبها، سأتخلص منها.

- سيدي أوصاني بها، ولكن الأمر أمرك، ماذا أفعل؟

- عشرون جلدة على الظهر والردف والفخذ، لأنها جامعت طفلًا عمرة ستة عشر عامًا، عمرها اثنان وثلاثون عامًا، هذا يعني بأنها يمكن أن تُنْجِبَهُ من بطنها، هي شهوانية قذرة، أنا عمري أربعة وثلاثين عامًا هي في عمري، اجمع كل الخدم والعمال وحتى الجنود السودانيين العشرة بمن فيهم شمسون الجبار، العبد الأبيض، فهي قد بدأت تراوده.

- لا مانع ولكن إذا اشتكت لسيدي سأقول له أمرتني حرمك سوزان.

- قل له لأنها جامعت ولدك تامر في وضح النهار، اغتصبته أليس كذلك؟

- بلى، يا لها من مجنونة!

- هي ساحرة، أرأيت كيف يحبها الحكمدار؟ سأنتقم منها، إليَّ بها الآن عقابها قبل أن تجفَّ دموعها صفعتها لطمتها خنقتها قبل خمس دقائق، هي حمارة، ستحطِّم بيتي ستدمر قصري.

كان كهرمان الوردي عبدًا خصيًّا أسود وسيمًا رغم سمرته وترهله وضخامة جسده، ناداها، جاءت مهرولة، كل الناس ينظرون إليها قال لها بقسوة وغلظة:

- تمددي على الأرض يا تافهة على بطنك، وإلَّا ضربتك على رأسك، عشوائيًّا، تافهة عاهرة حشرة!

يا لها من جميلة! أحلى وأروع من سوزان؛ هذا هو سر حقدها عليها، قالت سميرة بغضب:

- ماذا فعلت؟
- اغتصبت تامر، أليس كذلك؟
- لا! هـو الـذي راودني واغتصبنـي، أنتـم تعلمـون تحرشـه بي دائمًـا، اليـوم سـأخبر والـده بمـا فعلـه معـي! أنـت أدرى، يـا كهرمـان وردي، كـن عـادلًا.
- تمددي عشر جلدات، هذه هو قراري.
- لن أنبطح، لم أفعل خطأً أستحق عليه العقوبة.
- سـأحضر العبيـد ليقبضـوك ليربطـوك، هـؤلاء خمسـة جنـود، سـأطلب منهـم ربطـك، يـا شمسـون الجبـار قائـد المجموعـة، هيـا لتأديـب تلـك الفتـاة الناشـزة المتمـردة العاهـرة. التـي تعـاشر الأطفـال وتعلمهـم الجنـس!

تحركنـا الخمسـة نحـو الجوقـة، الحكمـدار أمرنـا أن نطيـع شـخصين في القـصر سـوزان وكبـير الخصيـان، كهرمـان الـوردي.

توجسـت، عراهـا الفـزع سرعـان مـا تمـددت انبطحـت عـلى بطنهـا، ظهـرت مؤخرتهـا البيضاويـة المكتنـزة المنتفخـة، شرع الوردي يحرق جسـدها بسـوطه، والأمـيرة تومـض وتقهقـه، يـا لهـا مـن سـادية! الفتـاة تتلـوى تلـوي الحيـة، تتمـدد تنكمـش تـئن تبـكي تـصرخ تنـوح، والسـاديَّة تسـتمتع، سـميرة عدوُّهـا رغـم واحـد، أكمـل كهرمـان العقوبـة وهـو يزمجـر:

- احذري وهذا آخر إنذار، ولا عذر لم أنذر.

20

العقوبة القاسية، حزَّت في نفس سميرة الجميلة فاستعصمت بغرفتها، تنوح نواح الثاكلة. أشاحت برأسها عن دعوة الغداء، رغم أن سوزان جاءتها في غرفتها. وطلبت منها أن تتناول الغداء معها، تعجَّبت سميرة لتلك الدعوة، كيف وقبل قليل زجرتها وعنَّفتها وعاقبتها، بحجة معاشرة تامر الذي أكرهها بل أغتصبها وأمُّه أدرى بجنونه بجنوحه وشبقة وتهافته على الغواني، رغم إلحاح سيِّدة السودان الأولى إلَّا إن سميرة أحرجتها، وجرحتها وأذلتها، وجعلتها تتلعثم و تتلجلج وتسجع في كبرياء:

- أنا سوزان أبو الفوارس السمهري بجلال قدري، أطلب من أمة أن تتناول معي الغداء وترفض! يا أمة أترفضين؟ إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد، كما قال شاعرنا المبدع المتنبي.

لم تعبأ سميرة لجنونها، وهي تدري لماذا أتت، هي خائفة من الحكمدار وأرادت أن تسترضيها قبل مجيئه، وهي تعرف هيامه وعشقه إياها، فهو متيم مدنف بسميرة الحسناء الهيفاء النجلاء الدعجاء والبيضاء.

وحينما استشرف الحكمدار قصره المنيف ترجَّل من العربة الحنطور، وكانت تستقبله سميرة عند الباب مشرقة متفتحة، هذا لم يحدث، سرعان ما سأل عنها، أخطروه بأنها في خدرها، هرول مكفهرًّا، ولج الغرفة، وجدها باكية، ازدادت توهجًا وبهاءً وجمالًا، رموشها الطويلة الكثة تسبح في الدمع، ابتسمت رغم كآبتها بأسنان كاللؤلؤ، وبعد تلجلج وتلعثم ذكرت ما جرى لها، من الثلاثي الخبيث كما أسماه الحكمدار ذات يوم، اقتادها، طلب مجيء سوزان وتامر وكهرمان الوردي، أمرها أن تمسك السوط، ترددت، أمرها بقوة، طلب

مـن الـوردي التمـدد عـلى الأرض الانبطـاح لينـال العقوبـة نفسـها مضاعفـة، توجَّـس ارتبـك اضطـرب كان جبانًـا جزوعًـا هلوعًـا، رقـد عـلى بطنـه ظهـرت مؤخرتـه المنتفخـة وجبتـه المزركشـة تزيـده غرابـة، تمـددت بطنـه المترهلـة نصـف مـتر! كـما لـو أنهـا سـتنفجر! أشـاحت برأسـها عـن الانتقـام، قالـت عفـوت عنهـم، سـأتركهم للـه، زجرهـا الحكمـدار بأنهـم يجـب أن ينالـوا العقـاب في الدنيـا، أمَّـا أمـر الآخـرة فـذاك مـتروك للـه. طلـب مـن الحاجـب واليـاور أن يحـضر كل سـكان القـصر، نادونـا نحـن الجنـود. الطباخـون الطبيـب والممرضـة والمزينـة، البسـتانيون وعـمال الإسـطبلات، عـشرات تحلقـوا حـول الحكمـدار وهـو يأمـر سـميرة أن تـضرب الـوردي الرعديـد، وحينـما لم تطعـه، انفعـل واكفهـرَّ، دمـدم متوعـدًا:

- سـأعاقبك أنـت، أنـا أكـره الضعفـاء، أتهينـين الحكمـدار؟ إذا كـثر الحيـاء أصبـح إحـدى علامـات الضعـف.
- سأختار من يعاقبهم نيابة عني.
- من هو؟
- أقترح الجندي السوداني القوي شمسون الجبار.
- لا مانـع شريطـة أن تمسـكي السـوط أنـت، ثـم يمسـك شمسـون يـدك ويحركهـا لأعـلى لتـضرب بقـوة عـلى أجسـاد الخنازيـر.
- موافقة!

سرعـان مـا طلـب منـي الحاجـب قبـض يـد سـميرة بكرباجهـا، آه يـا لهـا مـن يـد ناعمـة غضـة بضـة، غاصـت في يـدي الخشـنة السـوداء، أوردتهـا خـضراء رائعـة، احتويتهـا بسـوطها ورفعـت يدهـا المرنـة طاوعتنـي، أرفـع السـوط إلى أعـلى ثـم أهـوي بـه عـلى ظهـر الـوردي وهـو يـصرخ كالطفـل، قـال لـه الحكمـدار زاجـرًا:

- صه يا خصي! يا لك من قرد بل خنزير مرعوب! أتعاقب سيدتك يا كافور الإخشيدي؟

ما زلت أضرب مستعملًا كل يد سميرة الناعمة وهي تبكي، عشرون ضربة، كانت متألمة لألم كهرمان الوردي الذي ذرف العبرات، جاء دور تامر الجبان، توسَّل وتضرَّع لوالده ليعفو عنه ولكن هيهات، غدا يصرخ ويستغيث، يولول ولولة الثاكلة وعبراته منهالة، أبوه يزجرني لأضاعف العقوبة، وفي الحقيقة انتقمت منه، أنا أكرهه، لأنه مغرور ومستبد ومتعال، سال الدم والجنود الأربعة قد ثبَّتوه وكبلوه، ولم يعد يتقي الضربات العنيفة، الحكمدار سعيد لما جرى لابنه لكي يتأدَّب، إنه شهوان، نافس والده في الغانية الجميلة.

جاء دور سيِّدة السودان الأولى أميرة القصر، قال لها الحكمدار في حزم وعزم:

- ارقدي على بطنك، كما فعل تامر والكهرمان.

انفعلت، انتفشت كهرة شرسة أمام كلب صائل، وفي كبرياء سجعت متلعثمة متلجلجة بصوتها القيثاري:

- أرقد أنا لكي تضربني وتهينني الأمة العاهرة التي اشتريتها من سوق أم درمان لتخدمني؟ أرقد أنا السيِّدة الأولى أعظم امرأة في السُّودان، أعظم امرأة تعاقبها أتفه امرأة؟ هذا مستحيل، لن أجثو لن أركع، هذا أمر دونه الموت، أفضِّل الموت على هذه المهزلة، أجننت يا حكمدار؟ لا تتطاول عليَّ، كل خطئي هو أنني عاقبت عاهرة فاجرة زانية على سلوكها الشاذ والمنحرف، هي تراود وتغازل وتمارس مع ولدك في وضح النهار، علَّمته الجنس، وهو مراهق، هذه الأمة العقيمة، إذا كانت لديها قدرة على الإنجاب لأنجبت بنتًا في عمر بنتك البكر

ميسون، لقد عاقبتها بل جففت منبع الفساد بضربها بل بطردها، كنت في انتظار عودتك، لأشرح لك سوء أدبها وشهوانيتها وسقوطها كمومس مريضة، يا للعجب! أتتعاطف معها لتك الدرجة، هذه العبدة الآبقة التافهة حقيرة، اختر إمَّا أنا وإما هي!

- لا حلَّ غير الجلد، ارقدي تمددي انبطحي!

- لن أفعل هذا حتى لو قاله ملك من السماء، لو قاله جالوت أو طالوت!

إذًا فاستعدي للعقوبة الثانية وهي أصعب وأقسى. أفضل لك عقوبة عشر جلدات.

- طَبِّقْ ما يحلو لك من عقوبات، لا توجد عقوبة أقسى من ضرب هذه الأمة الزانية المريضة.

- أتعرفين العقوبة الثانية؟

- لا تهمُّني، ما يهمُّني شرفي وكرامتي.

- ستشاركك في البيت، ستكون زوجتي.

- كاذب لن تستطيع يا جبان! أتحداك أن تفعل هذا، التهديد والوعيد لا يخيفاني!

- كلكم إلى الديوان لتروا ماذا سيفعل الجبان، الخدم والحرس والعمال والوصيفات والمربيات والمزينات، لا أحد يقف، تحركوا إلى حديقة الديوان لتروا الحدث الجلل الذي ستسير به الركبان، أنا حكمدار السودان معين بفرمان خديوي عالٍ، هل أستحقه أم لا؟ هيا لتروا ماذا سيفعل حكمداركم، كيف يحسم أمره الأسري!

21

أمسك سميرة بيده اليمنى وتحرَّك بها شرق القصر، كلنا تبعناه بين الأزقة والدوح السامقة، نهرول نعطف ذات اليمن وذات الشمال وعسجد الأصيل ينسكب على وجه القصر الولهان، الأصفر الوسيم الأنيق، كلنا الآن تحت ظلال أشجار الديوان المنيف. دغل كثيف معشوشب، نجيلة خضراء، أمرنا نحن الجنود بدخول الديوان، آه نائب الحكمدار ممتاز باشا، المأذون خورشيد الدمياطي، قمندان الشرطة بطرس حنا، أصلع أبطن، تجَّار شوام وأقباط وهنود، وجهاء الخرطوم عددهم يفوق العشرين بمجرد أن دخل الحكمدار وقفوا جميعًا بخشوع وخنوع، هذا أمر غريب! لماذا تواجدوا؟ هل سيصدق الحكمدار؟ أوَّل مرة أدخل الديوان صورة الخديوي محمد على باشا، محمَّد سعيد باشا وعباس باشا، صورة إبراهيم محمد علي باشا الذي مات شابًّا، وصورة أخرى متهدلة على الجدران المنضدة لإسماعيل باشا فاتح السودان والذي أحرقه الجعليون في شندي، وأيقونة أم محمَّد علي باشا، محلاة بالذهب، وصور أخرى هذه صورة الحكمدار أحمد باشا أبو ودان، جعفر باشا مظهر، وخورشيد الأغا، وتسمو على صورهم على الجدران صورة محمَّد بك الدفتردار صهر محمد على باشا، قائد حملة فتح كردفان التي فتحت كردفان، وحملة الخرطوم كان يقودها الشاب النزق الذي أحرقه الجعليون حينما استفزَّ ملكهم نمر، وطالب بالآلف العبيد والجمال والأبقار والأغنام وأطنان من الذهب، ضرب الملك نمر بغليونه بغرور مجنون، فأحرقه رجال الملك ليلًا، مكتوب تحت صورته. المأسوف على شبابه الشهيد إسماعيل بن محمَّد علي باشا، الفاتح العظيم، الذي قتله البرابرة والهمج من العرب. أنت خالد في قلوبنا.

أيها البطل المحروق، نم غريرًا في فردوسك، طوبى لك! والخزي والعار للقتلة الأوباش!

الجميع واقفون مصطفون، أمرهم الباشا بالجلوس، توسطهم على كرسي ضخم محلى بالجوخ والأبنوس. أشار إلى سميرة: هذه هي العروس، سأل المأذون خورشيد عن اسمها بالكامل وولي أمرها، بدأت الفتاة تبكي، ربما دموع الفرح، دهش الجميع لمأساة سوزان! كيف يتزوج الحكمدار هذه الأمة ويترك السيِّدة الرائعة الحلوة، فجأة تنبَّه الحكمدار حينما رأى عيون القوم مسلَّطة على الفتاة الخجولة، قال لنا:

- أين نظيمة المزيِّنة ونناسي الوصيفة والحاجبة، خذوها جهزوها، هي اليوم عروس.

سرعان ما دخلت نظيمة كبيرة المزينات واقتادتها ونناسي وكهرمان الوردي كبير الخصيان يقتفي أدراجهما، بدأ المأذون يجري طقوس الزواج، قال من وكيل الزوجة؟ أجابه الحكمدار: شمسون الجبار. أجلس هنا، جلست جوار المأذون، قبع نائب ثاني الحكمدار - حلمي تامر فارس - جواري يا له من شرف! أنا جوار الرجل الثاني في الدولة، سألني عن اسم الزوجة، عجزت من معرفة اسمها بالكامل، لا أعرف عنها شيئًا، تدخل الحكمدار مرتبكًا ومتلجلجًا ومتلعثمًا، بالطبع هو لا يعرف اسم والدها، غمغم وهمهم. ثم دمدم:

- اكتب رشيد حنا الإسكندراني، هذا اسم التاجر الذي اشتريتها منه، لا أعرف لها والدًا، ثم إني أعلن الآن عتقها، هي حرة قبل عقد القران، هيا أكمل مراسيم الزواج الشرعي.

فجأة تنامى عويل ونواح، صوت امرأة في نشيج وتوتر، إنها سوزان تصرخ بتهيج وتوتر وصراخ:

- لـن يتـم الـزواج إلَّا بعـد مـوتي، في يدهـا سـاطور، جـرى الحشـد مـن أمامهـا فـروا كـما لـو أنهـا لبـؤة، افرنقعـوا، هـي هائجـة متوتـرة:
- سأقتل سميرة سأشرب من دمها، الخائنة العاهرة الفاجرة.

أمـر الحكمـدار زمـلائي الأربعـة بالقبـض عليهـا، مـن الخلـف أنقـض عليهـا تـوم قـاي، المشـهور بمـوسى أحمـد. عاونـه زمـلاؤه، جندلوهـا، نزعـوا منهـا السـاطور، وهـي تسـبهم بألفـاظ نابيـة.

- أنجـاس مناكيـد يـا عبيـد، أتقبضـون عـلى سـيِّدتكم، يـا خنازيـر يـا سـود.

أمرهـم الحكمـدار بسـجنها في القـصر مـع قيـد حديـدي، وإغـلاق الغرفـة، سـقطت عـلى الأرض، انكشـف جسـدها الأبيـض، ربـوة بيضـاء بيضاويـة، يغـوص فيهـا وشـاح فضفـاض فـضي، منظـر مدهـش ومذهـل، وخيـالي، تمـددت انكمشـت رمحـت صرخـت، قاومـت بـضراوة ولكـن هيهـات حملوهـا عـلى أكتافهـم، تـوارت مهزومـة، تـمَّ عقـد القـران بـارك الجميـع للحكمـدار النشـوان، مُنِحَـت خمسـة جنيهـات لـكل جنـدي، ثم أولم الحكمـدار ليـلًا، ذُبِحَـتْ عـشرات الأكبـاش والثـيران دعـا الأعيـان والوجهـاء، كان الغنـاء بفرقـة مصريـة وأخـرى شـاميَّة. لم أر عرسًـا كعـرس سـميرة بعـد أن خضعـت لعمليـة التزيـين والتجميـل، غـدت كهالـة قمـر، أجمـل مـن سـوزان، بيضـاء نجـلاء هيفـاء كل الصفـات الجميلـة لهـا الكـمال المطلـق، هـي مـن حـور الجنـان، مـن ملائكـة الرحمـن كـما يقـول المسـلمون. أمَّـا أنـا فأقـول: هـي مـن آلهتنـا الوثنيـة القديمـة حسـب تصورنـا، تسـتحق أن تعبد.

طلـب منـى الحكمـدار، أن أتـرأس الحراسـة، سـوزان في سـجنها. لا تخـرج إلَّا للحـمام، والنزهـة عـلى شـارع النيـل. نتبعهـا نحـن الخمسـة، تسـير في وسـطنا أسـيرة مسـجونة كئيبـة، تنظـر إلى النيـل إلى الأشـجار والطيـور والمراكـب وجزيـرة تـوتي، تتنـزه تتمتـع لـكي تنـسى مأسـاتها، خـاف منهـا

الحكمـدار، توعدتـه، قالـت لـه سـأقتلك وأقتـل سـميرة وأقتـل نفـسي، حـاول ابنهـا تامـر أن يقنعهـا بقبـول الأمـر الواقـع ولكـن هيهـات. عاقـرت الخمـر، أصبـح عمـلي حراسـة تلـك الغانيـة. أمـر كهرمـان الـوردي أن يلبـي كل مطالبهـا مـن الأكل والـشرب والدخـان والخمـر، لكـن حريتهـا مقيـدة. جذورهـا شرقيـة قوقازيـة تتعـالى عـلى العـرب، أمَّـا نحـن الزنـوج فتنظـر إلينـا كالقـرود، سـكرت ذات مـرة ثـم شـتمتنا وقالـت: أنـا سـوزان حفيـدة الوجيـه الأغـا باسـل السـلطاني الطـوراني، يحرسـني الهمـج ويسـجنني الأفارقـة السـود، لمـاذا يـا ربي مـاذا فعلـت حتـى تعاقبنـي هـذه العقوبـة القاسـية؟

ذهـب الحكمـدار لسـواكن ومصـوع وأسـمرا، ليسـتمتع برحيـق وألـق وشـذى الغانيـة، عـلى سـواحل البحـر الأحمـر الياقـوتي، خففنـا مـن الحراسـة المشـددة، مـن سـتقتل لقـد سـافرت الغانيـة في شـهر عسـلها وانتزعـت منهـا بعلهـا الوجيـه الحاكـم سـيِّد السـودان الأوَّل، مـا زلنـا في انتظـار الحكمـدار، عُـيِّنَ البكبـاشي حبيـب اللـه أفنـدي قائـدًا لأرطتنـا، وبـدأ التدريـب، طلـب منَّـا المجـيء للتـمام كل مسـاء فـرادى، والانتظـام في التدريـب بعـد مجـيء الحكمـدار.

وبعـد شـهر أطـلَّ وفـد العـرس الميمـون، فـرح القـصر بعـودة العـروس الجميلـة، وبعلهـا مـن شـهر العسـل حيـث لبثَـا شـهرًا بإريتريـا، أولم المتيـم المدنـف. طلبـت منـي سـوزان أن أسـمح لهـا بمقابلـة العروسـين، تـرددتُ توجَّسـتُ، فكَّـرت في استشـارة كهرمـان الـوردي. طلـب أن يعـرض الأمـر للحكمـدار، وافـق شريطـة أن تُفتَّش جيـدًا. قالـت إنهـا ذاهبـة للاعتـذار ومباركـة الـزواج، لم أصدقهـا، فتشـتها جيـدًا، لم أعـثر عـلى آلـة حـادة. تسـوَّكت اغتسـلت تعطَّـرت تمكيجـت تمسَّـحت، غـدت كالـوردة، أتريـد أن تنافـس سـميرة البيضـاء أمتهـا التـي غـدت سـيدة مثلهـا؟ مـا زلـت أقتادهـا إلى جنـاح سـميرة. قرعـت البـاب، خـرج الحكمـدار غـد أشـد بياضًـا وجـمالًا

سرعـان مـا صرخـت وارتمـت تحـت قدميـه مقبلـة ومولولـة، حـاول إيقافهـا ولكـن هيهـات، انهمـرت دموعهـا، نشـيج ونحيـب ونـواح، وحينـما شـاهدت سـميرة وثبـت وركعـت وسـجدت تحـت قدميهـا مقبلـة معتـذرة منكـسرة. دموعهـا تنسـاب بغـزارة، ثـم سـجعت في حـسرة ولوعـة:

- أنـا الأمـة، وأنـتِ الحـرة، الحـرة هـي التـي تسـتقيم في مسـلكها، أنـا أمـة الشـهوات، فليطلقنـي لتسـتمتعي بـه لوحـدك، أنـت تسـتأهلين، وأنـا أسـتحق، لإجرامـي وقسـوتي وجحـودي وسـقوطي وانحـرافي وغـروري.

أمسـكتها سـميرة بكلتـا يديهـا، رفعتهـا لأعـلى، أوقفتهـا، سـاعدها الحكمـدار، الثلاثـة تحركـوا ببـطء ولجـوا الغرفـة وأغلقوهـا، ولا أدري مـا جـرى مـن حـوار.

22

وجدنا أنفسنا في المعسكر – في قلب الخرطوم - سمِّيت كتيبتنا بالأرطة السودانية. يقودها أسود مثلنا ينحدر من الجنوب، اسمه العربي حبيب الله (أكول) أفندي، برتبة صاغ، أوَّل مرة أرى ضبَّاطًا سودانيين، في حامية كسلا أعلى رتبة يصلها سوداني هي رتبة صول، تدريب على كل أنواع الأسلحة، تدريب شاق بانضباط عالٍ، وهل رحلتنا إلى مصر المزعومة تحتاج إلى هذا الجهد من التدريب؟ لماذا لم يكن معنا جنود أو ضباط مصريون؟ هم يأتون فقط لتفقُّد سير التدريب كضباط كبار، اشتقت وتقت إلى رحلة مصر، هذا هو الشهر السابع، مللت البقاء، بقائي في بيت الحكمدار كان ممتعًا، الطعام الشراب، ثم إن قصره في تماس مع النيل الأزرق الرائع المنسكب، زواج سميرة وسجن الأميرة، غدت ذكريات لا يمكن أن تسقط من ذاكرة الأحداث. يقولون للجنود من الأصل الزنجي البازنجر، هل يعنون بأننا من سلالة الرقيق؟ ما أعرفه كان الجنود الذين يعملون مع الزبير باشا، يسمُّون بالبازنجر، باختصار البازنجر يا قرنق هم أهلنا الذين يعملون في الجندية، سألتني قبل ذلك عن الزبير باشا رحمة، إنه رجل طموح، أكبر تاجر رقيق، ينحدر من قريته أم الطيور جوار مدينة عطبرة. من قبيلة الجعليين العربية، ذهب إلى بحر الغزال للبحث عن ابن عمه المفقود الذي ذهب إلى الجنوب ولم يعد إلى مسقط رأسه، وانقطعت أخباره. حاول الزبير رحمة البحث عنه، وصل إلى الجنوب وأعجبه المكان، بدأ يعمل بالتجارة المشروعة وغير المشروعة، الاتجار بالبشر، صنع حظائر زرع كإقطاعي، لديه أقنان عبيد الأرض، ربح كثيرًا، تكاثرت ثروته، قوي نفوذه، سلَّح عبيده، كوَّن الحكمدار حملة، لكسر شوكة تجَّار رقيق بحر الغزال،

عقـدوا لـواء القيـادة للزبـير، فحـارب الحكومـة في بسـالة، انتـصر عليهـا مـزَّق جيشـها، اعـترف الحكمـدار بالهزيمـة فعينـه مديـرًا عـلى بحـر الغـزال ومنـح لقـب باشـا، سـاس بحـر الغـزال كملـك، كانـت لـه تجـارة مـع مـصر، عـن طريـق درب الأربعـين، بـدأ يرسـل القوافـل، ولكـن عربـان الرزيقـات صـاروا يهاجمـون وينهبـون تجارتـه، أعـدَّ قـوة كبـيرة لتأديبهـم، وكان معظـم جنـده مـن البازنجـر مـن أهلنـا المسـترقين أو الأحـرار، سـلحهم بالأسـلحة الناريـة الـشيء الـذي يفتقـده الرزيقـات، إنهـم يسـتعملون السـلاح الأبيـض، ورغـم شـجاعة الرزيقـات المعهـودة، فـإن قـوات الزبـير سـحقتهم وشـتت شـملهم، كانـت مجـزرة لم تسـلم منهـا أسرة، أحـزان الرزيقـات كانـت كبـيرة، وخسـائرهم كانـت باهظـة، انتقـم منهـم كتيمـور لنـك، كجنكيـز خـان.

فـرَّ شـيخان مـن شـيوخ الرزيقـات هـما عليـان ومنـزل إلى الفـاشر، حيـث طلبـا الحمايـة مـن سـلطان الفـور إبراهيـم قـرض، فأمنهـما وأجلَّهـما، استشـاط الزبـير باشـا غضبًـا وطلـب مـن السـلطان قـرض تسـليمه عليـان ومنـزل لينـزل بهـما انتقامـه، رفـض السـلطان إبراهيـم تسـليم الشـيخين، واعتـبر الأمـر ضربًـا مـن ضروب المسـتحيل، سـيَّر الزبـير جيشًـا عرمرمًـا وطيـس الرمـل، لكبـح جـماح وقمـع قـرض، التقـى الجيشـان في منـواشي 1874م، هـزم الزبـير قـرض نتيجـة لتفـوق الأسـلحة الناريـة، أستشـهد قـرض في المعركـة، ودخـل الزبـير الفـاشر، وهكـذا ضـمَّ الزبـير دار فـور إلى التركـة.

دعنـا مـن قصـص الزبـير والرزيقـات والفـور؛ سـأحكي لـك الأحـداث الهامـة التـي جـرت بعـد ذلـك، وكيـف اسـتمر التدريـب، وهـل ذهبنـا إلى مـصر، ومـاذا جـرى بعـد ذلـك.

جـوار معسـكرنا السـجن، تنبعـث منـه الضوضـاء والهـرج والمـرج، ورائحـة العصيـدة وإدام السـمك المتفسِّـخ، كذلـك المسـجد العتيـق لا يبعـد عنَّـا كثـيرًا. أنـا كوثنـي لم أقـترب منـه، رغـم توجيهـات الأتـراك بـأن يكـون

كل الجنود السود مسلمين، وعليهم أن يؤدوا شعائرهم، ولكن هيهات، إذا دخلنا، فنحن نصلي بغير وضوء ولا نشكر الله بل ندعو آلهتنا الوثنية، هم أصحاب القدح المعلَّى، ولهم السيطرة على الكون كآلهة للخير والشر، إله المسلمين لا نقترب منه، وإذا دخلنا المسجد فخوفًا على وظائفنا، المصريون متعصبون للدين الإسلامي الذي يعتبرونه الأفضل والأصح والجدير بالعبادة، ونحن نعتقد خلاف ذلك، تعاملنا مع الديانة المسيحية بنفس طريقة الإسلام لا نحبها ونكيد لها، ولكننا نفضِّلها على الإسلام، هنا في الخرطوم توجد كنائس القساوسة دعونا للتعميد، قلنا لهم إلَّا بمقابل مالي كبير، شريطة أن يكون سرًّا لكيلا تعلم الحكومة التي تعتبرنا ضمن رقيقها الأسود المسلم، حانات الخمر تسمَّى (الأنادي) تباع فيها المريسة والعسلية، وهي خمور خفيفة الكحول تصنع من الذرة، رخيصة يشربها معظم السقاة، أمَّا العرقي فقد كان يصنع من الذرة والبلح، كحوله أقوى، ما أكثر رواد الحانات السكارى! توجد أماكن للدعارة مكتظة ومنتشرة، ما أكثر المومسات! أمات وحرائر حبشيات ومصريات وسودانيات، رخيصات متهافتات شهوانيات هممنَّ إدخال أكبر عدد للعق عسل الجيوب! بملابس قصيرة شفافة، يتبرجن لإغراء وإغواء الشباب للدنو لملامسة أجسادهن النحيلة، بمقابل زهيد ومتواضع، كنا نستشرف تلك الديار الجميلة، مغان ومخادع العاهرات الشابات، آناء الليل وأطراف النهار، استنزفن كل طاقتنا و نقودنا، نختار العاهرات الصغيرات البيضاوات، كنا نتجنَّب السمراوات والسوداوات والأمات من بني جنسنا، البيضاء أو الصفراء أشهى وأحلى، قالت لنا ذات مرة فتاة عربية جميلة: لا يمكن أن أدخل أمثالكم، ابحثوا عن ألوانكم وأشباهكم، أنا لا أجامع القرود القذرة، ما أكثر الإماء! نحن لأبناء العرب! وجدنا كاعبًا جميلة، راودناها أغريناها بكثرة النقود، إلَّا أنها أشاحت برأسها في كبرياء وسجعت. أنتم عبيد

لديكم عِصِيٌّ غليظة، ابحثوا عن أمثالكم.

شعرنا بالذل، عنصرية حتى في الجنس، صارت نصف رواتبنا للجنس وربعها للخمر، عندما أذهب منفردًا، أستطيع أن أجامع العربيات، لأنتقم من الذين استعبدونا، لوني الفاتح يغري الفتيات لكيلا يتمنعن، أعبث بالفتاة وأردد بدراهمي لا بالحديث الناعم. ولكن حينما أذهب مع إخواني السود، توصد الأبواب في وجوهنا، باعتبارنا زنوجًا قبيحين! نحن كوثنيين سفهاء لا يردعنا رادع ولا يزجرنا زاجر. شاهدنا بدويًّا يذبح ابنته كالخروف حينما عثر عليها بعد هربها بعامين، زوَّجها رجلًا كبيرًا مسنًّا فرفضته؛ هربت، لتحترف الدعارة، كان يذبح ويتشنج ويزمجر: أتصيرين عاهرة للعبيد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! موتي، لسقر وبئس المستقر، هربنا ونحن نرى الفتاة الجميلة المذبوحة تتمدد وتنكمش وتصرخ، غاصت السكين في عنقها والدم كالينبوع. لم تطرف له عين كما يذبح الخروف. فرَّت كل العاهرات إلى السوق كقطيع يطارده كلب، هرب القوادون و المسافحون رعبًا من مدية البدوي الحمراء، وهو يصول كالغضنفر.

كنا خمسة بقيادة صديقي دينق، شتمتنا ابنة صاحبة حانة، قائلة العبيد كالقرود أسنانهم سميكة قبيحة كأسنان الحمير، تنهقون مثلها، شوهكم الله بألوانكم السوداء بطول قاماتكم الشاذة يا أنصاف الشياطين! هل أنتم بشر أم قرود؟ قلنا لها اسكتي يا عاهرة، يا بائعة جسدها وخمرها. من دون حياء أردفت قائلة: أنا كذلك ولكن ليس لأمثالكم.

خمر المريسة لذيذ مشبع ومنعش، نشربها يوميًّا، عند أهلنا في الجنوب غذاء أو وجبة، نشربها وزبدها راب، لا تُسكر إلَّا إذا شرب الرجل برمة كاملة أو دلنق، البدو يتشاجرون حينما يسكرون، الشرطة لا تقل

بشاعة في بطشها وقمع المتخاصمين، بالعصا بالكرباج بالحبس والقيد، إلَّا إذا أخذت رشوة فهي تغض الطرف، في مرات كثيرة، تظاهر الذي يدفع أكثر، قال لي صول شرطة اسمه أمجد الدمرداش، وهو ينقد مسلكه بعد أن سكر: فليغفر الرب لنا، كم أبكينا المظلوم وأضحكنا الظالم، يأخذون رِشًى من صانعات الخمر ومن العاهرات ومن المثليين، باعتبار أن القانون لا يسمح بمزاولة الدعارة وصنع الخمر، وهم رواد وأبطال تلك الحانات والمواخير بغلمانها وعاهراتها، أي قانون يتحدثون عنه؟ الدولة تدار بشريعة الغاب، كبار الموظفين يرتشون ويمارسون أبشع الأعمال الفاضحة في وضح النهار. في الحانات (الأنادي) والمواخير غناء ورقص خليع إباحية مفرطة، سقوط شنيع. ما هذا يا مسلمين؟ ومع ذلك يقولون لنا أنتم عبيد تافهون منحطون، ماذا يفعل غير العبيد غير التفاهة والانحطاط؟

23

انتظمنا في المعسكر بانضباط عالٍ، ظهر ضباط مصريون في التدريب، معظم المناورات كانت بالغابة التي تقع غرب الخرطوم وشرق النيل الأبيض، غابة مظلمة كثة، نحارب عدوًّا مجهولًا، تدريب غريب بتكتيكات لم نعرفها من قبل، فر وكر، وحواجز وتسلُّق للأشجار كما القرود، منذ الفجر يبدأ التدريب، وفي هذا الميقات، ومنذ الفجر يدربنا الضابط المصري، فارس المصباح السعدي، مسلم ملتزم، حينما يبدأ يتعامل معنا كمسلمين كما توهَّم، كان يقول لنا، صلوا على النبي، وكنا ننافقه ونقول جهرًا: اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، كان يرتاح جدًّا ويقول: الحمد لله الذي أخرجكم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الوثنية إلى نور الإسلام، ثم يردف: اشكروا الله كثيرًا، وكنا نردد: الحمد لله والشكر لله، لا بدَّ أن ننافق لكي نستمر، ثمة ضابط تركي اسمه ثابت خورشيد، كان متزمتًا متشددًا يرغمنا على صلاة الجماعة، والصيام يوم الإثنين، كنا نخدعه ونختله. نحن وثنيون لا نظن خيرًا في أي ديانة غير ديانتنا الوثنية، أمَّا منير بطرس حنا، فهو ضابط مسيحي وسيم يدربنا مساءً، يبدأ بقول: المجد لله في الأعالي وعلى الدنيا السلام وبالناس المسرة، باسم الابن والابن وروح القدس، آمين ثم يرسم الصليب على صدره ويقول: بالطبع كلكم نصارى لماذا لم تحضروا قداس الأحد الأسبوعي، لم أر جنديًّا، حبوا يسوع يا أحباب يسوع، اكرهوا أعداء يسوع، ادخلوا بيته تتذلل وتتسهل أموركم تتبدد هواجسكم، تنقشع سحب حزنكم، ليخلصكم الرب من آثامكم وخطاياكم، لكي تذهبوا وتعودا بالسلامة، أليس كذلك؟ ما أصعب الأهوال التي ستقابلكم عبر البحار وفي الأدغال، طوبى لكم.

حينـما يتحـدَّث الضبَّـاط عـن الإسـلام أو المسـحية، أغضـب غضبًـا شـديدًا، لا يوجـد بيننـا مسـلم أو مسـيحي، مجـرد نفـاق أو خـداع، نحـن إلهنـا دينقديـت في الجنـوب، إلـه الغابـات والأمطـار، خلـق الإنسـان والـذي يطعمنـا ويسـقينا وينـزل المطـر لتـأكل مواشـينا، العشـب الأخـضر، اللحـم اللـبن، ويجـرى الأنهـار لتمنحنـا الأسـماك، ربُّنـا هـو دينقديـت نعبـده في معبـد لـواك بوجـود الكاهـن، لا نقبـل لـه بديـلًا، وهـو الإلـه الأقـوى والأشرس، قـصره في السـماء الزرقـاء، يحـرِّك الشـمس والقمـر والريـاح، وتحـلُّ لعناتـه عـلى مـن يكفـر بـه، فيمرضـه، أو يقتلـه، أو يهلـك زوجتـه أو أحـد أطفالـه، لديـه رغبـة في مسـاعدتنا. لـن نبحـث عـن إلـه غـيره عنـد المصريـين والسـودانيين، متـى دخـل الإسـلام السـودان؟ كلهـم كانـوا وثنيـين مثلنـا، أمَّـا المسـحية فقـد كانـت أعـرق وأقـدم، في الممالـك النوبيـة المقـرة نوباتيـا وعلـوة، التـي قـضى عليهـا العـرب وأسسـوا السـلطنة الزرقـاء. لـن نعتنـق دينًـا آخـر، جبـال النوبـة جنـوب النيـل الأزرق وجنـوب السـودان معقـل الوثنيـة، يسـمونها كفـرًا، أليـس كذلـك؟ نحـن نقـول هـم أشـدُّ كفـرًا.

لا يمكـن أن أنـسى مـرضي الـذي كاد يشـلُّني، أخفقـت كل العـروق والجـذور والأوراق التـي عطنَّاهـا في المـاء، حسـب وصـف نطـاسي - دجـال القريـة الهَـرِم، شربـت اغتسـلت تمسَّـحت كلهـا أخفقـت، في ذاك المسـاء حملنـي والـدي للـواك والكاهـن العجـوز يتوسـطها يهمهـم يغمغـم، يدعـو إلهنـا دينقديـت، وهـو يسـبح في السـحاب، يجلـس هنـاك مـا بـين السـماء والأرض يراقبنـا يسـاعدنا، يـشرب خمـره، يـأكل لحمـه، يدافـع عنَّـا وهـو يخـشى غـدر الآلهـة الأخـرى المتربصـة برعاياه، آه إنـه ينتبه لمجيئنـا، سرى في جسـدي تيـار فتـور ثـم نشـاط غـير عـادي، طقـوس الكاهـن يباركهـا الـرب في عليائـه، تفـل مـسَّ خاطـب قـوى أخـرى باطنيـة لعلهـا دينقديـت لتمنـح الشـفاء، لحـرق شـيطان المـرض الـذي يتربـص بالأطفـال، سرى النـوم واللهـب يسـطع، وأحـسَّ بلسـعه، الكاهـن ينـثر مسـحوقه، عـلى جسـدي وعـلى

النار المقدَّسة التي أضرمت من أجل وهج دينقديت السامي المقدَّس الذي يحرس الغابات، في هذا الوقت الذي يراقب فيه الرب عباده من سكان الأدغال، أجل فهو إله الغابات والنماء. بعد ساعتين شعرت بتحسُّنٍ كبير. وقفت على قدميَّ وكان قد حملني والدي ولم أقوَ على السير، طاقة غير عادية عادت إلى جسدي، نفحني الرب العافية بغير مقابل، يا لك من عطوف يا دينقديت! أنت أقوى إله على ظهر الأرض والسماء، الآلهة الوثنية الأخرى لا تضارعك ولا تماثلك، هناك شرق الأنهار من الجهلاء الأوباش البرابرة، من يظنون أنَّ لهم آلهة قوية وثنية ولكنهم يخدعون أنفسهم، لا يوجد من هو أقوى منك على الأرض والسماء، يا أقدم إله على ظهر الأرض، سنقدم لك القربان في حالة شفائي التام في المذبح، سنذبح فتاة أو فتى مثلي، إذا أردت ذلك. لن نعبد إلهًا غيرك، بهذه الأصنام والأوثان والأيقونات المقدّسة، اطمأنَّ الكاهن وأمر والدي بحملي رغم قدرتي على المشي، تسللنا من المعبد الذي كان خارج القرية، ونحن نشق الأشجار والنباتات الطويلة والقصيرة. الندى البارد يداعب أطرافي كلما تصطدم بتيجان النباتات، زمجر أسد هصور، ارتعدت فرائصي. أنزلني والدي، وقبض رمحه، ظنًّا منه بأنَّ الأسد قريب ويهم بافتراسنا. صوته ينأى رويدًا رويدًا، استشرفنا كوخنا البائس، أنزلني والدي. احتوتني واحتضنتني أمي العطوفة، وهي تربت على كتفي وتقبِّل وجهي. وتقول الشكر لك يا دينقديت إلهنا المعظم، وأنت في عرينك لواك، تعطف ونحن كما الأم، لقد شفيت ابني، اللعنة على الشيطان الذي دخل جسده. لا شك أنك حرقته ونسفته وطار رماده إلى عنان السماء، يا مارد يا بطل الكون، لا أحد يستطيع أن يهزمك، كل الإلهة أقزام أمام سطوتك وهيبتك وعظمتك، فلتدم لنا رغم أنف النصارى، كاهنهم قال لا يوجد إله غير الرب وابنه وزوجته مريم العذراء، لكننا نقول لهم لا يوجد

إلـه غـير دينقديـت، قسـيس ملحـد أصرَّ عـلى عـدم وجـودك عليـك بـه، اقصـم ظهـره، احـرق كنيسـته التـي بناهـا قبـل شـهر جـوار لـواك معبدنـا المقـدَّس.

24

التدريب يستغرق ويمتص معظم وقتنا، عمل منهك ومضن، لماذا لم يُجنَّد أبناء العرب؟ ما السبب؟ تساءلت ذات يوم، هذا أمر محيِّر ومربك. ألأنهم لا يفضلون الجندية، أم الحكومة لا تفضلهم؟ لماذا تشك في العنصر العربي وتثق بالعنصر الزنجي؟ ألأنهم أحرقوا إسماعيل باشا في شندي ويتمردون ويثورون ضد سياسة الحكومة بخصوص الضرائب؟ أرى بعض أفراد قبيلة الشايقية العربية، يعملون في الشرطة فقط! أمَّا بقية القبائل العربية ليس لها وجود في المؤسسة العسكرية. ربما لضعف الأجور التي لا يمكن أن يعمل بها العربي، وخاصة هم رعاة وزراع، عائدهم مناسب من الحرفتين.

عند الأصيل نمشي إلى النيل بغرض النزهة، ولكن بعد أخذ الإذن. في ذات مرة حذَّرنا ضابط مصري اسمه وسام بطرس من السباحة في النيل لوجود التماسيح وأفراس البحر، قال زميله الضابط ممدوح وجدي: هؤلاء ستخاف منهم التماسيح لكيلا يفترسوها ويأكلوها، ستفر أفراس البحر من هذه الكائنات الطويلة السوداء، غضبنا غضبًا شديدًا، ولكن وسام بطرس ذكي، خفَّف من حدة غيظنا قائلًا سيادة الصاغ ممدوح يمزح معكم، لا تغضبوا فهو كثير المزاح، لا تسبحوا هنا تكثر التماسيح في النيل الأبيض، نخشى عليكم ألم يفترسوا صبيًّا البارحة؟ لا تسبحوا تنزهوا بالرؤية، أو المياه ضحلة يمكنكما أن تسبحوا فيها.

قبلنا التبرير غير المقنع، لا بدَّ أن الجميع ينظرون إلينا كسلالة رقيق حقيرة، في الأسواق نجد المضايقات والنظرات المريبة التهكمية بسبب ألواننا. الخرطوم يسكنها أصحاب البشرات البيضاء من القبائل وهم من أصول شرقية، كذلك يسكنها العرب الخلاسيين أصحاب بشرات

صفـراء فاتحـة وأحيانًـا بيضـاء وسـمراء، جعافـرة، ريافـة، محـس، دناقلـة شـايقية، وعـرب الجموعيـة، لديهـم رقيـق قليـل يعمـل في مزارعهـم وفي الأعـمال المنزليـة، لهـذا حينـما نذهـب إلى السـوق لـشراء أغراضنـا ينظـر النـاس إلى ألواننـا وقاماتنـا الفارعـة، وأسـنانا المنزوعـة والخطـوط الأفقيـة عـلى جباهنـا (الشـلوخ) كـما يسـمونها هـم، والغريـب أن بعـض القبائـل العربيـة كالشـايقية تشـلِّخ شـبابها بثلاثـة شـلوخ رأسـية وعـلى جانبـي الوجـه مشـوهة وجوههـم الجميلـة، هـم مثلنـا لمـاذا لا يجـدون التهكـم؟ أمـر غريـب! هـذه عـادات أسـلافنا، لـن نتخـلى عنهـا مـن أجـل إرضـاء العـرب.

حـاول الصـول تـوم ملـكال دينـق (محمَّـد سـالم أحمـد) أن يتـزوَّج مـن فتـاة عرضهـا لـه والـده حميـد البسـتاني، أمـر غريـب كيـف يتـزوَّج العبـد سـيِّدته، ارتبنـا في الأمـر! حذرنـا تـوم، شـاهدنا الفتـاة البيضـاء الجميلـة، تـوم وثنـي زعـم أنـه مؤمـن لـكي يتزوجهـا خلسـة بغـير علـم قائـد الأرطـة، راتـب سـتة شـهور أنفقـه في الـزواج، ثـم إنَّ والدهـا اشـترط أن يكـون عقـد القـران سرًّا بـداره. بثلاثـة فقـط مـن أهـل العريـس، طلـب منـي تـوم ملـكال أن أكـون وكيلـه، سرنـا ليـلًا سرًّا إلى داره وسـط أكـواخ المقـرن، لا تبعـد كثـيرًا عـن معسـكرنا، كاد تـوم يطـير مـن الفـرح، كل أولادنـا لديهـم عقـدة المـرأة البيضـاء يحبونهـا باعتبارهـا أشـهى وأحـلى، يـا لكـم مـن أغبيـاء! مـا عيـب السـوداء؟ ألم تكـن أمهاتنـا سـوداوات؟

الضابـط وديـع حـمادة علـم بمـشروع الـزواج شـجَّع تـوم عـلى الـزواج، تربطـه علاقـة جيـدة مـع والـد الفتـاة حميـد البسـتاني عـلى زواج ملـكال، بـل هـو الـذي أشـار إلى تـوم ملـكال بالبنـت التـي تحـب أن تتـزوَّج جنديًّـا زنجيًّـا مـن جحافـل وكتائـب البازنجـر، هـي بيضـاء، لهـذا تفضِّـل السـود، لا أدري لمـاذا كان وديـع مـصرًّا عـلى زواج تـوم مـن الفتـاة التـي تسـوم وتعـرض نفسـها للسـود؟ لمـاذا اختـار لهـا تـوم؟ ذهبنـا نحـن الثلاثـة إلى دار

حميـد، البسـتاني هـو مـن أصـول شرقيـة ربمـا شـاميَّة. بيتـه مـن الطـوب الأحمـر، أجمـل بيـت في الحـي، بقيـة المنـازل مـن الزنـك و الطـين والخشـب والقـش، عمومًـا، لم نحـسَّ بـأي أثـر لبيـت زواج لا غنـاء ولا رقـص ولا زغاريـد، الغريـب لم يسـتقبلنا أحـد غـير صبـي أمـرد وسـيم أمرنـا بدخـول الديـوان، وبعـد ربـع سـاعة جـاء وديـع حـمادة، ومعـه رجـل أبيـض سـتيني ملتـح، بملابـس الوجهـاء الشرقيـين، عرفنـا أنـه السـيِّد حميـد حـداد البسـتاني، وديـع حـمادة صـاغ مغـرور متكـبر، كالطـاووس يمـشي متبخـترًا مزهـوًّا، وقفنـا، وبعـد ربـع سـاعة دخـل المـأذون صـادق الأعـور، أجرينـا طقـوس الـزواج لأوَّل مـرة أسـمع بـه أو أراه. وكيـل الـزوج ووكيـل الزوجـة، طلـب منـي المـأذون أن أردِّد خلفـه كتلميـذ يُلقَّـن في ببغائيـة، قـال البسـتاني وهـو يـردد خلـف المـأذون (أزوِّج موكلتـي أسـمهان حميـد لبيـب حـداد البسـتاني، البكـر البالـغ لموكلـك، محمـد سـالم أحمـد بسـنة اللـه ورسـوله.، واللـه عـلى مـا أقـول وكيـل) قـال لي المـأذون قـل قبلـت! قلـت قبلـت. علمنـا أن اسـمها أسـمهان حميـد حـداد البسـتاني. قدمـوا لنـا طعامًـا لذيـذًا، ثـم طردنـا حميـد، قائـلًا اذهبـوا مـع السـلامة إلَّا العريـس فتلـك غرفتـه، سرعـان مـا تحركنـا إلى المعسـكر، تركنـا تـوم ملـكال العريـس؛ ليسـبح في خضـم متعـه، والبسـتاني والصـاغ وديـع حـمادة الوسـيم المزهـو، ينظـران إليـه بدهشـة وريبـة، قبـل أن نتحـرك، قـال لنـا البسـتاني يمكـن أن تشـاهدوا العـروس، فهـي عـروس صديقكـم أو قريبكـم، وجـدت الدعـوة هـوى في أنفسـنا، وفي غرفـة قصيـة اقتادنـا البسـتاني بـدأ ينـادي: يـا عـروس يـا وجيهـة يـا جميلـة. سـلِّمي عـلى أهـل زوجـك، سرعـان مـا بسـقت كبـدر التـمام في الـرواء والبهاء والصفـاء، يـا لهـا مـن غانيـة فاتنـة سـاحرة! لا توجـد فتـاة أجمـل منهـا في السـودان، يدهـا بضـة ناعمـة غضـة عطرهـا صـارخ منسـكب عـلى الـدار، جسـدها مكتنـز مشرقـة، صافحتنـا عـلى عجـل وسرعـان قفلـت عائـدة، هـل هـذه زوجـة ملـكال؟ أيخدعوننـا؟ هـذه أمـيرة شرقيـة، يـا لـه مـن

محظوظ! شعرت بالغيرة والحسد، رجعنا ونحن حائرون. هذه ليست زوجة لأمثالنا، في الأمر خدعة أو فخ، لم أقتنع بهذا الزواج غير المتكافئ، بنت ثرية جميلة تتزوج جنديًّا فقيرًا حقيرًا وأسود وعبدًا في نظرتهم إليه، اضطجعت على سريري أتقلَّب ذات اليمين وذات الشمال، وأفكِّر في هذا الزواج الغريب، هل بلع توم ملكال الطُعم، لا بدَّ أنَّ حميد البستاني يتآمر، ربما ليغطِّي على أمر ما، الساعة الآن الواحدة ليلًا، كل عنبرنا يغط في سبات عميق. أنا الوحيد الذي عراني الأرق والقلق، أرنو بالنافذة إلى الدجى فيفاقم من لوعتي وحسرتي، ها هو سرير جاري توم خالٍ خاوٍ، هو الآن بين أحضان الأميرة الجميلة الحسناء النجلاء والهيفاء، متى سيأتي، سأسأله أسئلة محرجة عن النساء البيضاوات اللائي نحلم بهن، كم يوم شهر العسل؟ لقد منحه الصاغ وديع حمادة مدة أسبوع عطلة زواج. لا أحد يعرف هذا الأمر غير ثلاثة أشخاص والرابع الصاغ وديع، لماذا أمر وديع توم بأن يظل الأمر في طي الكتمان؟ لماذا لا يتزوجها الصاغ وديع حمادة، أو أحد الجنود المصريين؟

25

فكرت في حظ توم الذي ساق إليه هذه الغانية التي سينام بين أحضانها، بدأت أفكِّر كيف تتعرى وكيف يجامعها، آه يا له من محظوظ! ألا يمكن أن أعثر على حسناء مثلها لأقضي منها وطرًا، يا دينقديت يا إلهي القابع في غابات الجنوب، يسِّر لي عربية جميلة كما يسَّرت لتوم ملكال، أنت قادر وخالق وبديع، وفقني قبل السَّفر، لماذا ساعدت توم؟ هل أنا لا أستحق؟ أتوسل وأتضرع لك في خشوع وخضوع وخنوع، أن تمنحني فتاة بيضاء كأسمهان، إذا كنا سودًا، وأنت خلقتنا هكذا، لما لا تتيح لنا فتيات بيضاوات؟ كزهور الياسمين، سأتوقع أن تلبي رغبتي يا إلهي! لا يعجزك شيء، جرَّبناك عرفناك. طيب وجميل ومطيع وقوي، أرجو أن توافق على غرضي وطلبي خلال هذا الشهر، يا أقوى آلهة الكون الوثنية وغير الوثنية، في غابة المقرن سأبني لواكًا – معبدًا وثنيًّا، كمعابد الجنوب، لأعبدك فيه، وسأضع فيه كل الأوثان التي ترمز لك! لتراني، فإن لم أكن أراك فأنت تراني، ما أحد نظرك! وهذه هي أيقونتك المقدَّسة من الأبنوس الجميل! من ملكال مدينتنا المقدسة تراني الآن ضائع في بلاد الرعب والعرب العجيبة، من خلقتهم لا يأتون إلَّا رقيقًا للبيع، انتقم من المسلمين الذين يتاجرون بمخلوقاتك السوداء كسلع! أفضل انتقام أن نتزوَّج منهم ونجامع بناتهم وهن مكرهات. الزوجة كالأمة، اجعل لنا إماء عربيات؛ لنثأر لننتقم، الويل لهم! أتسمعني وأنت في الاستوائية وبحر الغزال وأعالي النيل وسط الأدغال؟ شعرت بالوسن يتسلل إلى أهدابي ويداعبها، الساعة الآن تناهز الثانية ليلًا، البرد قارس، لأن الفصل شتاء، سكنت المدينة الصغيرة التي نقل لها العاصمة الحكمدار عثمان بك جركس أو البرنجي كما قالوا لنا.

وكانت الخرطوم قرية صغيرة جدًّا في ذاك المقرن، الذي يقع ما بين النيل الأبيض والأزرق، لجمال موقعها ولسوء الأحوال المناخية بسنَّار التي لم تطب للجند، بسبب الأوبئة والأمراض. أنين السواقي حرَّك أشجاني وشيئًا فشيئًا سبحت في خضم النوم، لم أغرق في النوم. شعرت بأن الباب ينفتح، لم أخرج رأسي من تحت البطانية، وأنا شبه نائم بين مخالب الوسن، شعرت بشخص يجلس على سرير توم ملكال العريس، الجلوس أحدث صوتًا، لاحتكاك الأخشاب، رفعت رأسي لأرى الشخص الذي استولى على سرير توم، يا للعجب إنه توم ملكال بشحمه ولحمه كبقعة سوداء تنصهر في دجى الغرفة، غمغم همهم بتلعثم وتلجلج قلت: توم ملكال، سرعان ما قال: نعم صباح الخير، وثبت وجلست القرفصاء مستفسرًا ومندهشًا، لماذا أتيت؟ أليس هذا اليوم الأوَّل لشهر العسل؟ قلت له بدهشة:

- لماذا أتيت؟ كاد الفجر يطل، لماذا؟ أين العروس؟

قال لي بحسرة ولوعة وكآبة وتلعثم:

- تحدَّث بصوت منخفض ألا تعلم بأن الأمر سري؟ هذا حديث طويل، سأخبرك عند الصباح.
- لا، الآن!
- إذا كان لا بدَّ فهيا خارج العنبر.
- لا مانع هيا!

وثبت وهرولت خارج العنبر والجنود يغطون في نوم عميق، يشخرون كحملان مذبوحة، يمنا غرب المعسكر حيث الشجر الكثيف، ذاك النيل يجرى ويضحك ويغنِّي والدوح ترقص، وعلى دكة قبع صديقي المحطَّم والمهشَّم جسدًا ونفسًا، زفر تنهَّد تأوَّه، جلست أنا

على جذع شجرة سنط، أجهش في البكاء انتحب بصوت كنهيق الحمير. أغلقت فمه كممته، حذرته، قد يستيقظ الجنود وينكشف أمره، دمدم بحزن مكظوم ومكبوت:

- سأحكي لك ما جرى بكل صدق لتعلم بأننا فعلًا عبيد مغفلين، كما يصفوننا كل همنا الخمر والنساء واللحم، أخي كوال دينق كير، أو كما يناديك المستعمرون - نيازي شسمون الجبار، هذه قصة طويلة ولكن سأحكيها باختصار، دخلت عليَّ العروس مزهوة، جميلة جدًّا، فاتنة ساحرة، وقفت لأصافحها، أشاحت بوجهها رفضت. لم تمد يدها. مددت يدي صاغرًا، جلست ثم حاولت أن أتحدَّث معها. لم ترد على تساؤلاتي، بدأت تحكي عن أهلها الأثرياء الوجهاء العظماء، والدها أكبر تاجر رقيق في الخرطوم يمتلك أكثر من ثلاثة آلاف من العبيد والإماء، وكلهم مثل لوني، حاولت أن أثنيها عن الحديث لنبقي في موضوعنا الأساسي؛ شهر العسل، لم تتطرق إلى موضوع الزواج، ما زالت تحكي عن عائلتها النبيلة والعريقة ذات الجذور الممتدة في مصر والشام، ثروتها ومنزلتها، تشجَّعت وقمت من سريري على ضوء الفانوس وجلست جوارها، وثبت وتحرَّكت إلى السرير الذي أتيت منه، شعرت بالغضب قلت لها في غيظ:

- يا عروس، ألا يحق لي الجلوس جوارك ومس جسدك؟ ألست زوجك؟

ابتسمت بأسنان كأنها اللؤلؤ ظهر جمالها الحقيقي المخبأ خلف الشفاه العنبية، لا بدَّ من الحديث الناعم لإغرائها وإغوائها ولكن هيهات إنها مهرة جامحة صعبة الترويض، مسست يدها الغضة الناعمة المعطّرة؛ جذبتها قلت: يا أسمهان، حقي الشرعي، اقتربي مني، حرام عيب. لماذا تزوَّجتك، اخلعي ملابسك، دعيني اقترب لأفرقع لك

أصابعـك، ضحكـت بكبريـاء، تحرَّكـت إلى السريـر الثـاني وهكـذا دواليـك، كلـما أدنـو منهـا تهـرب وتفـر، وتـارة أخـرى أتوسَّـل قلـت لهـا: لمـاذا تزوجـتِ، لمـاذا تهربـين؟ هـل لديـك عـذر؟ سـجعت بصـوت عـذب:

- أنت موهوم أو مجنون!
- لماذا؟ هل أنتِ كذلك؟
- أنا؟ اسكت اخرس يا عبد العبيد!
- أنـا أسـود ولسـت عبـدًا. أنـا حـر، أليـس كذلـك؟ ليـس كل السـود عبيـد. أنـا جنـدي محـترم في جيـش الحكومـة المصريـة.
- هذا شأنك. إياك أن تصفني بالجنون والوهم.
- أنت من بادرت بالإساءة، وهم جنون!
- أكررهـا لـك ثانيـة. هـل أنـت كذلـك؟ أنـت لا تعـرف سـومة أو أسـمهان، لـديَّ أسـمان لجـمالي، أنـا فتاتـان في جسـد واحـد، ابنـة الوجيـه حميـد البسـتاني ملكـة جـمال الخرطـوم ومـصر والشـام، ضبَّاطـك يسـجدون لي بـل حكمـدراك يتوسـل ويتـضرع لي ويركـع، تـأدَّب، احـترم نفسـك، ألم يخـبرك الصـاغ وديـع حـمادة؟ ألم تأخـذ الأجـر؟ زواج صـوري ألا تفهـم؟ يـا وحـش مـن الأدغـال لم يلجـم! متـى تفهـم؟ عـشرات مـن أمثالـك يغسـلون لي، ويطبخـون وينظفـون، الـرب خلقكـم لذلـك وليـس لمضاجعـة الغـواني الحسـناوات مـن أمثالنـا، يـا حفيـد كافـور الإخشـيدي، تـأدَّب أمـام سـيِّدتك، أأتعـرَّى لأمثالـك؟ يـا للعـار!
- ألستُ زوجكِ؟
- زواج صـوري لـدرء الفتنـة، آه مـا أروع وديع حـمادة! حبيبي خليلي متيمـي مدنفـي، نحـن روحـان حللنـا بدنًـا. سـل وديـع فهـو بطـل الصفقـة.

أخي بذلت جهدًا كبيرًا لإقناعها ولكن هيهات، مهرة جامحة، غلى الدم في عروقي، استبد بي الغضب والغيظ، فكرت في ذبحها والهرب، فكرت في ارتكاب جريمة بشعة، ولكني ترددت توجست، أخشى النتائج خاصة أنها معشوقة الصاغ وديع حمادة الكلب القذر لماذا خدعني وغرر بي، لا أدري لماذا أنا بالذات؟ ولماذا هذا الزواج؟ ما المقصود منه؟ لإضاعة ثروتي وكل ما جمعته خلال عام؟ لاحظت أنَّ بطنها منتفخة، أكثر مما ينبغي لا تتناسب مع حجمها، لا بدَّ من ابتزازها لأنتزع من مجوهراتها لتعوضني خسارتي، وصلت إلى طريق مقفول، لن تمكنني من جسدها، قالت ابعد يا قرد يا خنزير، لم تستحِ أظهرت افتتانها وحبها للصاغ، لأشربن من دمها، لم أفكر إلَّا في الانتقام. تحسست خنجري المصقول فوجدته يقبع يتلمَّظ.

26

هجمت عليها انقضضت كنمر يفترس غزالًا، سقطت على السرير مرعوبة محزونة، غرست أظافري في عنقها الطويل الأبيض الغض، كممت فمها، هي تتنفس بصعوبة، صوتها حلو كالمزمار، اقترابي منها جعلني أتعمق أكثر في جمالها الساحر، يا لها من حسناء نجلاء! لم أرَ جمالًا كهذا، حاولت أن تقوم متملصة، ولكن هيهات، عززت قبضتي على جسدها، أنفاسها عطرة عذبة، أثارني الاحتكاك بجسدها الناعم الغض، وهي تموء كقطة، قالت لي أرجوك لا تقتلني، أنا بريئة. البستاني ووديع هما اللذان دبرا هذا الزواج الذي أثارك، أنا ضحية لشهوانية وديع للأجساد والبستاني للمال، أنا مكرهة، لعنة الله على وديع حمادة والبستاني.

أرجوك أن تبعد عني سأصرخ. أنت قاسٍ وسادي وزنجي أسود حاقد، أتذل سيِّدتك؟ اعتبرت ترققي و تهاوني ضعفًا، أثارتني بعباراتها الأخيرة، ضغطت رأس الخنجر على عنقها الأبيض والأوردة الخضراء تنساب وتضخ الدم كقنوات حقول، نبعت قطرة دم، تأوَّهت تنهدت صرخت أنَّت، جزعت، قلت لها: يا عاهرة سأذبحك، مسحت سطح الخنجر الفضي بقطرات الدم فغدا أحمر، توجست تصببت عرقًا، انهارت تارة أخري من لسع ووخز الألم، ثم أرعبها وأرهبها منظر الخنجر الملوث بالدم الذي وضعته قرب عينها اليسرى البيضاء النجلاء، خفق قلبها، فعلت قطرات الدم فيها فعل السحر، قلت لها إذا صدقت لن أقتلك قولي الحقيقة. قالت أفعل ما يحلو لك بجسدي شريطة ألَّا تقتلني، أثارني حديثها وصوتها القيثاري، وجسدها الناعم الأبيض، اغتصبتها ثلاث مرات، أشبعت رغبة كانت كالجثة لا تتفاعل,

ثم أعدت الخنجر نحو نحرها الأبيض المصقول، قلت لها قولي لي ماذا جرى؟ ولماذا هذه المسرحية؟ إذا صدقت سأذهب الآن إلى العنبر، لن أقتل فتاة جميلة عاهرة مثلك. سكبت العبرات على خدها المتورد العسجدي، همست بلوعة وحسرة:

- أبي حميد البستاني شرهًا نهمًا إلى المال، يحاول الحصول عليه بأي وسيلة لا يعرف الحرام أو الحلال، أمُّه جدتي طليطلة اليهودية علمته كيف يجمع الثروات ويراكمها بشتى السبل. باختصار كان المقاول والمتعهد لمباني الدولة، يستغل صداقته مع الحكمدار وقائد الحامية وكبار موظفي الدولة الذين أدخلهم في جيبه. سطع نجمه كرجل أعمال ناجح، يعتمد على الرِشى في تحقيق مآربه، العنابر العسكرية التي تسكنون فيها بناها البستاني، وكعادته لا يلتزم بالمواصفات، كم من المباني الحكومية تساقطت وانهارت على رؤوس ساكنيها، ويكفي بيت قمندان الشرطة الذي سقط على زوجته وأطفاله، ثوانٍ وكل البيت ثوى على الأرض، كل الجثث تحت ركام وأنقاض المبنى المغشوش. سلفودان الأرميني بدأ ينافس والدي، يدفع أكثر يقيم الحفلات الماجنة في المواخير غانيات وغلمان، حبشيات وعربيات وخواجيات، الرِشَى قلبت موازين القوى لصالح الأرميني الفاسق، وديع حمادة منافق وتافه، هو همزة الوصل ما بين الحكمدار وقائد الحامية وحميد البستاني، ابتزَّ أبي. طلب أن يتزوجني، بالطبع هو وسيم، وافقت شريطة أن يطلق زوجته لمياء وحيد بالإسكندرية، رفض وأبي أوصد عينيه، يأتي وديع ويأخذني للنزهة على شاطئ النيل والمقرن والغابة، حيث جمال الطبيعة العذراء، كمراهقة أسقطني أغواني أغراني راودني، حملت منه سفاحًا أربع مرات، وتمَّ الإجهاض بواسطة قردة أظافرها كالمخالب، سوداء اسمها شمعة، ويا لها من ظلمة! كادت تخرج رحمي أثناء الإجهاض الأخير، أدخلت يدها الملوثة السوداء كادت تنهش رحمي، بصراحة أدمنت وديع ولم

يعد من السهولة التخلص من المسافحة التي حرمها الرب يسوع، أبي نصراني، رغم الزواج الإسلامي، كله خداع وغش! وواصلنا المغامرة في هذا البيت، أبي ديوث وقواد من أجل الحصول على المال الحرام، ثرواته تتكدس، كتاجر رقيق لدية أكثر من ألف رأس، ثم حملت للمرة الرابعة، وفي هذه المرة رفضت أن تدخل إلى جسدي مخالب القردة شمعة، خفت الموت، والدي وأمي ووديع كادوا أن يربطوني لتنزع شمعة جنين السفاح الذي قبض والدي ثمنه عروض مقاولات، تعهدات عقارات دولة بأسعار مضاعفة، لعنة الرب على حب المال، البستاني أفسدني دفعني لألبِّي رغبات ذاك الشهواني بشذوذه الجنسي، لعنة الرب عليه، كدت أكون ضحية لنزوات البستاني ووديع، ولكن الرب موجود، جعلوك يا سوداني ضحية وكبش فداء؛ سيقولون تزوَّجتِ وأنجبتِ من سوداني، هذه هي القضية، لقد زعم الخبيث بأنك موافق على الزواج الصوري، وستتبنى المولود الذي سيتخلص منه بالسم في الشهر الثاني، هكذا قالت لي الأمة شمعة الخبيثة، رفضت الإجهاض، رؤية مرعبة مزعجة باغتتني بكابوس مخيف، بأني سأموت في أثناء الإجهاض، دخلت القبر وأنا بزفافي وكامل جمالي وأناقتي داخل التابوت المعتم المستطيل، أحاول الفكاك ولكن هيهات النجار يغلق التابوت وعربة تجرها الحصان وعشرات بل مئات الباكيات، أمِّي تكاد تموت من الحزن، ما أعمق اللحد، استيقظت وجلة مرتجفة مرتعدة، هل يوجد من لا يخاف الموت؟ كلا، والجنين يتحرك في جوفي، وضعت يدي على إنجيل متَّى، أقسمت بيسوع الرب ألَّا أقبل إجهاضًا، عجزوا عن إقناعي بشتى الوسائل القذرة وأبي الشهواني، أخيرًا قرروا هذه المهزلة، أنت وأنا كلانا ضحية لظلم وجور الإنسان، هأنا أعترف لك اعتراف محتضر أمام كاهن داخل كنيسة، ثم بدأت تبكي وتنوح وتجهش في البكاء والنحيب، أمسكت يدها ونزعت منها ثلاث غوائش هذه

هـي في جيبـي، أعتقـد أنهـا تعـادل خسـارتي، قالـت لي خـذ الذهـب كلـه، وهـو ملـك أبي الـذي ظلمـك، حزنـت للجـرح الـذي شـوَّه رقبتهـا الطويلـة البيضـاء المصقولـة، قلـت لهـا: أنـت طالـق ثـلاث مـرات، رغـم كـوني وثنيًّـا وهـي مسـيحية، فعلـت كـما يفعـل المسـلمون حينـما يكرهـون زوجاتهـم الناشـزات الجانحـات الجامحـات، أخـي كـوال دينـق كـير، أو نيـازي، كـما يحلـو للرجـال الحاميـة أن ينـادوك أو يسـمُّوك.

- الشـكر لإلهنـا دينقديـت الـذي أنقـذك مـن الكفـرة، هـذا الذهـب ربمـا يزيـد عـلى خسـارتك.
- سـأذهب غـدا إلى الصائـغ وسـأبيعه ومـا زاد سـأرده إلى وديـع حـمادة أو حميـد البسـتاني.
- يا لك من صادق أمين! هكذا دأب الوثنيين عبر القرون.

27

الابـن قرنـق دينـق كـير، العـرب يلعبـون بنـا، ألم تحـزن لقصـة زواج العبـد، كـما يزعمـون؟ الـرب وحـده في أدغـال الجنـوب سـينتقم مـن العـرب المسـلمين السـودانيين والمصريـين، مللنـا العنابـر والتدريـب والطوابـير، اشـتقنا إلى السـفر لمـصر وهـل يوجـد مـن لا يتطلـع إلى رؤيـة مـصر أم الدنيـا كـما يقولـون، بلـد حكامنـا البيـض، أكثرنـا مـن الذهـاب إلى النهـر، أدمنَّـاه في زمـن العصاري، وقبـل المغيـب نصطـاد السـمك ونسـبح ونتجـول في الغابـة، ونـشرب المريسـة التـي نحبهـا في حانـة صغـيرة جـوار النهـر، وهنـاك أكـواخ دعـارة وخمـور، المومسـات أجنبيـات خواجيـات للأثريـاء، العاهـرات الخواجيـات يرفضـن إدخـال أمثالنـا رغـم نقودنـا، عنصريـة في الدعـارة والجنـس، والغريـب أنهـن يدخلـن أبنـاء العـرب مـن البـدو، لمـاذا هـذا يـا عاهـرات الخواجـات؟ أيدفعـون أكـثر؟ لكنهـن يبعـن لنـا النبيـذ وخمـر المريسـة والعسـلية والعـرق، معهـن إمـاء مـن جنسـنا مسـتعربات يخدمنهـن ويصنعـن الخمـور، أعتقـد أنهـن مـن سـلالتنا نفسـها، إحداهـن رطنـت معـي بلغتنـا، قالـت اختطفـت مـن بحـر الغـزال وهـي طفلـة بيعـت لهـذا الرجـل جيمـس روبـرت صاحـب الماخـور والحانـة قبـل خمـس سـنوات، إنـه يمتلـك أسرابًـا مـن الفتيـات الهاربـات مـن أهلهـن، يضعهـن وسـط الدغـل في حصـن أمـين، داخـل مواخـير الخرطـوم سـيقعن في أيـدي أهلهـن، وسـيذبحونهن، هنـا الماخـور آمـن ولا يسـتطيع أحـد أن يجامـع عاهـرة إلَّا بعـد التأكـد مـن هويتـه، في العـام الماضي، جـاء بـدوي إلى بيـوت الدعـارة متخفيًـا متدثـرًا طالبًـا مجامعـة فتـاة جميلـة، وهـو يبحـث في الأصـل عـن أختـه الهاربـة الجميلـة، فائـزة سكسـك رحبـت بـه، دفـع بسـخاء، ودفعـت القـوادة بوحيـدة الجميلـة، كوجبـة شـهيَّة! وحينـما رآهـا وثـب وانقـض عليهـا كـما النمـر، طعنهـا مائـة طعنـة ثـم ذبحهـا واجتـث

رأسها، علق الرأس في مدخل الماخور، وهو يصيح، أنا أيوب سراج الدين، انتقمت من أختي وحيدة سراج الدين، بالأمس قطعت رأس من زنا بها وأحبلها سفاحًا، واليوم قطعت رأسها، أين الشرطة؟ لهذا الخواجة يخاف على الفتيات الصغيرات من القتل، وكلهن هربن من أهلهن بعد أن حبلن سفاحًا، هنا يوجد زبانية وسدنة للحانة والماخور، هم منحرفون قوادون، يمارسون الشذوذ مع الخواجة ويحرسون الماخور كقوادين، يعلفهم كالثيران، يدخنون يشربون يتعطرون يدهنون شعورهم وأجسادهم بالعطور والزيوت كما النساء تمامًا، فيهم الأمرد الوسيم وفيهم من يحلق لحيته وشاربه كالفتاة الحسناء، أصواتهم رقيقة ناعمة كالغواني، الخواجة ملك هذه الضيعة المنحطة، يمشي كالطاووس مختالًا، عدد هؤلاء الشباب سبعة، كانوا يتمتعون بشجاعة رغم انحرافهم وإدمانهم الخمر والشذوذ، كذلك يوجد شباب يرتدون ملابس نسائية يتجولون بين مواخير المدينة يجاهرون بشذوذهم. الدولة لا تمنعهم بل كثير من الحكام يشجعون ويمارسون الشذوذ، جنودنا السود المنحدرين من سلالة البازنجر لا يعرفون الشذوذ، يحبون الخمر والنساء ولا يبالون في معاقرة الخمر والنساء بل كل رواتبنا نصرفها على شهواتنا الجانحة والجامحة، جنوب منتجع الخواجة توجد حانة بائسة يديرها عبيد آبقون هربوا من مالكيهم واختبأوا هنا جوار النيل في الغابة، أسعار خمورهم رخيصة، لكنها قذرة ورديئة لا يهتمون بالنظافة، معهم إماء هاربات عملن بالدعارة، ولقبحهن لن يجدن عشاقًا فلذن بهذه (الإندايا) فوجدن من كبيرها ألماظ بارود كل احترام وتقدير. أعطاهن أعشاشًا وجعلهنَّ يصنعن المريسة ويبعنها مناصفة، كل الجنود وعددهم أربعمائة. صاروا زبائن لألماظ بارود، وهم من عترتنا، ازدهرت الحانة وتوسَّعت، حتى كاد ألماظ يسحب البساط من الخواجة بسبب المعاملة الجيدة والكرم وطيب المعشر

وتـدني أسـعار الخمـر، طلـب الخواجـة أن نـأتي لنـمارس مـع غانياتـه الأجنبيـات ولنـشرب خمـره، ولكـن هيهـات، رفضنـا الدعـوة، كـم مـرة تكـبَّر وتعـالى علينـا وسـمعنا العبـارات العنصريـة، كلا سـنشرب كعبيـد في حانـة العبيـد. فـرح ألمـاظ بـارود أيمـا فـرح. عرفنـا أنـه مختطـف مـن قريـة كـواج جـوار قريتنـا، خطفـه تجـار الرقيـق وباعـوه ثـم حـرر نفسـه بعـد أن أعتقـه سـيِّده مقابـل مئتـي ريـال دفعهـا شـيخ مسـحن، ظللنـا نقـول لـه يـا أبانـا، وهـو يقـول لنـا يـا أولادي، تـزوَّج عـشرة جنـود مـن عـشر إمـاء مـن سـلالتنا، وتركوهـن يعملـن ثـم يأتونهـن ليـلًا. قويـت علاقتنـا مـع حانتنـا، حبلـت ثـلاث، كلهـن مـن قبيلتنـا، بدأنـا ننظـر إلى الخواجـة بـازدراء، كـم أهاننـا وطردنـا، بـل قـال بنـاتي لا يمكـن أن يمارسـن الجنـس مـع أمثالكـم، مـاذا جـرى لـك يـا خواجـة؟ لمـاذا تتسـول عهرنـا وتبتـذل نفسـك وتبيـع كرامتـك رخيصـة؟ لأن دخلـك قـلَّ بسـبب شرهـك وطمعـك للـمال، نسـاؤك غاليـات ألأنهـن بيضـاوات؟ خمـرك أغـلى لمـاذا، ألأنـه تصنعنـه عاهـرات حبشـيات صفـراوات وبيضـاوات؟ مـت كمـدًا بغيظـك وكيـدك أيُّهـا اللـو، المنحـط والمنحـرف، في أقـصى الجنـوب توجـد أكـواخ المجذومـين المعزولـين، كنـا نسـاعدهم ونقـدم لهـم المريسـة والأكل، وكذلـك كان يفعـل عمنـا ألمـاظ، دفعهـم الخواجـة جنوبًـا؛ طردهـم، كانـوا جيرانـه، قبـل أن يؤسـس ماخـوره وحانتـه، ولكـن مـا أظلمـه! سـلط عليهـم ثلاثـة مـن الشرطـة المرتشـين فحرقـوا أكواخهـم، لكيـلا يعـدوا النـاس كـما زعـم الخواجـة الملعـون جيمـس روبـرت، طردهـم نفاهـم عزلهـم عـزل البعـير الأجـرب، رغـم ذلـك المعـزل، فهـم سـعيدون بالنـأي عـن مسـتنقع الدعـارة والخمـر، مسـلمون يصلـون ويصومـون ويشربـون الخمـر التـي يحرمهـا دينهـم، بؤسـاء جيـاع يصطـادون السـمك لا غـيره، المريسـة غذاؤهـم مـع السـمك، لا يوقـدون نـارًا هـم في ظـلام دامـس، بـؤس ومـرض وعزلـة، ذكـر لنـا العـم ألمـاظ بـأنَّ الحكمـدار الرجـل الأوَّل في السـودان، أحيانًـا يـشرف ذاك الماخـور - ماخـور الخواجـة –

ليلهو، وحينما تستشرف طلائعه الدار يُطرد الوجهاء والنبلاء، وبعض الغوغاء يرفضون، عندئذ يتصدى لهم الشواذ جنسيًّا وهم زبانية وسدنة الماخور، ورغم ميوعتهم وخلاعتهم فهم يحاربون بضراوة وبسالة ويجندلون الأعداء جندلة، كم مرة أغرقوا العنيد العربيد المشاكس لتتعشى بجثته التماسيح، كم طردوا وتنكروا وقلبوا ظهر المجن لأصدقائهم، حينما يحسون بمجيء الحكمدار لا يتساهلون لا يتوانون في قمع وبطش أي كائن من كان، كما دربهم الخواجة شيخ الماخور، فالحكمدار يدفع بسخاء ولا يحب الضوضاء، يحب الكواعب الغانيات المغنيات الشرقيات، يذبح ويولم وينفق بسخاء في هذا المنتجع الساحر، مع همس النهر وضحك الموج، وعطر ورود الغابة والصلصال، هنا جنة الله في أرضه ليلًا، يختلط الحابل بالنابل والعم ألماظ يتجسس ويتحسس ويحصي أنفاسهم رغم تهديد العسس له لكي ينأى عن دائرة الخواجة المنداحة المتشظِّية والمتناسلة، في كل يوم يبني كوخًا ويحتضن ويحتوي غانية متبرجة بائعة للهوى وهي في ميعة وريعان الشباب. ويعرضها لرجال الجاليات الأوربية حيث يتسللون خلسة إلى وكره، يغنون، يرقصون، يسكرون، يسبحون، يلعبون، ويزنون ويدفعون بسخاء لهذا الشهواني المدعو جيمس الأوروبي، في ذاك المساء تأخرنا في حانت الزنوج، سكرنا طربنا غنينا غناء الجنوب، قبَّلنا أوثاننا وهي لربنا دينقديت، لك فرد أيقونة في جيبه مصنوعة من الأبنوس، شكرناه على نعمه! طربنا رقصنا وثبنا بإيقاعاتنا الإفريقية الحارة، وإلهنا دينقديت كما نعتقد جاء من الجنوب ثملًا يرنو إلى مخلوقاته وهي ترقص وتغني بعيدًا عن معاقل البازنجر، كانت مأدبة راقية رائعة ذبحنا سكرنا، كاد السامر ينفض، جاءنا العم بارود وهو يهمس: جاء الزائر الكبير زير الغواني، وقفنا كما طلب، علينا أن نوقف الألحان والرقص، وإلَّا زلزل الأرض تحت أقدامنا زلزلة، ران الصمت كصمت القبور، العم مرتعب

مرتبك مضطرب، عرفنا من ساقيتنا نياكور بأن الحكمدار قد جاء إلى حانة الخواجة، انفضَّ السامر خوفًا من العسس والجلاوزة، تسللنا في جنح الدجى تساعدنا ألواننا السوداء وظلال الأشجار الراقصة، والعتمة وجذوع أشجار السنط تسهم في إخفاء تجسسنا وتحسسنا للحاكم الشهواني الذي تسلل ليرقص ويغني مع كواعب في أعمار بناته، يُقال إنه أعدم غرقًا الشاب الوسيم وليم بيتر الألماني حينما علم بعشقه ابنته ناريمان الكاعب الجميلة، فكرت في أن تهرب معه إلى عدن لتُعمَّد لتُنصر، ليُعقَد القران في كنيستها، ثم يهربان على متن سفينة إلى برلين، عسس الحكمدار اكتشف المؤامرة فقبضه واغتصبه ثم أغرقه بإيعاز من الحكمدار، زعموا بأنه انتحر وفي اليوم التالي انتحرت ناريمان لحقت بعشيقها بحبيبها الراحل، هذا الرجل خطير ومثير للجدل، لا غرو أن تجنبه العم ألماظ بارود، فأوقف الطبول والرقص سيغرقه كما أغرق الخواجة، ها نحن نختلس النظرات كلهم على شاطئ النيل رقص شرقي دفوف ومزامير وقيثارة. ها هو الرجل الأبيض الأبطن المترهل ترهل الخنزير يراقص ويلاعب ويلاطف كاعبًا جميلة، تتثنى وتتأود أعطافها، كما لو أنَّ جسدها اللدن البض الغض بغير عظام، فجأة كنمر خطفها واحتضنها واحتواها وهرول بها لداخل الكوخ الخشبي، غابا في بحار الشبق العميق اللذيذ. بقية المجموعة من العاهرات والمخنثين امتطوا ثلاثة زوارق وهي تطفو بهم وتمخر عباب النيل الأبيض وهم يغنون ويرقصون داخل المراكب التي توغلت وتغلغلت غربًا، تركوا الفتاة مع الرجل الشهواني ليقضي منها وطرًا، كدت أسمع غنجها، أوشك أشان صديقي أن يرى ما جرى فهو قد التحم بالكوخ، وطفق يحدق ويحدق، من خلال فتحات الألواح الخشبية، يا له من فضولي! وفجأة خرج الغطريف الظريف البهلول حاكم الدولة عاريًا إلَّا من سروال قصير ضيق، مترهل بطنه كبطن المرأة الحبلى في شهرها

التاسع، والفتاة كانت تنتحب، لا أدري ماذا صنع بها، زمجر بحدة: يا صفوان يا بطران يا مهران هلموا! فجأة رأينا أشباحًا تعدو نحوه بسرعة مذهلة، انتصبوا أمامه صاغرين وبنادقهم مصوبة نحو السماء الزرقاء، هتفوا بصوت موحد مشروخ: لبيك وسعديك يا سعادة الحكمدار، أردف قائلًا في حده وكبرياء: ما هذه النار التي أراها جنوبًا؟ قالوا برعب: هذه حانة العبيد الزنوج، قال: ألم أقل للخواجة جيمس التافه لا أريد عبيدًا على شاطئ النيل ليلًا ولديَّ تامر وبنتي جوهرة لا أقبل بهما هنا ليلًا دعك عن عبيد أو زنوج، أحرقوا الأعشاش لكي نتعشى بضوء الحريق، أضرموا النار في هذه الأكواخ بسرعة أزيلوها، قبل أن أفتح عيني، هيا أسرعوا نفذوا أمري، كأمر إلهي حتمي التنفيذ، عندئذ جرى صفوان وبطران ومهران نحو حانتنا، تسلل العم ألماظ بارود، اختفت البنات هرولن خوفًا من بطش وقمع الجلاوزة، هربن نحو عمق الغابة الجنوبي الكثيف، كلنا اختفينا تبعثرنا، إذا شعر بنا الحرس لأطلق علينا النار، سرعان ما أضرموا النيران على أعشاش عمنا ألماظ ثم أطلقوا النار في الهواء. الأكواخ تتقد تستعر تشتعل، ألسنة اللهب الأرجواني القاني تتراقص بشهيق وزفير وحسيس، محرقة هائلة تلألأت داخل لجج الماء الزرقاء كنيران تحت الماء المصقول، لم يستطع أحد التصدي لهم، كم بكينا وحزنَّا، الآن التشريد بالجملة لعشر نساء وسبعة رجال، هاموا على وجوههم، احتموا بالدوح الكثيفة، المتزوجات اللائي أنجبن خطفن أطفالهن وتوارين، النار تلتهم الأواني والأساس وكل محتويات الدار بما فيها النقود والثياب، يا له من قرار أهوج نبع من نفس سقيمة سكيرة عربيدة مشوَّهة، يريد أن يعبث ليلًا دون أن يراه أحد من الرعية. هربنا إلى عنابرنا محزونين ولا ندري ماذا فعل الرب دينقديت بالمشردين، هكذا كتب الرب على سلالة البازنجر أن تتعذب في كل زمان ومكان!

28

الخرطوم مدينة صغيرة شوارعها ترابية ضيقة قذرة غير معبدة، تتراكم فيها القمامة التي يتطاير ويطن ذبابها وتموء قططها، إلَّا الشارع الذي يربط سرايا الحكمدار بالحكمدارية، وهي رئاسة الحكومة. معظم مباني الخرطوم من الطين والقش والشكاب، ما عدا المباني الحكومية التي بنيت بالطوب الأحمر.

في مساء اليوم التالي تسللنا إلى الغابة المطلة على النيل الأبيض، يا للأسف وجدنا سلالتنا تحت الأشجار، الرجال والنساء في حالة مزرية كئيبة، حرق الشيطان مأواهم وهو يرقص عاريًا بجسده المنتفخ الفليني كفرعون دون أن تطرف له عين، بكى العم ألماظ حتى انتحب، كفَّ عن البكاء بعد نحيب طويل. قال لنا:

- الحمد لله جاء الخواجة جيمس واعتذر وحدد لي هذه البقعة لأبني فيها داري الجديدة، لو تلاحظون بأنها تبعد أكثر من نصف كيلو متر، بيننا الغابة السميكة الكثيفة، لن يرانا الحكمدار مرة أخرى، أجرَّها لي الخواجة بمائة ريال سنويًّا، سلمته إيجار أربع سنوات نقدًا.

قلت له:

- الخواجة الأجنبي يقبض منك إيجارًا، وأنت المواطن؟
- كل الشاطئ منحه الحكمدار للخواجة.
- ليمارس فيه الدعارة والشذوذ.
- نعم هذه سلوك جيمس، لعنة الله عليه وعلى الحكمدار

الشـهواني، والغريـب أن اسـمه محمَّـد الرشـيد! هـذا ليـس رشـيدًا ولا مسـلمًا، سـلوك المسـلمين ليـس كهـذا الكلـب الـذي أمـر بحـرق دارنـا كـما فعـل الإمبراطـور نـيرون بالأحيـاء الفقـيرة في رومـا العاصمـة ذات يـوم.

جلسـنا وسـط الأعشـاب، وتحـت ظـلال الأشـجار، الفصـل خريـف، لـو هطلـت أمطـار اليـوم سـيموت كل الأطفـال، الغيـم يتهـدَّل داكنًـا، قـوس قـزح يرتسـم عـلى صـدر السـماء بألـوان الطيـف الزاهيـة، بلابـل تغـرِّد، غربـان تنعـق، بـوم ينعـب، صقـور تسـف وتعلـو، أغنـام تمـرع الـكلأ، الغابـة مـواراة مكتظـة بالسـوام، مراكـب صيـد السـمك تطفـو سـابحة عليهـا صائـدون عـراة، المـوج يعبـث بزوارقهـم الخشـبية الخفيفـة. هـذا المـكان الجديـد الـذي صـدَّق بـه الخواجـة عـلى عمنـا ألمـاظ لا يبعـد كثـيرًا عـن أعشـاش المجذومـين والمجروبـين والمجدوريـن، داء الجـدري والجـذام والجـرب فتـك بهـؤلاء البؤسـاء التعسـاء في معازلهـم يكابـدون المـوت البطـيء. حزنـوا لمـا جـرى لألمـاظ، لأنـه كان يتصـدَّق عليهـم بالمريسـة (والمشـك) ليلعقـوه، وهـو زبالـة الـذرة بعـد عـصره وامتصـاص عصارتـه وتحويلهـا لخمـر، الحكمـدار يمنـع أي مجـذوم أو مجـروب أو مجـدور، أن يدنـو مـن الأسـواق، لهـذا كُتبـت عليهـم عزلـة أبديـة مميتـة، مـن يمـوت منهـم لا يجـد قـبرًا، هـم لا يسـتطيعون الحفـر بسـبب سـقوط أصابعهـم وتـورُّم وتقـرُّح أياديهـم، لهـذا وجـدوا مقابـر سـهلة لا تكلفهـم عنـاء الحفـر، إذ يدفعـون الجثـة لتطويهـا لجـج النهـر، حيـث تفترسـها التماسـيح التـي لا تعـاف لحـم الجـذام، النهـر مقبرتهـم، بكـوا للكارثـة والنكبـة التـي حلَّـت بعمهـم ألمـاظ بـارود، صـار مثلهـم في التـشرُّد. تشـاور كل أبنـاء البازنجـر تلـك السـلالة الفقـيرة الحقـيرة التـي كُتِـبَ عليهـا الشـقاء، تـبرَّع كل الجنـود المنحدريـن مـن الجنـوب براتـب يـوم وهـو ريـال، جمعنـا النقـود وشرعنـا في شراء مـواد البنـاء القـش والحطـب كتـبرع كدعـم للعـم المنكـوب، كلنـا أسـهمنا في البنـاء، وفي ظـرف أسـبوع أعدنـا بنـاء الـدار الجديـدة، بصـورة

أجمل وأروع من الأكواخ المحروقة، ثم اشترينا الأواني والملابس وبراميل وجرادل وأدنان المريسة، بدأت الحانة تعمل كل الجنود يشربون ويرقصون ويتغنون بغير مضايقات، حانة العبيد، حانة الزنوج، حانة البازنجر، مسميات العرب لا تغيظنا، المهم ابتعدنا عن حانتهم وهم ينظرون إلينا باستخفاف حينما نشرب في حانتهم في الأيام الأولى. نشرب ثم نرقص ونعوم - سعادة ما بعدها سعادة.

كلنا نتعاطف مع أبناء المرضى، وهم يدنون يوميًّا من الحانة بحثًا عن الطعام. الجرب والجذام والجدري حال دون عمل المعزولين المنبوذين، لهذا فهم يتسولون، العم ألماظ كريم كعادته، حدد لهم وجبة، وهي بليلة دخن ممزوجة بالروب، ثم يعطي كل ثلاثة دلنق عسلية أو مريسة، كانوا سعداء بالوجبة، ولكنهم حينما يسكرون يعربدون ويسبحون، فتجدهم التماسيح فرائس سهلة في كل أسبوع تصطاد صبية أو صبيًّا غضًّا تفطر بواحد وتتعشى بآخر رغم تحذير ألماظ، هم يجيدون السباحة كالسمك ولكن التماسيح ذات الفكوك المفترسة المتلمظة تختبئ تحت اللجج وهي أذكى منهم، الجرب ظاهر على أجسادهم المسمرة، أمَّا الجذام فلم يظهر على أجسامهم المغبَّرة.

ومع هذا العذاب يأتي الخواجة ما بين الفينة والفينة ليبتز ألماظ بأخذ المزيد من النقود لكي يسترضي المرتشين ويجنبه غضب الحكمدار اللئيم الذي وهبه هذا الشاطئ السياحي المشجر والمعشوشب والمخضوضر، حاولنا صدام الخواجة ولكن ألماظ حال دون ذلك، منعنا فهو يعرف غدره وكيده وحقده، كان يخشاه كما يخشى الغضنفر.

اتضح أن المكان الذي اختاره الخواجة لبناء الإندايه، وكر للتماسيح تتكاثر فيه دائرة مغلقة لتلك الوحوش الضارية، كلما حاول مجذوم أو مجروب الاستحمام أو الشرب تنهشه التماسيح، حتى الآن اصطادت

عشرين فريسة فيهم عشرة أطفال، كل التدابير فشلت في تجنُّب هجمة هذه الوحوش النهمة للحم الإنسان، ما أضعف ذاكرة الصبيان! حذِّروا مرارًا وتكرارًا ولكن هيهات لا بدَّ أن يسبحوا ويلعبوا داخل الماء مهما تكون النتائج، شاهدوا تمساحًا عشاريًّا يضرب الطفل ميمون بذيله ليسقطه داخل اللجة ثم يطبق فكه على أيوب ويلتقم شول، ثم ينهش ميمون ويختطفه، ثلاثة أطفال بضربة واحدة، ورغم ذلك في اليوم التالي جاؤوا يلعبون في اللجة نفسها التي تقبع تحتها التماسيح المتربصة والمتحفزة للانقضاض، حزن العم ألماظ هو يرى بكاء الثاكلات من الأمهات اللاتي فقدن فلذات أكبادهن بتلك الصورة البشعة، أحضرنا صائدَ تماسيح من أمدرمان لقتلها، قبض خمسة ثم اصطاده كبيرهم فتعشى به، جاء أخوه ولم يستطع إنقاذه، هرب، قال هذه التماسيح كلاب الشياطين بينها تمساح ساحر.

جاء كبار صائدي التماسيح من أم درمان إلى حانة الخواجة بعد أن أغراهم بالمال، حددوا مقابعها داخل الماء، لذلك دفع الخواجة بمعازل المرضى وحانة ألماظ إلى عقر دارها ليرتاح من شرها، لأنها افترست ثلاث عاهرات خلال عامين، والغانيات الأجنبيات يفضلن السابحة، كم مرة استأجر دروعًا بشرية لتكون حائط صد لتسبح الغواني بأمن، وأمامهن قوس من الرجال المهرة السحرة، ولكن يا للأسف اصطادت التماسيح عشرة من الدروع البشرية رغم أسلحتهم الروحية والمادية.

بدأت التماسيح تدب وترعى خارج الماء بحثًا عن الفرائس، استأجر العم ألماظ بارود حارسًا ليمنع الصبيان من السباحة، وليشرب الناس الماء من المستنقع (المليعة) الذي يخلو من التماسيح بعد انفصاله من مجرى النهر بعد الفيضان، قلَّت الخسائر، ولكن الحارس كان نهمًا لا يشبع من الطعام والمال، زير غوان يراود الفتيات، أرهق ألماظ فأوقفه عن العمل، لجأ إلى حيلة أخرى بدائية وساذجة لم أكن لأقتنع بها

ولكنه أصرَّ، اتفق مع ثلاثة من السحرة، أحدهم من سحرة فازوغلي بجنوب النيل الأزرق، وآخر من سحرة تمبكتو بمالي، والثالث زنجي قدم من كانو بنيجيريا، ساحر تمبكتوعليون اعتذر في آخر لحظة وترك المهمة للساحرين الماهرين. قال يعقوب كانو بعد أن غطس: هذه قرية سأطرد تماسيحها للضفة الغربية، بل سأرجعها إلى بحر الجبل والزراف، سأسوقها سأقودها كما يفعل الراعي مع الغنم، قال خوجلي فازوغلي: سأغرقها لتموت في قاع النهر، سأشلها، سأنظف الشاطئ منها، وافق العم ألماظ على شروطهم. مبلغ كبير جدًّا يناهز مائة ريال لكل ساحر، وفر هذا المبلغ خلال عام، أراد أن ينقذ به الأطفال الأبرياء وذويهم بل كل سكان حانة الزنوج. كنا أكثر من خمسين من الجنود البازنجر، حضرنا قُبيل الغروب لكي نشاهد طرد التماسيح باكية صاغرة كما تعهَّد السحرة، كنا نظن بأن سحرة تمبكتو أمهر وأخطر ولكن عليون اعتذر وترك المهمة لرجال كانو وفازوغلي. ها هما الآن يجريان الطقوس، قال يعقوب برطانته المبهمة الملغزة (عقرب فنابستم زنكويلا أوله كولن جاز وسبَّر دينون كنعون بيحون، دباري كجاري قماري شللن دبكن، آمين يا الله) تفل على يديه بضع مرات ثم مسح وجهه الدميم، همهم غمغم رطن جمجم حمحم، بدأ رويدًا رويدًا وهو يتحرك نحو عمق الماء متلعثمًا متلجلجًا مترددًا، أمَّا خوجلي فقد رطن بلغة الأنقسنا بجنوب النيل الأزرق بعد أن أودع نصف المبلغ في جيبه، وبعد إكمال المهمة سيتسلم النصف الثاني، دلك جسده بدهان نشاز، نثر مسحوقًا أبيض على رأسه، مضغ عروقًا، تفل على كفيه وهو ويرتِّل عبارات أعجمية (سو قررمل كنشح كندغ تانقل أنا غش باسو سنديل منديل كرمرم كرفعم جاغوز بارنقع، كانكي بعجع شنخل) ثم أردف قائلًا: آمين يا الله! وأخيرًا جرى دار حول الشاطئ، كما لو أنه يطارد كائنًا غير منظور، ثم سقط بقوة على الماء بارتطام مدوٍّ، غاص

ولم يطفُ أو ينبع، ما زال يعقوب يتلكأ متوجسًا، علامات الفزع ترتسم على وجهه الأسود، فتح كفيه وطفق يرطن (كناشي بجاشي هندوم كعوم مسمج بنج دود سرهان كجامي سندهارو غبيث دهلوز مللوز دنجوز، آمين يا الله آمين يا الله)

كان ذاك اليوم يوم عيد الفطر المبارك كما يقول المسلمون، ونحن كوثنيين لم نحفل به كثيرًا، تهمُّنا في المقام الأوَّل عطلته، كل همنا أن نأكل اللحم ونشرب الخمر بعد أن مللنا التدريب الطويل الممل في الخرطوم. جاء مجنون، ومعظم المجانين يأتون إلى حانة الزنوج لأكل المشك أو الدامشيك وهو مخلفات الذرة بعد عصر المريسة، كان المجنون ينتمي إلى العنصر العربي، أشعث أغبر ملوث الجلباب، شعره متهدل أجعد ملوَّث، أظافرة طويلة حادة مدببة كمخالب قط، جسده قذر كما لو أنه خرج لتوه من المقابر، كان يغني (لاقيتو يوم العيد لابس جديد في جديد لاقيتو يوم الزفة قال لي صلاح اتوفى) كان يرقص ويغني ويضحك ويصفق ويلعق المشك المر، لم نعبأ به، فجأة نزع سرواله الدنس وشرع يتبوَّل واقفًا على النهر، وحينما فرغ غسل يديه ببقية البول ثم مسح به وجهه. زجره العم ألماظ فطلب منه النظافة، فازدجر، سرعان ما استجاب وغسل وجهه ويديه من البول، ثم سقط على الماء بجلبابه ليستحم في سرعة مذهلة ربما خوفًا من التماسيح الجائعة، وتمضمض، ثم دنا من بارود الذي أشار إلى دلنق عسليَّة تحت الشجرة ليشربه، هرول وقبضه بكلتا يديه طفق يكرع ويكرع ويعب من الخمر الخفيف الكحول حتى ارتوى، زمجر: ما أطيب العبيد، لعنة الله عليهم!

لقد طال بقاء خوجلي تحت الماء لم يطفُ، أصابني القلق، فجأة طفا نبع وهو يصارع تمساحًا ضخمًا، يبدو أنه قد قبض رجله، صراع عنيف خوجلي يظهر ثم يختفي، وهو يستغيث ويصرخ! الماء يغلي

يتطاير بموج ضخم ودوامات، ظهر وجهه، صرخ استغاث ثم غطس تارة أخرى، طلب النجدة ولكن هيهات، وبعد هنيهة ابتلعه اليم طوته اللجج، افترسه الوحش الذي ذهب إليه في عقر داره، حزنًا للنهاية المأساوية لذاك الشاب المتهوِّر، ارتعدت فرائص يعقوب أبكر، طفا الخوف على وجهه المنقبض، شرع يتقهقر رويدًا ظهره نحونا ووجه قبالة النهر، وقد شاهد غرق صديقه خوجلي، هو ينسحب بأقل خسائر، الماء يصل إلى صدره. فجأة صرخ وزعق ووثب إلى أعلى وبدأ يدب ويجري وهو مترنح متداع، في لهاث، صوته مكتوم مبحوح مرعوب بغمغمة وهمهمة غريبتين، سقط عند الشاطئ ونصفه في الماء، والدم يجري من وسطه، وهو يبكي كطفل لدغته حية، يمسك ما بين فخذية، صياح يفطر القلوب، على أردافه نهشتين ظهرت ثقوب الأنياب الدامية، هل التهم الوحش إليته، كلا ها هي منتفخة، ماذا جرى والرجل يتقلب على صلصال الشاطئ، لوثه الطين، بحَّ صوته طفق يضعف حتى تحوَّل إلى أنين، دنونا لنعينه ونسعفه والدم ينبع بكثافة ما بين فخذية، يا للمصيبة! اجتث الوحش كل أعضائه التناسلية الثلاثة، نزف دمًا قانيًا، الآن لا حركة له، أنفاسه تذبل تزوي. حملناه للعش وبعد ربع ساعة لفظ أنفاسه الأخيرة. طلبت من العم ألماظ أن يذهب إلى الشرطة ليفتح بلاغًا بما جرى، لكيلا يتعرض للمساءلة القانونية، استجاب وهرول نحو مركز الشرطة في قلب المدينة الذي يبعد من المقرن مسافة كيلومتر تقريبًا.

حزن العم ألماظ حزنًا شديدًا لموت خوجلي ويعقوب البشع بأنياب التماسيح، قبر خوجلي سابح متحرك في جوف الوحش، يا للمأساة! لعق العم الندم، لأنه تسبَّب في موتهما، لكنهما هما اللذان تعهدا بطرد التماسيح، أوَّل مرة بعد عام أرى دموع الرجل القوي، كان المرحومان من زبائن حانة العبيد كما يسميها العرب، أو حانة الزنوج كما يسميها

المصريـون والأتـراك والشـوام، ظلـت دمـوع الرجـل منسـابة طـوال اليـوم نحيـب ونشـيج، أوَّل مـرة أعلـم بـأن هـذا الرجـل إنسـاني ورقيـق وعطـوف لتلـك الدرجـة، كان يـردد سـادمًا نادمًـا: ليتنـي لم أتفـق معهـما، قتلتهـما دفعتهـما إلى أنيـاب التماسـيح، غـرر بي الشـيطان وسـواس، لعنـة الـرب عليـه، هـل يمكـن تنظيـف النهـر مـن التماسـيح؟ مسـتحيل أنـا مجنـون! دفعتهـما إلى مغامـرة نتيجتهـا معروفـة. أنـا القاتـل، سـأرمي نفـسي في النهـر منتحـرًا لتأكلنـي التماسـيح، فالجـزاء مـن جنـس العمـل. أنـا أسـتحق المـوت الآن، هـما شـابان كان ينبغـي أن يعيشـا، المـوت للعجائـز مثلنا، الآن سـأنتقم منـك يـا ألمـاظ بـارود يـا ظـالم.

وثـب وجـرى نحـو النهـر لينتحـر، طاردتـه، قبضتـه، حاولـت أن أرجعـه إلى العـش، وهـو يبـكي ويتشـنج ويتمـدد ويقـاوم ويحـاول التملص للسـقوط في المـاء، لحقنـي عـشرة مـن أبنـاء الدينـكا، الآن وضعنـاه عـلى عنقريـب صغـير داخـل الكـوخ، يتمـدد، ينكمـش، يـصرخ، يزعـق، ثـم غفـا بعـد سـاعة مـن الـصراع المريـر.

29

ابنـي قرنـق بـول دينـق، هـل تحـب اسـمك العـربي، خميـس جمعـة سـبت؟ لا أظـن ذلـك، لعنـة الـرب عليهـم غـيروا الأسـماء والهويـة والديـن والثقافـة، ولكـن هيهـات! نحـن مشـوهون لهـذا حاقـدون عليهـم، سـأكمل لـك قصتـي مـع عمنـا الكريـم الرحيـم ألمـاظ بـارود، أتيـت إليـه في اليـوم التـالي بعـد حـادث مـوت خوجـلي ويعقـوب، كان مـا زال كئيبًـا أسرف في شرب الخمـر لـكي ينـسى ولكـن هيهـات، أوَّل مـرة لا يتماسـك، ينهـار ويبـكي بـكاء النسـاء. قلـت لـه: مـن أنـت بلغـة الدينـكا، سرعـان مـا جلـس وجمـع أطرافـه بانتبـاه ونظـر إليَّ بعمـق وقـال لي: هـذا هـو السـؤال الـذي كنـت أتجنبـه، ولكنـك يـا ابنـي سـأتحدث لـك بصراحـة وصـدق، تاريخـي أسـود، ولكنـي كأعـور وأعـرج أديـن لتلـك العاهتـين بالكثـير؛ هـما اللتـان حررتـاني، سـتعرف كيـف، سـأحكي بالتفصيـل مـن البدايـة إلى النهايـة، أقـول لـك أنـا مـن قريـة مجـوك وأظنـك تعرفهـا وهـي قريبـة مـن قريتكـم، ذهبـت كل العائلـة لتسـاعد ميـوم في حقلـه، كنفـر عـون جماعـي، في أثنـاء الحصـاد كانـت الكارثـة، هجمـوا علينـا ونحـن عُـزَّل أطلقـوا النـار في الهـواء، أرهبونـا هددونـا قيدونـا، صرنـا عبيـدًا مـن تلـك اللحظـة؛ أبي أمـي إخـواني أخـواتي خالتـي عـماتي أعمامـي، قادونـا مقيدين بالسلاسـل إلى مراكب خشـبية طافية في النيـل الأبيـض. يممـوا شـطر الشـمال، كدسـونا كالبضائـع كالحيوانـات، فرقونـا مزقونـا شـتتونا، باعونـا بالجملـة وبالتجزئـة، قسـمونا؛ اشـتراني تاجـر رقيـق أبيـض، اسـمه معـاذ السـعدني، يصـدِّر الرقيـق إلى الخـارج، والمطلـوب شـباب خصيـان، في قريـة في الجزيـرة لا أعـرف اسـمها. كنـت لا أعـرف اللغـة العربيـة. جـاء الحجـام وبـدأ في عمليـة الخـصي الجماعـي لمئـات الرقيـق المهيـأ والمعـد للتصديـر كلهـم ذكـور ليعملـوا في خدمـة المشـترين ربمـا في

الأعـمال المنزليـة، لهـذا لا يفضِّلـون الفحـول خوفًـا عـلى أعراضهـم، عمليـة الخـصي كانـت مخيفـة بشـعة، قطـع لوريـد الخصيتـين ثـم كي الشريـاني الأسـفل بعـد إحـداث ثقـب عـلى الخصيـة، عطـرون وملـح وكي بقضيـب محمَّـر فـوق الجمـر لعصـب أسـفل الذكـر، مـات تسـعة لعـدم معرفـة الحجـام بعمليـة الخـصي. يـا لهـا مـن خسـارة كبـيرة للنخـاس! أمـر بإيقافهـا ثـم أعـدم الحجـام بالخـازوق. أمـر بإجـراء عمليـة قطـع للعضـو التناسـلي لأي شـاب وهـي أسـهل كـما كان يحـدث في الـشرق في المـاضي، كـما حـدث لجدنـا كافـور الإخشـيدي - ملـك مـصر. تـم قطـع ذكـري مـع مائـة شـاب، صراع مريـر. كنـا مقيديـن بالسلاسـل، قاومنـا ولكـن هيهـات، سـتة مـن جنـوده الأقويـاء يقبضـون الصبـي، أسـماها معـاذ الختـان الشـيطاني، كان قطـع الذكـر كقطـع الـرأس أغمـي عـليَّ، ولم أسـتيقظ إلَّا حينـما أدخلـوا جزع الذكـر في السـمن المغـلي، صرخـت صرخـة مدوِّيـة، ثـم سـكبوا مـاء العطرون المغـلي، وبعـد أسـبوع جـفَّ الجـرح. لـو رأيـت منظـر أشـلاء الأعضـاء المبتـورة الداميـة، أقسـم بدينقديـت، تقشـعرُّ لهـا الأبـدان، التقطـت القطـط اللحـم الدامـي ومـا تبقـى رمـوه للـكلاب، ولم تطـرف عـين لتاجـر الرقيـق الأجنبـي الـثري، وكـما قلـت لـك العـرج والعـور سـاعداني، كعاهتـين كعلتـين مزمنتـين، ديمـتري هـو النخـاس الوحيـد الـذي يشـتري العبيـد الفحـول مـن أجـل التكاثـر، يشـتري الصبايـا الصغـيرات ويأمـر عبيـده الذكـور بمجامعتهـن لينجـبن لـه أطفـالًا ليبيعهـم في المسـتقبل بغـرض التربُّـح، يجعـل الرقيـق كالبهائـم لتتكاثـر، بغـرض البيـع، يهتـم بالنظافـة والنظـام والجـمال، ليـس للعبـد زوجـة وكذلـك ليـس للأمـة زوج الجنـس مشـاع بالنهـار والليـل مـن أجـل إنجـاب الأطفـال، تلـد الأمـة طفـلًا لم يصـل عمـره ثلاثـة شـهور، حيـث تكـون قـد حبلـت تـارة أخـرى، متوسـط إنجـاب الأمة الشـابة في ظـرف عشر سـنوات عـشرة أطفـال، غـذاء جيـد مـن أجـل الخصوبـة وسرعـة التكاثـر، أكـواخ كثـيرة للعبيـد وهـي جـوار النيـل، الدار مسـوَّرة بسـلك شـائك يصعب

اختراقه، له حراس لا ينامون في كل الاتجاهات أصبحت مضطهدًا حقيرًا، بسبب علَّة كافور الإخشيدي، التي ذكرها له الشاعر المتنبئ (من علَّم العبد الخصي مكرمة)، أعمل في المطبخ والحقل. بعض الجواري راودنني وحينما علمن بعلتي اضطهدنني وسببنني. هل لي ذنب فيما جرى من تجفيف لمنابع الفحولة، إنتاجي قليل بسبب علي وضعف جسدي، أخيرًا فكر ديمتري في بيعي أو طردي، وبهذه المناسبة هو الذي أسماني ألماظ بارود، شطب اسمي الأصلي - أكول شول دينق كوال - لعنة الرب عليه، هو مسيحي غير متدين هرطيق زنديق يعاقر الخمر والمخدرات زان، ويمارس الشذوذ الجنسي مع الصبيان الأحرار والعبيد، يذهب إلى سوق الخرطوم لإحضارهم إلى مزرعته التي يمارس فيها كل الموبقات. من الطرائف طلبت أمة أن أجامعها، رفضت أخبرت صديقاتها الثلاث، كلهن طلبن الشيء نفسه، تعرين من أجل الإغراء والإغواء، أوصدن باب المخزن هاجمنني، أصرَّت مريلة على الممارسة، تمنعت رفضت، رطنت بلغة لا أعرفها، كنَّ عاريات، هجمن عليَّ بقوة لخلع ملابسي. قاومت، يا لهن من قويات، وأنا الأعرج الهزيل. تمكنَّ من نزع ملابسي، اغتصاب كما كنَّ يفكرن، وحينما رأين اندهشن أُسقِط في أيديهن - كانت مريلة تحب أن أجامعها ولكن هيهات. ضحكن وقلن يا لك من طفل مشوَّه! مقتول الرجولة! أنت الرجل القط، وليس الرجل الحمار!

كرهني ديمتري ولا أدري لماذا؛ ربما لأن العبيد كرهوا أن يروني في المطبخ مع الإماء. ربما لكسلي لعدم تعاوني مع الجميع، كنت أحمق، سريع الانفعال ميال إلى العراك والملاسنة رغم ضعف بنيتي، لا أحد يحبني، كنت أرفض الممارسات الجنسيَّة الشائعة البشعة في الإقطاعية. الناس يمارسون الجنس بالليل والنهار كالحيوانات، الأطفال لا أحد يعرف لهم آباء قد يمارس الرجل مع ابنته وهو لا يعرفها، ولدت أجيال بغير آباء، عمر الحظيرة أكثر من عشرين عامًا، وكذلك معظم الرجال الذين

أتـوا كانـوا شـبابًا وبعضهـم اكتهـل ومـا زال عنـد غيـه، أنـا متأكـد بهـذه الممارسـة سـينجب الرجـل مـن بنتـه، إقطاعيـة حيوانيـة، لعنـة رب الجنـوب دينقديـت عـلى ديـن ديمـتري، يـا ربي اقصـم ظهـره، هشِّـم عظمـه، شـتت شـمله، اكتـم نفسـه، وهـو كذلـك أنجـب بنـات خلاسـيات، وهـو يعـرف بأنهـن بناتـه، ولكنـه يتجاهـل تلـك الحقيقـة، بعضهـن بيضـاوات بشـعر أشـقر طويـل أوروبي أو قصـير أجعـد أفريقـي، بـاع معظمهن بأسـعار باهظة، قيمـة الأمـة المهجَّنـة الأوروبيـة الإفريقيـة تعـادل قيمـة عـشر إمـاء زنجيـات، وهكـذا ظـل ينجـب، ليحسِّـن النسـل كـما ذكـر ذات مـرة، أحيانًـا يجامـع عـشر إمـاء جميـلات، بعـد أن يطلـب منهـن السـواك والاسـتحمام والتعطـر، هـو رجـل شـهواني، مـا يفعلـه مـع الغلـمان كان يفعلـه للإمـاء حينـما يجـن جنونـه، سـعار جنـسي، كان يسـب الديـن ويسـب إلـه النصـارى، ورغـم ذلك يزعـم بأنـه مسـيحي. لا يوجـد مسـيحي لا يقـدِّس الـرب ويسـوع والعـذراء، قـال لنـا ذات مـرة بعـد أن سـكر: مـن يعتقـد مـن النصـارى بـأن يسـوع هـو إلـه أو ابـن الـرب فقـد ضـلَّ، يسـوع بـشر أنجبتـه امـرأة تـأكل القديـد، كان زوجهـا يوسـف النجَّـار شـخص عـادي وثنـي، أو يهـودي.

الآن سـأحكي القصـة المثـيرة التـي حررتنـي، كـما ذكـرت بـأن ديمـتري شـهواني، يحـب الصغـيرات الكواعـب، توجـد فتـاة اسـمها سوسـن ملقبـة بسوسـن الحمـراء، ملامحهـا شرقيـة أو أوربيـة، أنجبتهـا الأمـة نمنـم الحبشـية الخلاسـيَّة، إني لأظـن بـأن سوسـن الحمـراء هـي ابنـة ديمـتري، تشـبهه شـبهًا شـديدًا، كان عمرهـا أربعـة عـشر عامًـا، كان يجامعهـا ويحبهـا أكـثر مـن كل الإمـاء؛ لأنهـا جميلـة وبدينـة وطويلـة وبيضـاء، قـال لي بعـد أن سـكر قـال لي: قـم يـا ألمـاظ، واذهـب إلى سوسـن الحمـراء، اذهـب معهـا إلى النهـر. كـن أمامهـا وهـي خلفـك، إنهـا تخـاف مـن التماسـيح، ضـع رمحـك أمامـك، لـن يهاجمـك تمسـاح، هـذا هـو الصابـون العطـري والدهـان والكريـم والعطـور، هـذه فرشـاة أسـنان جديـدة، فلتتسـوك جيـدًا، فلتغتسـل جيـدًا، فلتتعطـر

جيـدًا، ثـم جهـز لهـا حفـرة الدخـان لتتدخـن بخشـب الصنـدل لا الطلـح، أسرع، هـذا الأمـر لا يـرد أمـر إلهـي، أريـده في ظـرف سـاعة، فلتخـرج مـن الفـرن حـارة! قلـت لـه: لسـت قـوادًا، أنـا رجـل! استشـاط غيظًـا وزمجـر: يـا عبـد العبيـد يـا ابـن الكلـب يـا تافـه. أتقـل الأدب معـي، يـا خـصي، اللعنـة عـلى ديـن العبيـد! وقـف ولكمنـي وضربنـي حتـى أسـقطني، سـال الـدم مـن أنفـي وفمـي، سـدد لي لكـمات كثـيرة، أمـر جلاوزتـه بسـحبي خـارج المزرعـة لتأكلنـي الذئـاب، فقـدت الوعـي وحينـما اسـتيقظت وجـدت نفسي وسـط الغابـة. والظـلام الدامـس يغرقنـي، تلفـتُّ ذات اليمين وذات الشـمال. ثعالـب ودجـاج وأورال ونسـور، ثمـة حيوانـات صغـيرة تـدب جـواري، ترنـو إلى الفريسـة، ثمـة نـور ينبعـث مـن مزرعـة فريـد السـهروردي، وهـو رجـل لا يعمـل بتجـارة الـرق بـل الزراعـة، ولكنـه يمتلـك عبيـدًا يعملـون معـه، فرحـت فرحًـا شـديدًا بحريتـي، طـردي يعنـي أننـي حـر طليـق، شـكرت رب الجنـوب عـلى كرمـه، يـا لـك مـن إلـه عظيـم رحيـم يـا دينقديـت، لقـد رحمـت عبـدك شـول الجنـوبي، الـذي سـموه اسـمًا عربيًّـا لا يحبـه بـارود ألمـاظ أو ألمـاظ بـارود مـن سـلالة البازنجـر العبيـد كـما يزعمـون، سـموني هـؤلاء اللصـوص اسـمًا لا أطيقـه ولا يعجبنـي، أنـت كذلـك أطلقـوا عليـك اسـم نيـازي شمسـون الجبـار بـدلًا عـن كـوال دينـق كـير، صـب يـا إلهـي لعنتـك عليهـم، لا ترحمهـم زلزلهـم شرِّدهـم شـتتهم اهزمهـم.

وصلـت أبـواب مزرعـة فريـد السـهرودي، قابلـت الحـرس، شرحـت لهـم ظـروف طـردي وضربي، طلبـوا منـي أن أقـف بعـد أخـذ الإذن مـن سـيدهم إذا كان بوسـعه أن يسـتضيفني، سرعـان مـا هـرول عبـد لطيـف ظريـف، ثـم قفـل عائـدًا بعـد خمـس دقائـق، سُـمِحَ لي بالدخـول، أمرهـم سـيدهم بإكـرام مثـواي، بإيـوائي وإطعامـي، أكلـت حتـى شـبعت يـا لـه مـن رجـل كريـم! لم أنـم مـن الفـرح، في اليـوم التـالي هربـت إلى شرق النيـل بمركـب خشـبي، خوفًـا مـن غـدر ديمـتري، حينـما يفيـق مـن سـكرته وسـطلته –

ربما يتذكرني ثم يبحث عني ليعيدني إلى الرق تارة أخرى، توغَّلت في البطانة كراع مع قبائل العرب، لم يفكروا في استرقاقي، عدت إلى الخرطوم لأعمل كحر. لم يلاحقني ديمتري، عملت في مطعم لميخائيل تادرس كطاهٍ كغاسل ومنظف للأواني، ثم عملت خادمًا في بيت إدوارد مدير الضرائب، كان شاذًّا جنسيًّا، عمل معه أحد غلمان العرب، أمرد وسيم فعشقه، راوده وحينما رفض هدده بالطرد من خدمته. لم يذعن وأخيرًا هاجمه في الديوان ليغتصبه، فطعنه الصبي في بطنه فنحرها حتى سقطت مصارينه، بدأ يصرخ والدم ينزف، فرَّ الصبي إلى البادية وحتى الآن لم يُعثَر عليه، سُجِنْتُ وقلت ما شهدته من تحرُّش إدوارد بعصام نصر، فهو الذي أرسل زوجته مكرهة إلى صديقتها ليخلو له البيت، طلب مني أن أخبر عصام نصر بالدخول إلى غرفة النوم، ولكني لم أخبره، فوجده في الديوان وهاجمه لينزع ملابسه، ورغم ذلك سجنت مدة عام باعتبار أنني لم أتصل بالشرطة بسرعة ولم أحاول القبض على المجرم، بل تركته يفر بعد ارتكاب جريمة القتل هل أنا رجل شرطة؟ بعد السجن فكَّرت في هذه الإندايـة، حانة العبيد كما يحلو للعرب أن يسمونها، نجحت بحمد إلهنا دينقديت الذي وفقني وسدد خطاي، دخلها كل العبيد المرضى والمطرودين بعد أن شاخوا أو مرضوا، أكفلهم أوفر لهم الغذاء والكساء والمريسة، هناك في تلك الأعشاش عشرة منهم، يمكنك أن تزورهم، معهم أطفال مشلولون وعميان ومتخلفون عقليًّا عددهم سبعة، طردهم تجَّار الرقيق وحرموهم من أسرهم بعد أن شعروا بعاهاتهم وعيوبهم. تخلصوا منهم، قالوا لا فائدة من وجودهم في حظائرهم ومزارعهم، ليس لديهم مستقبل، استقبلت كل من قصدني، أنت ترى الأمر ميسرًا، حاميتكم حضورها إلى الخرطوم زاد من دخلي بل تضاعف عشرات المرات، كل أبناء البازنجر السود هنا مقرهم معبدهم مأواهم، وعندما تسافرون إلى مصر سنحزن لفراقكم وسيقل دخل الحانة.

30

ابنـي أو حفيـدي قرنـق، علمنـا بأننـا سنسـافر إلى مـصر، كل الأرطـة بقيـادة البكبـاشي حبيـب اللـه أفنـدي، فرحنـا فرحًـا شـديدًا، قالـوا بـأن هذه الأرطـة طلبهـا الخديـوي إسـماعيل، لإرسـالها إلى المكسـيك، وهـي دولـة في أمريـكا الجنوبيـة. نابليـون حاكـم فرنسـا هـو الـذي طلـب مـن الخديـوي مـده بجنـود سـود مـن جنـوب السـودان، ليحاربـوا معـه في المكسـيك ضـد الثـوار الذيـن يحاولـون تحريـر بلادهـم مـن القبضـة الفرنسـيَّة، منـاخ المكسـيك مشـابه لمنـاخ جنـوب السـودان، أمطـار غزيـرة أدغـال وأوبئـة، ودرجـة حـرارة عاليـة، نابليـون يريـد قـوة سـودانية تتحمـل ذاك المنـاخ بأمراضـه وأوبئتـه الاسـتوائية لم يجـد أنسـب مـن السـودانيين، لهذا اسـتجاب صديقـه الخديـوي إسـماعيل، ولبـى رغبتـه طائعًـا أو مكرهًـا. فـرح كل جنود الأرطـة بالسـفر إلى مـصر ثـم المكسـيك، ظنـوا أنهـا سـياحة ولكنهـا حـرب ضروس، لسـت أدري مـن سـيموت هنـاك مـن هـؤلاء الشـباب المتحمِّسـين المشرئبـين التواقـين إلى السـفر، أعطونـا راتـب شـهرين حافـزًا منحـة، السـفر سـيكون بالبواخـر والهجـن، رحلـة نيليـة جميلـة يرنـو إليهـا كل الجنـود، كنـت أشـدَّ سرورًا وحبـورًا، تـأتي الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن، الجنـود يتدربـون بهمـم عاليـة عـلى كل أنـواع الأسـلحة، حمَّـى خفيفـة تصيبنـي، معهـا بـرد، ثـم ظهـرت دمامـل عـلى جسـدي وخاصـة وجهـي، بعضهـا بـدأ يحتقـن بالصديـد بلـون بنـي غامـق، جـاء الطبيـب الـتركي، تجنـب الدنـو منـي، قـال: يجـب أن يتـم عزلـه، مصـاب بالجـدري، يـا للكارثـة! الدمامـل والبثـور والأورام تلتهـم جسـدي الذابـل ووجهـي يتشـوَّه بتلـك الكـرات الصغـيرة البنيّـة، جـاء الضابـط وأمـرني بإخـلاء العنـبر، سـألته أيـن أذهـب؟ قـال لي هـذا شـأنك، تحـرَّك، طـردني وحـرق سريـري وثيـابي، ليتـه تركنـي

لآخـذ ثيـابي وأغـراضي، يممـت شـطر الشـاطئ نمـت في العـراء في الغابـة، أمسـيت أبـكي وأنـدب حظـي العاثـر. يـا للأسـف الضابـط أمـر أصدقـائي بعـدم الاقـتراب خوفًـا مـن العـدوى، حسـب توجيهـات الطبيـب، انتصـف النهـار بلـغ بي الجـوع مبلغـه، لم أكـن بعيـدًا عـن حانـة العبيـد، يـا لـك مـن رحيـم يـا عـم بـارود ألمـاظ. سـأذهب إليـك ولـن تخذلنـي كـما خذلنـي أبنـاء عشـيرتي مـن سـلالة البازنجـر.

شرحـت لـه المـرض الـذي أصابنـي ومـا جـرى بيني وبـين الضابـط المصري الـذي طـردني خوفًـا مـن انتشـار المـرض بين أفـراد الكتيبـة المتوجهـة إلى مصر ثـم المكسـيك، رحَّـب بي وأشـار إلى كـوخ عـلى بعـد مئتـي يـاردة، منحنـي إيـاه وحـدي، كانـت هـذه الأعشـاش تسـكنها المتزوِّجـات. نياكـور، نياكونـق، أضينـق، الويـل، ونيالـواك، سـافر أزواجهـن وتركوهـن بأطفالهـن، العـم هـو السـبب في الـزواج، وهـو الـذي ينفـق عليهـن الآن، لـكل واحـدة طفـل أو ثلاثـة، كل أفـراد الحانـة رحبـوا بي، حزنـت لعـدم سـفري. المـرض العضـال المفاجـئ غـدر بي أقعـدني، أعطيـت بـارود عـشرة ريـالات وهـي راتـب شـهر؛ لينفـق عـليَّ، وليشـتري لي أثاثًـا بدائيًـا، رفـض تسـلم المـال ووفـر لي كل مـا أحتـاج إليـه، ثـلاث وجبـات تأتينـي في مواعيدهـا بجانـب كنتـوش عسـليَّة ودلنـق مريسـة، أشرب طـوال اليـوم، عرضنـي عـلى طبيـب يونـاني اسـمه بسـتلادس ألدامـورو بعـد القـروح التـي بـدأت تتفجـر، أعطـاني أدويـة قـال ليـس جدريًـا، بـل جـدري كاذب وهـو (برجـم) حـاد، ثـم عرضنـي ألمـاظ لصـوفي مجـذوب يسـكن في كـوخ جنـوب الحانـة، رجـل عـربي عجـوز أبيـض بلحيـة كثـة، قصـير القامـة لـه مسـبحة طويلـة، وبـين يديـه كتـب، شـمس المعـارف الكـبرى، السـبع مـن المثـاني والديـربي، سـألني عـن دينـي لم أرد، قـال لـن أعالـج إلَّا مسـلمًا، طلـب منـي أن أسـلم إذا أردت العـلاج، خدعتـه رددت الشـهادتين خلفـه، فـرح فرحًـا شـديدًا وطفـق يعـزم ويرقـي ويتفـل عـلى كـوب المـاء، وأنـا أنظـر في عجـب إلى هـذا المجـذوب المجنـون، شربـت

الماء بتقزُّر ثم كرر العملية تارة أخرى، وهذه المرة أمر، مسح ماء الشعوذة والسحر على وجهي وسائر جسدي، فعلت ذلك ثم أعطاني كيسًا مليئًا بالقرض أمرني بعطنه وشرب مائه، ثم نثره على البرش والنوم عليه مدة شهر والاستحمام بماء القرض المنقوع والمعطون، رفض تسلُّم أي مبالغ مقابل العلاج، طلبني أن أدعو له، بعد شهر تماثلت للشفاء، تلاشت الدمامل والقشور والبثور، جف القيح والصديد، خمد اللهب، عاد جسمي إلى وضعه الطبيعي مع آثار خفيفة على الوجه بعد زوال الحبوب المتقيِّحة. شكرت الرب على الشفاء، من الذي شفاني الطبيب اليوناني أم الصوفي المجذوب، أم ربُّ الجنوب دينقديت؟ لا شك شفاني وحباني بالعافية ربُّ الغابات والأدغال والأمطار المارد الذي لا يُقهر، أنت يا إلهي الجبار العزيز تابعتني هنا، وأنقذتني من جحيم المرض، سأبني عشًّا أو عريشًا، كمعبد (لواك) لنعبدك فيها، كل السود من أولادك، الآن يسبِّحون بحمدك وباسمك آناء الليل وأطراف النهار، أنت الخالق والرازق والعاطي والمانع، أسألك وأتوسَّل إليك أن تحفظ أولادك في مصر والمكسيك، زجوهم في حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل، هل سيموتون هناك، أظنك الآن تراهم وترعاهم من على البعد. وأنا ماذا سيكون مصيري مع المصريين الحاكمين، كم ظلموني وطردوني، بسبب المرض، وهأنت تشفيني رغم أنف ذاك الضابط المغرور الذي ظن بأنني سأموت بسبب الجدري، ولكن هيهات ها هو جسمي يهزم الجدري ويسحقه ويدحره، لأظل سليمًا صحيحًا، هل سيعيدونني إلى الخدمة بعد أن شفيتني؟ اجعلهم يوافقون رغم أنوفهم، فأنا شاب قوي، ولقوتي سمومي شسمون الجبار.

هذه ذكريات ليست حبيبة إلى النفس ولكن ذكرتها لك يا ولدي قرنق بول دينق للعظة والعبر، بالطبع تريد أن تعرف ماذا حدث للأرطة السودانية بالمكسيك، وصلني خطاب من صديقي تمنج لالوب

واصفًا ما جرى، سأقرأ الخطاب بخط يده الجميل وكان جيد التعليم والثقافة، درس بمدرسة كسلا الأولية ثم مدرسة الصنائع، يقول: أخي كوال دينق كير، تحية طيبة، علمت بأنَّ ربنا دينقديت قد شفاك، الحمد لله على شفاك، لأنه يحبك فأمرضك لينقذك، جنَّبك العذاب لكيلا تقع فيما وقعنا فيه من شر مستطير. الرحلة إلى مصر كانت ممتعة ولكنها شاقة، اندهش المصريون من ألواننا السوداء، كنا كالغربان وسط قطن، كم دُهِشْنا لألوانهم البيضاء، لم نسمع عبارات عنصرية استعلائية، ولكنهم كانوا يقولون لنا، مرحبًا بأبناء النيل، هذا شعب مرح لغته واضحة ومفهومة لم نجد صعوبة في فهم اللهجة المصرية، الحكومة المصرية رحبت بنا. استقبلنا ولي العهد ووزير الدفاع، رحَّلونا إلى الإسكندرية نزلنا في عنابر الجيش المصري، الأرطة السودانية هي التي ستحارب في المكسيك، معنا عدد قليل من الضباط المصريين في المخابرات، بعد شهر أبحرنا في البحار الدافئة، دول وجزر، البحار والمحيطات مدهشة ليست لها سواحل، مياه على مدى البصر، حيتان وأسماك القرش، خواجات معهم نساء جميلات بيضاوات، قالوا هذه دولة قبرص، إيطاليا أو اليونان، شاهدنا المغرب العربي مدينة طنجة، وجبل طارق، البرتغال إسبانيا، في طريقنا إلى المكسيك عبر المحيط الأطلنطي، المعاملة جيدة، ولكنني غضبت حينما تسمم بعض جنودنا في الطريق، كانوا يلقون بالجثامين في البحر لتأكلها الأسماك، غضبنا لذلك وحينما مات يوزباشي مصري من المخابرات اسمه مدحت تامر، وضعوه في برميل نبيذ ليحفظ جسده من التحلل وحينما لاحت جزيرة في المحيط - توقفوا عندها ليدفنوا الضابط المصري بمراسيم احتفائية جنائزية جيدة، عُزفت موسيقى حزينة، حمله الضابط وأطلقت المدفعية عشرات الطلقات، هو مسلم غسَّلوا جثمانه، كفنوه حنطوه عطروه وصلوا عليه، بينما من يموت من السود يُلقَى في البحر، عبرنا

مـن أوروبـا إلى المحيـط الأطلـسي، وصلنـا إلى قـارة أمريـكا الجنوبيـة نحـن في المكسـيك، الشـعب ثائـر ضـد الحكومـة، بلـد كلهـا غابـات ومسـتنقعات وأدغـال كجنـوب السـودان، ثـوار شـجعان، يحاربـون حـرب عصابـات قاتلـة، كـثرت الخسـائر، لا أظـن أن يعـود جنودنـا إلى السـودان سـالمين، عـشرات استشـهدوا وربمـا يهلـك الباقـون في غضـون شـهور، حينـما تصلـك رسـالتي ربمـا يكـون قـد نهشـت جسـدي الذئـاب، أو تحللـت في قـبري إذا تمكنـوا مـن دفنـي، نحـن نحـارب بـلا عقيـدة بـلا قضيـة، حـرب ليـس لنـا ناقـة فيهـا ولا جمـل، باعنـا الخديـوي لنابليـون ملـك فرنسـا كمرتزقـة، فـزجَّ بنـا في هـذه المحرقـة، لعنـة الـرب عليهـما، هـم يهتمـون برسـائلنا ويقولـون سـتصل إلى السـودان، أتمنـى أن تصلـك رسـالتي، ادعُ الـرب ليخرجنـا مـن هـذه الورطـة، الثـوار أرهقونـا أرَّقونـا، صـوت الرصـاص لا ينقطـع عـن آذاننـا آنـاء الليـل وأطـراف النهـار، لا يمكـن تحقيـق الانتصـار عـلى شـعب بهـذه الجسـارة والمهـارة، بعـض جثـث رفاقنـا تنهشـها الذئـاب، هزائـم قاسـية، كنَّـا قـد فرحنـا، ولكننـا الآن حزنَّـا وندمنـا حينـما شـاهدنا الخسـائر، أعتقـد حتـى الآن فقدنـا مـا يقـارب الربـع، وهـي خسـائر كبـيرة إلى جانـب فتـك الأمـراض والأوبئـة، أسـتودعك الـرب دينقديـت، لا أظـن أننـا سـنتقابل تـارة أخـرى، أنـا متأكـد سـألقى مصرعـي برصـاص القناصـة، هـل سـأجد قـبرًا يضم رفـاتي أم يكـون قـبري في بطـون الوحـوش الضاريـة التـي تتهافـت وتتسـارع لالتهـام الجثـث التـي اخترقهـا الرصـاص، صدقنـي يـا صديقـي لـن نلتقـي مـرة أخـرى، جنَّبـك الـرب هـذه المـآسي، كـما يقـول المسـلمون ربَّ ضـارة نافعـة، إذا قـدر لي أن أعـود سـأكون راهبًـا وثنيًّـا في معبدنـا بالجنـوب، سـأترك الجنديـة سـأتدين سـأترهبن، وداعًـا وداعًـا أبديًّـا.

31

قصص جدي كوال دينق كير مثيرة وممتعة رغم واقعيتها، جدي كتاب، بذاكرة قوية رغم أنه ناهز عامه السادس و الثمانين، حقًّا الجد بارود ألماظ إنسان كريم رحيم، إنه أحد ضحايا النخاسة الملاعين وهكذا معظم أبناء قبيلتنا، بل كل السود الزنوج العبيد كما يزعمون، سأنتقم لكل ما جرى، الجزاء من جنس العمل، كلفتني الحامية مع جنود مستجدين بمطاردة الممتنعين عن دفع الضرائب المتمردين، طاردتهم، قبضتهم، عاقبتهم بصورة وحشيَّة وقاسية، ما أكثر ضحايا عنفي! مدير الضرائب طلب من قائد الحامية البكباشي مصباح السباعي بأن أبقى بالقرب منه، وافق صرت قائد القوة، ترقَّيت في بضع سنوات إلى جاويش، كل شرق السودان صار يعرفني لقبوني بالسفاح، أرهبت وأرعبت البدو، خضت أكثر من مائة معركة كسبتها كلها، كنوع من الانتقام كنت أبيح الفرق المجتاحة، تفعل جحافلي ما يحلو لها، تعبث بأعراض البدو وهم ينظرون، بعض الغواني انتحرن بعد الاغتصاب، وبعضهن استسلمن لأجنة السفاح السوداء، ألف بدوي سقطوا خلال المعارك، هم شجعان يستخدمون الأسلحة البيضاء ونحن نستخدم الأسلحة النارية التي تجعل الهزائم تلاحق البدو. بعضهم هربوا من مضاربهم واستعصموا بالغابات والحبشة وجبال إريتريا. والذي لم يهرب كان عليه دفع الضرائب وهو صاغر. القتل القتل السلب النهب، هذا شعار جنودي حينما ينازلون الأعداء من البدو، العرب يهوون الشقاق والصراع، وذاك مدخل للفتك بهم، ثأرًا لعشائرنا المسترقة بغير وجه حق، أتبيعون أهلنا في الأسواق بيع البهائم؟ لعنة السماء عليكم. سأقول كما قال زياد ابن أبي سفيان في خطبته البتراء: لأحزمنكم حزم السلب، ولأضربنَّكم ضرب

غرائـب الإبـل، حتـى يلاقـي البـدوي أخـاه فيقـول لـه انـجُ زيـد فقـد هلـك عمـر! في جلسـات سـمرنا الليـلي في أثنـاء شربنـا ولهونـا، دائمـا أحـكي مـا فعلتـه بالعـرب، فيعجبهـم ذلـك ويمتدحـون فعـلي الـذي زلـزل مضـارب البـدو المتمردين، علمـت بـأن بـدوي سـمَّى طفلـه خميـس، وهـو معجـب بشـخصي ببطولتـي رغـم عنفـي، لا أحـد ينتقـدني غـير قائـد الحاميـة، لمـاذا لا يبعـدني إذا كان عنفـي يغيظـه؟ هـو صديـق مديـر ديـوان الضرائـب، وهـو الـذي حفَّـزني وأثنـى عـليَّ وأننـي العامـل الرئيـس في تحقيـق الربـط الضريبـي، هـذا العـام جُمِعَـت كل الضرائـب قـسرًا وقهـرًا، الضحايـا مـا أكثرهـم! البـدو حمقـى جنـت براقـش عـلى نفسـها، الـربُّ قـد سـلطني عليهـم لأقتـص منهـم، لأجتثهـم اجتثاثًـا، يقولـون حكومـة تركيـة، وهـل هـي تركيـة؟ لمـاذا لا تكـون مصريـة، حتـى نحـن السـود يدعوننـا بالأتـراك، قـال لي أحدهـم بعـد أسره وضربـه، لمـاذا لا تعاقبـون الموظفـين المرتشـين الذيـن يكلفوننـا فـوق طاقتنـا ويظلموننـا، مـا أصدقـه! ورغـم ذلـك قمعتـه. مـن أنـا هـل أسـتطيع أن أعاقـب أسـيادي، مجـرد جنـدي حقـير يثـأر لبنـي جلدتـه ممـن سـاموهم سـوء العـذاب واسـترقوهم، يـا ويلهـم! كلـما تحـين فرصـة أصـب جـام غضبـي عليهـم، ثـأرًا غجريًّـا، في ذات مـرة طـارد جنـودي فتـاة ليغتصبوهـا، فـرَّت وأخـيرًا انتحـرت وسـقطت في نهـر القـاش لكيـلا ينتهـك رجـالي عرضهـا. حزنـت ولكـن مـا بوسـعي أن أعمـل أمـام شـباب، متعطِّـش للجنـس ظـمآن، لـه نهـم غريـب وعجيـب للأجسـاد الصفـراء، أو كنـوع مـن الانتقـام، الانتقـام والثـأر هـو شـعارنا الـذي رفعنـاه ونتحـلى بـه بـل نعـض عليـه بالنواجـذ. القـادة يعلمـون ذلـك، فلـذا يسـلطوننا عـلى الثـوار والمتمردين والرافضـين لدفـع الضرائـب الباهظـة، قلـة النقـود، بـل وانعدامهـا والضرائـب الباهظـة التـي لا تناسـب قـدرات وإمكانيـات النـاس لهـي العنـصر الأسـاسي الـذي يحـول دون جمعهـا، وهـو يحـرِّك مشـاعر العـداء والغـبن، وهـو محفِّـز للثـورة، ولكـن هـذا لا يهمنـي، مـا يهمنـي أن

يتمـرد البـدو لتُطلَـق يـدي لتأديبهـم وقمعهـم، مـا أجملهـا متعـة أن ألـج الفريـق والدخـان والحرائـق تتصاعـد مـن الخيـام المحروقـة! جرحـى قتـلى أسرى عويـل وولولـة النسـاء تطربنـي، بـكاء اليتامـى يسـعدني، نـواح الأرمـل والثـاكلات يسـكرني، آه أنـا جنكيـز خـان بـل هولاكـو التـتري، ولمـاذا لا أكـون تيمـور لنـك المغـولي؟ كنـت قـد خطبـت مطلقـة جميلـة مـن العـرب، لم يسـتحِ ابـن عمهـا قـال لي لا يمكـن أن نزوِّجـك، لأنـك ستسـافر بهـا إلى الجنـوب، ثـم أردف قائـلًا: أنـت فاقـد الأهليـة، لا يوجـد تكافـؤ. وهـذا يعنـي بـأني دونهـا، غـرور غريـب رغـم رغبـة الفتـاة في الـزواج منـي، كونهـا مطلقـة بخمسـة لـن يتزوجهـا أحـد إلَّا العبـد كـما قالـت أمُّهـا، ورغـم ذلـك حرموهـا مـن الـزواج عـلى اعتبـار أني عبـد، هـذا هـو رأيهـم مهـما داروا وتـواروا خلـف العبـارات المبهمـة والملغـزة: (مـا في قسـمة). لم يقـدِّر اللـه، كـما قـال عمهـا، ولمـاذا لا يقـدِّر متـى خاطبكـم بذلـك، لمـاذا تقوِّلونـه مـا لم يقلـه؟ يـا سـفلة! أنـا وثنـي وأعتـز بذلـك، أنـا أشرف منكـم وأعظـم منكـم وأفضـل منكـم رغـم لـون الأبنـوس القاتـم والداكـن، قالـوا البيـاض والصفـار نصـف الحسـن، ولكننـا نقـول السـواد ليـس نصـف الحسـن بـل كلُّـه، أليـس ذلـك يـا سـلالة البازنجـر؟

القسم الثاني

32

دار حديث غريب بين الضباط! في البداية سرى كشائعة ذكية ولكن سرعان ما أكَّد التجَّار الذين أتوا من الخرطوم تلك الحقيقة، بأن ظهور الرجل غدا حقيقة ناصعة، الرجل المخلِّص الهادي الذي سيملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا، رجل دين قالوا عنه بأنه صوفيٌّ مجذوب تقي ورع، هكذا أكَّد قائد الحامية. وأن الدولة ستسحقه كما تسحق ذبابة، الحكمدار في الخرطوم أعدَّ له العدة، الشيخ أبو السعود ومعه سرية مدججة بأحدث أنواع الأسلحة لسحقه بالجزيرة أبا حيث كانت يتعبَّد في مغارة، إذًا أمر الثائر قد سارت به الركبان، أبو السعود سيقبضه سيُقتَل أو يُحبَس، سيُشتت شمله، الحكومة أقوى وأمضى. الحديث عن الثائر الديني ظلَّ سرًّا يتناوله الضباط بحياء. جاءت الأخبار بأن الثائر قد هزم أبا السعود هزيمة نكراء، والحكمدار في الخرطوم قد شعر بالخطر، ظن أنه جاهل مشعوذ ولكن الأمر بدا بخلاف ذلك، وفي أثناء التمام خاطبنا قائد الحامية قائلًا: أيُّها الجنود الأشاوس لعلكم قد سمعتم بأمر المجذوب الذي ادعى بأنه ولي الأمر، وأننا أتراك كفار يجب قتالنا، ينوي هدم الدولة المدنية ليبني على أنقاضها دولة ثيوقراطية كهنوتية مستبدة باسم الشريعة والدين ولكن هيهات، تجمَّع حوله بالجزيرة أبا بعض السذَّج والبسطاء والغوغاء الذين غرر بهم، وهو يقودهم إلى التهلكة، الآن تتحرك باخرتان فيهما سريتان يقودهما البطل أبو السعود للقبض على الرجل ومحاكمته بالخرطوم، هذا من أمر الثائر، سينتهي أمره في غضون أسبوع، سنشتت شمله، سنفرِّق جمعه، سنقصم ظهره، أعدكم بعد يومين بالنبأ الذي سيشنِّف آذانكم، سيثلج صدوركم. سيُدحَر، سأنقل لكم الأخبار أوَّلًا

بـأوَّل، وعـاش الخديـوي ملـك مـصر والسـودان الخـزي والعـار لقـوى الظـلام والانحطـاط.

تجاهـل القائـد هزيمـة أبـو السـعود المجلجلـة المزلزلـة، وفـراره منكـسرًا منهزمًـا، الأنبـاء تصـل متفرقـة، كل مواطنـي الـشرق صـارت قلوبهـم مـع ذاك الثائـر، كلهـم يرنـون إلى يـوم الخـلاص، بسـبب الضرائـب والقسـوة في جمعهـا، ذكـر سـكان كسـلا وقراهـا أسـاطير كثـيرة عـن كرامـات الرجـل، قالـوا ظهـر مذنَّـب في السـماء، وتلـك إشـارة مـن السـماء لصـدق دعـوة الهـادي المخلِّـص، وقالـوا تحوَّلـت سـيوف شـجر العـشر إلى سـيوف حديـد، وعـلى بيـض الدجـاج مكتـوب اسـمه، وإنَّ الملائكـة تحـارب مـع ذاك الرجـل الـولي الصالـح لـكي يهـدم دولـة الباطـل الظالمـة ويقيـم دولـة الحـق العادلـة، شـعبية الحكومـة تدنـت، تلاشـت، تآكلـت بسـبب هزيمـة الرجـل قـوة نظاميـة. كل شرق السـودان تحـوَّل إلى مصلحـة فقيـه أبـا، الشـيخ عثـمان مـن البجـة قالـوا إنَّـه ذهـب وبايـع وانخـرط في صفـوف الثـوار، عيَّنـه الهـادي أمـيرًا لـشرق السـودان، هاجـر المخلِّـص إلى كردفـان ليكـون بعيـدًا عـن يـد الحكومـة التـي بطـش بجيشـها المنكـسر. في أثنـاء حمـلات التأديـب كل مـن أسرنـاه وحبسـناه وجلدنـاه، قـال: اللهـم انـصر شـيخنا المجاهـد، وأهـزم جيـش الكافريـن، أطبقـت شـهرة الشـيخ عـلى الآفـاق، القلـوب تتـوق تهفـو إليـه، كل فـرد يتمنـى أن يبايعـه لينـصره، قـال لهـم: مـن مـات فهـو شـهيد وسـيدخل جنـة عرضهـا السـماوات والأرض. وسـيتزوج الحـور العـين، وسيشـفع في سـبعين مسـلمًا يدخلهـم معـه الجنَّـة. لا غـرو أن تلاشـت وتآكلـت شـعبية الحكومـة، عقـد النـاس عليـه الأمـل في إنقاذهـم مـن جـور الحـكام المزعـوم، شـعرت الحكومـة في القاهـرة بالخطـر فبـدأت تتدخـل بقـوة، أعتقـد بـأنَّ هـذه نهايتـه. محمَّـد رؤوف وعـلاء الديـن كلاهـما حكمـداران ضعيفـان؛ الديـن وقـود المعـارك، لا بـدَّ مـن سـحب القنـاع الدينـي عـن وجهـه، عندئـذ يمكـن هزيمتـه هزيمـة ماحقـة،

استغل البسطاء والسذج، أعتقد لا بدَّ من الاستعانة بالعلماء لدحض افتراءاته وخزعبلاته وترَّهاته، العلماء أفضل وسيلة لهزيمته فكريًّا، هل هو شيعي يؤمن بفكرة المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت جورًا، هي فكرة أبدعها خيال الشيعة بعد الهزائم المرة التي حاقت بهم، قيادة الحامية في كسلا تنهال عليها المعلومات ولكن تضن بها على الجنود، تخبر الضباط، ولكن المعلومات تتسرب إلينا، في جبل قدير لحق بالثائر عشرات الآلاف الذين يتوقون إلى النصر أو الشهادة. هم يتمتعون بشجاعة أسطورية، لا يهابون الموت ظنًا منه بأنه سيدخلهم الجنة، ويخلِّصهم من فقرهم وبؤسهم يا لهم من مغرر بهم! في تمام المساء دمدم قائد الحامية ووجهه أحمر محتقن كرئة ثور مذبوح: جنودي الأشاوس لقد سمعتم ما فعله الدرويش الأحمق من مغامرة حمقاء حمراء، لقد زعم وادعى بأنه نبي سينقذ الأمة، وأنه خليفة رسول الله، وأنَّ رسولنا الكريم يحدثه ليلًا في منامه، بما يُسمى بالحضرة النبوية. وهو يقول: (حدثني سيِّد الوجود في الحضرة النبوية) هذا هو منشوره سأقرأ لكم ما كتبه: من الهادي ولي الله، إلى حكمدار الكفر، لعنة الله عليه، حدثني سيِّد الوجود في الحضرة النبوية، بأني خليفته، ومن شكَّ في مهديتي فقد كفر، وقال لي ستحكم ستنتصر ستغدو سيدًا على عموم أهل السودان، هذا يكفي، هذا نموذج للشعوذة والدجل السياسي، وادعاء وافتراء على المصطفى (صلى الله عليه وسلم) نبينا الصادق الأمين المعصوم، مجرد أضغاث أحلام، قال إنه خليفة رسول الله، أظنه يفكِّر في إسقاط الدولة بدراويشه العراة الجياع المتعطشين إلى الدماء، ثقوا بأننا سنبطش به بطش عزيز مقتدر، هرب إلى جبال كردفان جعلها كحصون لتقيه بأسنا، بالتحديد جبل قدير وماس، سماها الهجرة كهجرة المصطفى إلى المدينة، تأسيًا به، وهذا ليس صحيحًا شتان ما بينه وبين المصطفى!

نحـن نسـميها الهـرب والفـرار. سـنلاحقه سـنطارده حتـى نقبـض عليـه. وعـلى المغـرَّر بهـم مـن التعسـاء البؤسـاء الغوغـاء الدهـماء، لا يمكـن أن ينتـصروا عـلى قريـة دعـك عـن دولـة، نعـترف بـأن غـدر بحملـة أبي السـعود التـي لم تـأت للقتـال، بـل جـاءت للحـوار لـرده إلى حظـيرة الإيمـان بالتـي هـي أحسـن، ولإثنائـه مـن دعـوة الباطـل، ولكـن خلايـا الـشر والغـدر تحركـت فيـه فغـدر بهـم، ولكنـه سـيدفع الثمـن، الآن اتصلـت قبـل قليـل هاتفيًـا بالقائـد العـام للجيـش وبالحكمـدار، الموقـف مطمـئن وسـيتم القضـاء عليـه وسـيحاكم عـلى الجرائـم التـي ارتكبهـا ضـد الدولـة. أثـار الرعـب في المجتمـع، ليـس للصوصـه هـم غـير الغنائـم ليشـبعوا بطونهـم الجائعـة الخاويـة الخاليـة، هـذا التنويـر مهـم لتعرفـوا الحقيقـة عاريـة، الآن لديـه طابـور خامـس يبـث الشـائعات ويشـجِّع النـاس للسـفر إليـه ومبايعتـه عـلى الباطـل والجهـاد معـه، كونـوا يقظـين ملمِّـين بمـا يـدور مـن صراع في الوسـط مـا بـين الحـق والباطـل، قـال الشـاعر نـصر ابـن سـيار حينـما رأى عصيـان العباسـيين وتمردهـم ضـد خصومهـم الأمويـين:

إنِّي أرى تحت الرماد وميض نار فأخشى أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تزكى وإن الحرب أوَّلها كلام

وقلتُ من التعجُّب ليت شعري أأيقاظ أميَّة أم نيام

الآن فلـول الأنصـار يحاولـون اخـتراق شرق السـودان، فالمدعـو شـيخ عثـمان يحـاول أن يلعـب بالنـار، كلفـه كبـير الدراويـش، كبيرهـم الـذي علمهـم السـحر، بإشـعال الثـورة في شرق السـودان، وهـا هـو يدعـو البجـا إلى الثـورة ضدنـا، سـنقتلهم قتـلًا سـنجتثهم اجتثاثًـا، حاميتنـا الضخمـة في سـواكن وسـنكات وكسـلا وأروما موجـودة، ولدينـا وجـود في معظـم مـدن الـشرق، لا خـوف علينـا، التقاريـر تصلنـي تباعًـا الدولـة جاهـزة لإخـماد

الفتنـة، ومـن الآن فصاعـد اسـتعدوا؛ هـا هـي الفتنـة تكـشِّر عـن أنيابهـا الحمـراء، هـي تدهمنـا في عقـر دارنـا، كنـا نسـمع بهـا، في قـرى شـمال شرق كسـلا تجمَّـع الغوغـاء البؤسـاء التعسـاء المغـرر بهـم يريـدون إعـادة إنتـاج تجربـة الجزيـرة أبـا، غـدًا أو خـلال هـذا الأسـبوع سأرسـل لهـم الجاويـش البطـل خميـس جمعـة سـبت، حفيـد الصـول التاريخـي نيـازي شمسـون الجبـار، ليأتينـي بجماجمهـم، بـل جماجـم الشـيوخ الذيـن يقـودون الفتنـة باسـم الثـورة الإسـلامية. وأنـا سـأتولى قتـال شـيخ عثـمان والمدعـو الطاهـر، سأرسـل رأسـه إلى الحكمـدار، سـأقضي عـلى الفتنـة في مهدهـا، قالـوا المخلِّص عيَّنـه أمـيرًا للـشرق، وهـل يوجـد أمـير غـيري؟ مـا أكذبهـم، شـطحوا، جنحـوا، حلمـوا، ولكـن سـتتحطم وتتهشَّـم طموحاتهـم المجنونـة عـلى صخـور الـشرق الصلـدة، إنـه لـشرف أن نسـهم في القضـاء عـلى الخرافـة والأسـطورة والشـعوذة والدجـل، بـل الهرطقـة والزندقـة، طـوبى لكـم أيُّهـا الأشـاوس سـتنجحون سـتهزمون الباطـل الطاغـوتي المتدثـر بدثـار الديـن الحنيـف، ولا نامـت أعـين الجبنـاء.

33

كلفني قائد الحامية بقمع وتشتيت الأنصار الذين بدأوا يتجمعون شمال شرق مدينة كسلا، في تلك الجبال يحملون رايات سود. مكتوب عليها لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله، المهدي خليفة رسول الله، أعلنوا الجهاد، ثاروا، معي ثلاثة ضباط مصريين هم باهر، وتامر وسامر، أمرهم قائد الحامية ألَّا يتدخلوا، عليهم السكوت فهم القادة الرمزيين وأنا القائد الفعلي، أوَّل مرة يقود الجندي قائده، هو يعتقد بأني سأنتصر نتيجة لشجاعتي التي تصل إلى درجة التهور، ولحقدي على العرب المسلمين الذين استرقوا أسلافي، كان يشجعني للانتقام، كم مرة كلفني بمهمة ثم يذكرني بتاريخ العرب في السبي كنخاسة، وهذا يثيرني ويجعلني أرتكب حماقات، في أثناء قمعي وبطشي بالعرب الذين يرفضون جمع الضرائب، هنا القضية مختلفة، الأمر هنا ليس أمر ضرائب، هؤلاء يريدون إسقاط الحكومة وبناء دولة إسلامية مهدوية ظلامية على أنقاض الحكم التركي المصري الحديث الذي نقل البلاد إلى التمدن وفتحها أمام تيارات الحضارة والثقافة. تولى قتتاأتولى قتالشيخ أ

بعد غد سأتحرَّك لإخماد الثورة، قطعًا هي ليست كالتمرُّدات السابقة ذات الطابع العصياني الذي يتمثَّل في الامتناع عن دفع الضريبة، أمَّا الآن فهم يريدون السلطة يريدون أن يكونوا حكامًا، ما أبعد أحلامهم! سألقنهم درسًا! هم لا يعرفون من هو قرنق دينق كير البازنجري – المشهور بخميس جمعة سبت، كيف سأتعامل مع الضباط هل سأقودهم أنا. أعتقد بأنهم مترددون يخشون الإصابات بل الموت هناك، كل تجاربي مع الضباط البيض، هو أنهم يركزون على سلامتهم يكونون في الصفوف الخلفية، وهذا ما سيحدث، سأجعلهم مراقبين

للإمـدادات وإسـعاف الجرحـى وإحصـاء المـوتى. الملاحـظ لم يخـتر القائـد أي جنـدي مـصري، ربمـا لخوفـه مـن الخسـائر. وصلـت التقاريـر مـن رجـال الاسـتخبارات، إنَّ العـدو يتـدرب يتحصَّـن وهـو في معسـكرات متحرِّكـة خوفًـا مـن المباغتـة وهـم في جماعـات يرتِّلـون القـرآن ترتيـلًا، قيـل إنَّ لهـم أصـوات كطنـين النحـل، هـل سـأنال شرف تشـتيتهم والقضـاء عليهـم، حمـلات الضرائـب ليـس فيهـا مقاومـة، نأخذهـم عـلى حـين غـرة، نحـرق نـدك فرقانهـم ونشـتِّت شـملهم، ونجدهـم دائمًـا نائمـين وغـير مسـتعدين، أمَّـا الآن فالوضـع مختلـف إنهـم يخرجـون لقتـال الكفـار كـما قـال قائدهـم، مـا سرُّ إرسـال ثلاثـة ضبـاط؟ مـاذا يريـد البكبـاشي منِّـي ومنهـم؟ النـصر أم أمـر آخـر؟ الآن قـد اجتمعـت بالقـوة التـي سـأقودها غـدًا، الهجـن سـيُعَدُّ، جـمال بغـال وحمـير، الإمـدادات وضعـت عـلى صهـوات الإبـل مـن الآن، إنه يحـاول أن يغرينـي ويشـجعني لأقصـم ظهـر الثـوار الأنصـار، وعـدني القائـد بالترقيـة إلى مـلازم إذا انتـصرت! وهـذا محفِّـز كبـير! لقـد عـوَّل زعيمهـم عـلى الـشرق للخـلاص مـن الحكومـة، ولكـن هيهـات، بعـد غـدٍ سـأتحرَّك مـن أجـل المجـد الشـخصي، انتصـاري ربمـا سـيرفعني وسـيرقيني إلى ضابـط كـما وُعِـدتُ، وهـذا مـا أرنـو وأتـوق إليـه.

خرجنـا في اليـوم المحـدَّد خـرج القائـد وودعنـا وتمنـى لنـا النـصر، وفجـأة أمرنـا القائـد بالتوقـف إلى حـين إخطـار آخـر، احـترت في أمـر الضبـاط الثلاثة لمـاذا يجعلنـي أقودهـم؟ جاويـش يقـود يوزبـاشي ومـلازم ثـانٍ ومـلازم أوَّل، إذا عُـرِفَ السـبب بَطُـلَ العجـب؛ هـؤلاء الضبـاط كانـوا معـه في صراع مسـتمر مسـتميت بسـبب مخالفاتـه الماليـة. إذًا فهـو يريـد أن يتخلـص منهـم بهلاكهـم وإهانتهـم، ولكـن هـذا غـير مهـم، المهـم أننـي أثبـت كفـاءتي كبطـل شـجاع، ولمَـا لم يكـن الأمـر كذلـك لمـا تبـوأت مكانـة ضابـط وأنـا صـف ضابـط، الآن أنـا ضابـط بغـير نجـوم! عمومًـا سـأبذل قصـارى جهـدي، بثـت عيـوني كلفتهـم بجمـع المعلومـات، هـم بـدو جواسـيس

لقائـد الحاميـة يجمعـون المعلومـات الاسـتخباراتية مقابـل المـال الـذي يتسـلمونه شـهريًا، طلبـت مـن البكبـاشي أن يضاعـف لهـم العطـاء ليتعقبـوا الدراويـش، مـاذا ينـوون ومـاذا يحملـون مـن أسـلحة، مواقعهـم أسـلحتهم، قادتهـم يُسـمون بالأمـراء، كـما قـال الشـاعر العـرب ابـن الرشـيق:

ألقاب ملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

المرشـدون أو الغواصـات يحصـون أنفـاس الأنصـار الأوبـاش في كل لحظـة تـأتي إلى قائـد الحاميـة معلومـات مهمـة عـن تحركهـم وموقعهـم، أجلنـا الحركـة إلى الأسـبوع القـادم، الآن اكتملـت الاسـتعدادات كل الجنـود في روح معنويـة عاليـة، أسرفـوا في شرب الخمـر، صُرِفَ لهـم راتـب شـهر كحافـز، عاقـروا الحانـات والمواخـير، عليهـم أن يسـتمتعوا، ربمـا تكـون هـذه آخـر أيـام حياتهـم، مـن يـدري هـل سـيرجعون ظافريـن أم يستشـهدون، الـرب وحـده هـو الـذي يـدري خاتمـة مطافهـم.

أطلَّـت سـاعة الصفـر الاسـتعدادات بلغـت ذروتهـا، كان الجنـود في روح معنويـة عاليـة، يترنمـون يهزجـون يتغنـون، قائـد حاميـة كسـلا في مقدِّمـة الركـب، شـجعنا عـلى الصمـود وقتـل العـدو قتـلًا حتـى يستسـلم، أمَّـا الضبـاط المصريـين سـامر، وباهـر، وتامـر فقـد كانـوا في روح معنويـة مهشـمة محطَّمـة، عـلى وجوههـم العبـوس والكآبـة والانقبـاض، هـل يخافـون مـن القتـل، مـن لم يمـت بالسـيف مـات بغـيره، لم يحـدث أن حاربوا حـرب عصابـات التـي بـرع فيهـا شـيخ عثـمان أمـير الـشرق المزعـوم. اقتربت مـن الضبـاط وحييتهـم وأعطيتهـم التـمام، وأخـذت منهـم الإذن بالتحـرُّك، هـذا السـلوك سرَّهـم وحقـق لهـم توازنًـا نفسـيًّا لمـع في وجوههـم البيضـاء. الدليـلان والمرشـدان، صرنـا نقتفـي أدراجهـما مـن عـلى البعـد، كـما لـو أننـا لا نعرفهـما متابعـة بصـورة ذكيـة، جمـلان جميـلان يقتربـان ويبتعـدان كنـوع مـن التمويـه. أحـد الجـمال عليـه الشـاب كـرار يخـب خببًـا، والآخـر

يتلكأ ثم ينطلق نحو الآخر، جبال وربوات ووديان، منطقة وعرة. ظمئت الإبل بعد ست ساعات من الانطلاق السريع. فكرت في أخذ قسط من الراحة لتناول وجبة خفيفة. بلغ الإرهاق بالجنود مبلغه، توسَّل لي تامر قبل ساعتين لنستريح ولكنني أقنعته بضرورة قطع المرحلة الأولى، الآن أنخنا جمالنا لترتع هي ولنأخذ راحة، أكلنا شربنا خاطبتهم متفائلًا قائلًا: اعلموا يا سلالة البازنجر، أنتم أحرار أبطال، الجنود الأشاوس، قال عدونا: لقد خلقكم الرب للرق والحرب، وعن طريق الحرب نستطيع أن نهزم الرق الذي فُرِضَ علينا بقوة الحديد والنار، هؤلاء هم الذين استرقُّوا أسلافكم وباعوهم بيع البهائم، كانوا يهاجرون من هنا - جنوبًا – إلى الأدغال من أجل صيد الرقيق، الآن أبناء جلدتكم مسترقون، يعملون مع هؤلاء البدو في الرعي والزراعة، النخاسة سرقوا البكر العذراء والنفساء، لم يترددوا في اختطاف الأطفال والصبيان والبنات، المرضع و العروس، الشاب والشابة، لا يتركون إلا الشيوخ والذين هرموا، حربنا مع الدراويش لتصفية حسابات قديمة شخصية انتقامية ثأرية، صحيح أنهم أعداء الدولة وهي الآن تحاربهم، ولكنهم ألدُّ أعدائنا لصوص البشر الذين يتاجرون بهم. ألم تروا سوق الرقيق بمدينة كسلا؟ السلعة من قراكم من قبائلكم وأفخاذكم، من فضاء البازنجر الذي عبثوا به كمغامرين، لا بدَّ من الثأر لأسلافنا هذه فرصة لتقتلوهم لتسجنوهم وتسحلوهم وتعذبوهم وتسترقوهم، غدا ومع شمس الضحى سنرى جحافلهم الهاربة الجبانة، هم رعاة حفاة عراة سلاحهم حراب وسهام وسيوف، أدوات حرب القرون الوسطي، ستحصدهم الأسلحة النارية حصادًا، سيبكون كما تبكي النساء، سيولولون كما تولول الأرامل والثاكلات. يهاجمون القرى يبحثون عن الأكل والشرب. همهم الغنائم، ولكن هيهات، سنجعلهم هم الغنائم. بأمر الخديوي العالي بفرمانه. أمر الخديوي كالأمر الرباني واجب

التنفيذ علينا جميعًا، الخديوي ملكنا المعظَّم المؤله. سبحانه ما أعظم شأنه! هو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور كما يقول المسلمون، مع الاعتذار لسامر وتامر الضابطان المسلمان العظيمان! أمَّا سعادة ضابطنا الهمام باهر فلن يغضب كمسيحي، الآن نتحد تحت راية الخديوي ملك مصر والسودان، نتحد مسلمون ومسيحيون ووثنيون، تحت أعلام ملكنا المرفرفة، لكي نقضي كما قال قائد الحامية - نقضي على الشعوذة والدجل والأسطورة والخرافة، اكنسوا نظفوا جففوا الشرق من البؤر الآسنة، كل فرد يرمي العدو بقدر ما يستطيع بالشرر باللهب بالحمم، ربنا في الجنوب، رب البازنجر سيسدِّد خطانا، سينصرنا على الزنادقة والهراطقة كما يقول المسيحيون يا تامر سيدي، هزيمة هؤلاء الأشباح أسهل من شرب الماء البارد، سيفرون سيهربون كالنعام سيبكون كما تبكي النساء، لا تهابوا لا تخافوا لا تترددوا الموت كالنوم راحة كاملة، لا أحد يخلد إلَّا الآلهة، لا يتعلق بأهداب الحياة إلَّا الجبناء التعساء، سنعود سالمين غانمين، سنشتت شملهم، سنفرِّق جمعهم، سنقبض على أميرهم المدعو عثمان، هو هناك في عمق الجبال، أرسل إلينا هذه الفئران التي سنلتهمها كما القطط المتوحشة في وثبة نمور ضارية، كلوا وأشربوا واسكروا، هذا هو القرقوش، وهذا هو العدس والزيت والبصل والجبن والعسل المصري والتمر الهندي، لديكم ما لذَّ وطاب، وعدوكم يلهث إلى الماء ويتسوَّل الغذاء، لا توجد مقارنة، أنتم في روح معنوية عالية، وهم في روح معنوية منهارة متدنية متلاشية، أطلقوا النار بكثافة، صوت السلاح الناري سيرهبهم سيرعبهم سيفزعهم سرعان ما يولون الأدبار ويتبعثرون على قمم الجبال والسفوح خوفًا من دمدمة الرصاص الذي سيحصدهم حصادًا.

ساعتان للغداء والراحة، ها هي الدواب تأكل بنهم حتمًا ستشبع وسننطلق، يبدو أننا كدنا نصل حدود العصابات، المرشد قال لمحهم

بشعرهم المجعد الطويلة المقمَّل، بوجوههم القبيحة، بملابسهم القذرة النتنة كما لو أنهم خرجوا لتوهم من قبور القرون الوسطى، سنبدأ القمع والقتل، لا بدَّ أن نصطاد كلبًا ثم نعذبه ليعترف بموقع المجرمين المتمرِّدين، وهذا ليس بالأمر الصعب، أريد خمسة شجعان، عليهم أسر كلب ضال مِمَن يسمون أنفسهم بأنصار الله، أعتقد أننا قد ارتحنا وشبعنا وارتوينا، لا نتوق إلَّا إلى القتال.

نتحرَّك بعد ساعة، أشجار ذابلة كئيبة، أحجار وحصى سنجابي يتمدد وينداح على مرأى البصر. تلال مرجانية نسور و صخور رسوبية، جلاميد جرانيتية، سماء زرقاء، الريح توحوح وحوحة، طيور كئيبة تسف وتعلو وتغرد، تلك شاة رقطاء عجفاء وذاك جمل أصفر وأبلق يمد عنقه إلى أعلى الدوحة ليلتهم الأوراق اليانعة.

34

تحركنا تغلغلنا شرقًا، وضعت القوة في شكل مستطيل تحيط به الدواب، كدروع إذا حاول العدو الهجوم، وخاصة أن الأشجار بدأت تتضخم وتغدو كثيفة طويلة، تساعد في الاختباء والاختفاء، لهذا حذرت المقدمة والمؤخرة، انطلق الجنود الخمسة لاصطياد الفريسة، لنفرغ من جوفها المعلومات التي ستساعدنا في قتل العدو، هل يمكن لهمج وأوباش أن ينتصروا على دولتنا؟ أيسقطون وطنًا شامخًا ويقيمون دولة بدائية على أنقاضه؟ كلا مستحيل، لو سلمناهم الدولة ماذا سيفعلون؟ هم جهلاء سذَّج بسطاء أغبياء. لعب الشيطان برؤوسهم. أغواهم ووسوس لهم، أوغر صدور، هم ضد سيدي الخديوي الذي اعتبروه كافرًا، أقول كما يقول المسلمون: معاذ الله حاشا لله، هم الكفرة الكاذبون الضالون.

ما زال المستطيل يتحرَّك ببطء شديد خوفًا من غدرهم، قالوا لنا شيخهم دربهم على حرب العصابات. اضرب واهرب، عيوننا مفتوحة سنقضي عليهم، ما زال الخمسة ينطلقون ببنادقهم لاصطياد أنصاري، نعذبه ليزودنا بأسرار الجماعة الغريبة الغامضة، تنامت قعقعة ودمدمة رصاص، هل أطلق رجالي النار على العدو؟ هل قبضوا أسيرًا، صراخ كصوت وحش مجروح يحتضر، ما زال الصوت يصك الآذان ماذا جرى، انقطع دوي الرصاص، الأشجار تصغي توسوس، الحجارة في سكون، عسجد الأصيل يتلألأ على سطح الصخور الرسوبية، والجرانيتية تمتص الشعاع، نباتات صفراء ذابلة شوكية. تحرَّك الضباط الثلاثة نحو منتصف المستطيل المترهل مرعوبين، سقطت بضع سهام جرحت خمسة جمال، ورصاص أصاب رأس بعير فصرعه، أطلقنا النار بكثافة دون أن نرى

العدو، تبعثرنا تشتتنا، المدفع الذي يجره الجمل. أطلق بضع قذائف، فرَّ العدو الجبان بعد أن كبدنا الخسائر. الصراخ ما زال يفطر القلوب، جاءني وليم كير حزينًا، قال لي: قير جاك توم مجروح، خففنا أسرعنا لإسعافه، آه ما أتعسني، سهم غاص على ظهره وهو يصرخ ويئن! كيف ننزع هذا الوتد الدامي. غاص أكثر من عشر بوصات، لا بدَّ أنه أخترق القفص الصدري، توشَّح جسده بالدم، صوته بدأ يتلاشى رويدًا رويدًا، تصبب عرقًا سرعان ما لفظ أنفاسه، إنه أوَّل شهيد، نزعنا السهم بعد جرح عميق، كما يقول الشاعر المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام.

حفرنا حفرة سطحية وأودعناه الصلصال الطازج، ويا له من وداع حزين أبدي! خاف الضباط الثلاثة خوفًا شديدًا من هذا العدو الذي لم يخسر، في حين خسرنا نحن، قتيل وخمسة جرحى، وثلاثة من الإبل مات واحد ونحرنا اثنين تعشينا بهما، الظلام يخيم، ويا له من دجى! تفاقم الحزن واليأس، الجبال والغابات والوديان، الضباط الثلاثة توسطوا الدائرة الشوكية فزعين مرعوبين، حظيرة سميكة من شوك الكتر أحطنا بها معسكرنا خوفًا من الذئاب، والذئاب البشرية، ظللنا طوال الليل في مناوشات تتساقط علينا الرماح والسهام، استشهد خمسة جنود وجُرِحَ خمسون، طاردناهم، ساعدهم الظلام في الاختفاء، في أثناء المطاردة فقدنا ثلاثة، أسروا واحدًا، قتلنا ثلاثة منهم، هم شجعان بواسل يتهافتون على حياض المنايا، شيخهم قال لهم: لقد هبَّت رياح الجنة، حور عين، خلود، عسل، لبن، لحم طير مما يشتهون، هذا لا يهمنا، إنَّ روحهم المعنوية عالية، لا يهابون ولا يترددون، لجأت إلى حيلة إطلاق النار الكثيف في الهواء ونحو الظلام المجهول، لديهم بنادق عتيقة ثلاث أو أربع من نوع رمنجتون القديم، كنا نسمع أصواتها تسعل وتسعل. تشتتوا تبعثروا حينما رأوا كثافة النيران، لم ننم، انحسر صوت سلاحهم

قُبيل الفجر، ويا له من سهاد مرٌّ! ابتسم السحر، حلَّ الفجر الكاذب، ثم أومض الصادق، فرحنا مع تباشير الصباح، غرَّدت طيور الروابي. وهبطت نسور الجبال نحو السفح والوادي، ظمأ الجنود، لا بدَّ من البحث عن مورد ماء، توارى المرشدان، لا أدري لماذا، لم تكن تقارير المرشد والدليل دقيقة.

تغلغلنا شرقًا، تأكد لي بأنهم بواسل لا يخشون الأسلحة النارية. لديهم أسلحة بيضاء يجيدون استعمالها، تكاثرت أعدادهم، بدأنا نراهم كالنحل كالجراد، ماذا يريدون، أمرت جنودي بالفتك بهم، بقتل أكبر عدد منهم لكي يتبعثروا، إننا الآن صوب معسكرهم الرئيس، هل يعدون لنا كمينًا؟ انتابني شعور بأنهم يستدرجوننا إلى فخ محكم في عمق الوادي بين الجبال لينقضوا علينا. إنها سلسلة وعرة كلما توغلنا تهنا، القافلة تسير ببطء سلحفائي، دلكت الشمس إلى المغيب، ستزداد متاعبنا ليلًا، أين الإمدادات التي وعدني بها البكباشي قائد الحامية. لعنة الرب على هؤلاء الغجر البرابرة، صالح حامد البجاوي المرشد، هل أنت صادق، وأنت يا عثمان كرار ألست من أغدقنا عليك الأموال؟ إياكما وغدر البجا!

ما زالا يتصلان بالجندي عيسى مجوك مسؤول الصلة مع المرشدين، بين الفينة والفينة تأتيني الموجهات الخاصة بالمسالك والمعابر، شِعب معرجة وعرة، إننا نجد مقاومة شرسة كثرت الخسائر، ما فتئنا نمشي على الشوك والحجارة والأمل يذبل يزوي في انتصار سريع. مرَّ اليوم الثالث ولم تصل إلينا الإمدادات، العدو يكشِّر عن أنيابه بهجمات خاطفة كالبرق، إنهم يتمتعون بسرعة كالأرانب يتقافزون على الصخور بملابسهم الرثة المهلهلة، شبه عراة، إنهم يفلتون من الرصاص، بنادقنا مداها مئتي متر. عرفوا هذه الثغرة فنفذوا من خلالها. يصلون إلى مسافة ثلاثمائة مترً ثم يطلقون السهام والرماح، أمطرونا بحمم،

تتساقط تهطل كما الرذاذ، آه يا ويلي! سهم طائش ثقب عين جندي، جراح على المناكب والبطون الصدور. عرى الرعب الجنود، توجسوا ترددوا تبعثروا، ما أتعس حرب العصابات لو ثبت العدو لسحقناه سحقًا، ولكنه يضرب ويهرب، فقدنا حيوانات كثيرة عقروها ذبحوها، بعد أن تركناها لهم، استفادوا منها أكلوها، مددناهم بالطعام. يا لهم من جياع! شعرهم غزير مجعد مدهون بالودك، قصار القامات على وجوههم شلوخ طولية، بعضهم يرتدي ملابس من جلود الحيوانات، مصممون على قتلنا، بل سنقتلهم، كنت رابط الجأش اعتمادًا على الأسلحة النارية، سنهزمهم سنهزمهم سنمزقهم، مهما تكاثروا أو تهافتوا.

35

اختفى المرشد الأول حامد صالح، وتوارى الدليل محمَّد عثمان كرار، لماذا ابتعدا؟ جاءني الوسيط مضطربًا مرتبكًا باكيًا، أيبكي الجندي الأسود من سلالة البازنجر؟ الويل لك! زجرته، طأطأ رأسه، ثم همس: خدعنا الخائنان! لعنة ربنا عليهما، قلت له بتوجُّس وتلجلج وتلعثُم ماذا جرى؟ أين هما، سلمني خطابًا مكتوبًا على جلد ماعز مدبوغ نظيف، بدأت أقرأ: لا سلام الله عليكم، أيُّها الغزاة الطغاة البغاة. نحن مع الثورة الدينية بقيادة الهادي لكتاب الله، بايعناه على كتاب الله وسنة رسوله. ليحرر البلاد من جوركم وظلمكم وكفركم، لتطبيق الشريعة الغراء البيضاء، ما أنتم إلَّا كفرة فجرة. أنت وخميس جمعة سبت وكل السود الذين يعملون في الجيش إنما تخونون وطنكم، وتقتلون شعبكم، وتحطمون بنيانكم وتهدمون دينكم، مقابل خمسة جنيهات في الشهر، لا تكفي خمركم وسكركم وعربدتكم، ضللناكم خدعناكم استدرجناكم أدخلناكم إلى طريق الموت والهلاك، ستتغذى بكم نسورنا وذئابنا، الآن الأنصار فوقكم وعلى جانبيكم. أنتم مطوقون محاطون بأنصار الإمام الذي جعل الله الموت لهم أشهى من شرب الماء البارد، ليس أمامكم إلَّا الاستسلام أو الهلاك يا كفرة، لن نخون وطننا، جاءت ساعة التحرير لطرد الحاكم الدخيل الأجنبي، عاهدنا الله والوطن على أن ننتقم منكم، أتظنوننا جواسيس وعملاءً، نعمل ضد وطننا، ونقمع ثورتنا مقابل عشرة ريالات في الشهر! يا لكم من أغبياء خبثاء جبناء، الآن أنتم لقمة سائغة للثوار، بنادقكم لن تفيدكم، رصاصكم لن ينقذكم، أسلموا واستسلموا، ستنجون من الهلاك، بايعوا الهادي من الضلال، العناد والشقاق لن يفيدكم، أنا محمَّد عثمان كرار

وهـذا أخـي صالـح الجاسـوس المزعـوم نختـم ونبصـم عـلى الخطـاب الـذي كتبـه لنـا شـيخ عثـمان العـالم، موتـوا كمـدًا. نحـن كخليـة النحـل. كالأسـود الضاريـة الجائعـة، سـنمزقكم تمزيقًـا سـنمضغكم مضغًـا سـنبلعكم بلعًـا، واللـه عـلى مـا نقـول شـهيد ولا نامـت أعـين الجبنـاء، وعاشـت ثورتنـا تحـت قيـادة إمامنـا التقـي الـولي، ومـا النـصر إلَّا مـن عنـد اللـه.

حزنـت حزنًـا شـديدًا لخيانـة الرجلـين اللذيـن كنـا نعطيهـما المـال مقابـل المعلومـات، لعنـة الـربِّ عليهـما! إذن صـدق حـدسي، إنهـما ورطانـا في هـذا المـأزق، تحيـط بنـا الجبـال السـامقة هـذا وادٍ عميـق، أشـجار وتـلال وصخـور وحفـر ومطبـات، مـا زالـت الرمـاح تتسـاقط والحجـارة كالـرذاذ تـأتي مـن منصـات عـلى قمـة الجبـل، كمـين محكـم. كيـف أنتـصر عـلى عـدو مجهـول يـضرب ويهـرب، بلـغ الرعـب بجنـودي مبلغـه. بعضهـم فكَّـر في الفـرار، وآخـرون فكـروا في الاستسـلام. أمَّـا أنـا سـأقاتل إلى آخـر رجـل، وسـأعدم كل مـن يتخـاذل، في وسـط الـوادي أمرتهـم بقطـع غصـون الشـوك، أحطنـا المعسـكر بحظـيرة سـميكة، المدافـع في المقدمـة والذخـيرة والمـؤن في منتصـف الدائـرة، الجنـود ينتصبـون ويصوبـون أسـلحتهم تجـاه العـدو ويطلقـون النـار، يـا للأسـف مـدى الرصـاص مائتـي مـتر، عرفـوا هـذه الثغـرة، بـدأوا يقتربـون عـلى مسـافة خمسـمائة مـتر بـل دون ذلـك، ويطلقـون السـهام والرمـاح، التـي لم تطـش كلهـا سـقطت علينـا أصابـت الكثيريـن، لا بـدَّ مـن إبعادهـم عـن دائـرة المعسـكر، أمـرت خمسـين جنديًـا بمطاردتهـم لفـك الحصـار، كيـف نـشرب، كاد المـاء ينفـد، هـم يسـيطرون عـلى النبـع، لا بـدَّ مـن طردهـم مـن منهـل المـاء، هاجـم جنـودي بـضراوة، طردوهـم، جـروا كانـوا أسرع مـن الأرانـب في الجبـل، ولكـن تسـاقط بعـض الجنـود جرحـى وهـم يصرخـون، أصابتهـم الحـراب، هاجمـوا الجرحـى، غنمـوا بنادقهـم، بـل خلعـوا ملابسـهم، وأخـذوا نقودهـم، لم يعدموهـم بـل تركوهـم يموتـون نزفًـا، مـاذا أفعـل؟ فقـدت ربـع القـوة التـي أرسـلتها

ويا لها من خسائر! لهم رايات سوداء مكتوب عليها، لا إله إلَّا الله الهادي خليفة رسول الله، لهم إصرار عجيب وشجاعة أعجب. كادوا يهزموننا، هذه حرب ليست كحرب الضرائب التي ظللت أقودها ضد البدو. عاد نصف الجنود يلهثون ظامئون، النصف الآخر سقط ما بين قتيل وجريح وأسير، يا إلهي ماذا أفعل! إنهم يتكاثرون يتهافتون كخلية النحل، في كل الاتجاهات كالنسور كالسيول تحطِّم الصخور. وهم يزحفون بعزيمة قوية، ربما أقسموا على إبادتنا، هذه هي الحرب التي علَّمها لهم أمير الشرق شيخهم عثمان الذي عكَّر صفو الحكومة وأرَّقها، دخلنا الحظيرة وأمامنا الشوك، نحن نطلق الرصاص والسهام تتساقط، من قمة الجبل دحرجوا صخورًا تدحرجت ودعست كثيرًا من الجنود، هرستهم هشمتهم. بكاء وعويل جراح ونزف، إنها يصيحون يزعقون، لا إله إلَّا الله، الهادي خليفة رسول الله، الله أكبر ولله الحمد، هم جحفل وطيس الرمل، جحفل كقطع الليل الأسود، ضعفنا عشرات المرات، مع عشرات البنادق والرماح والسيوف، فجأة طفقوا يصرخون، شهادة شهادة، الموت للكفار اندفعوا كالنسور كالأسود الجائعة نحو الزريبة، تسابق جنودي نحو الفرار، بعضهم رمى سلاحه ووثب نحو شوك الحظيرة أو خاضه هاربًا، أسرى في ذل وخنوع، رأيت الخائنين محمد عثمان وصالح، يهاجمانني كنمرين شرسين، يقبضانني كأسير، قاداني غربًا، كتفا يديَّ ورجليَّ، وانطلقا بي غربًا . لا أعرف مصير جنودي، قلت لهما:

- أتركوني أموت مع جنودي.

قال محمد بهدوء:

- لولانا لكنت في عداد الأموات، نحن الآن نساعدك، لنرد الجميل.
- أنتما خائنان.

- نحن ثوار مجاهدون في سبيل الله، يمكنك أن تكون أحدنا إذا أسلمت.
- لن أسلم، أنا وثني.
- نحن ندري ذلك رغم ذلك أنقذناك.
- أنقذتني؟ يا للعار! أنا مجرد جندي هارب.
- مجرد أسير أنقذه صاحباه، نتيجة للصداقة القديمة، لولانا لهلكت.
- أرجو ألَّا تتحدث معي يا محمَّد عثمان، أنا في حالة نفسية سيئة، فأنت عدو خائن قدمتني هدية لجيشكم الجائع. المتعطِّش للدماء.
- الحرب خدعة.
- هذه خيانة.
- نحن أنصار دين.

صمتُّ أطرقتُ، ما زلنا ننأى عن موقع المعركة، وحينما دخلنا القرى الآمنة غير الثائرة، وهي بالطبع موالية للحكومة، أناخا البعيرين، ترجَّلت، أشار محمَّد عثمان إلى اتجاه كسلا، قال لي:

- تحرَّك على بركة الله، اذهب إلى قائدك وانقل له ما جرى لجيشه، أنقذناك من أجل العلاقة القديمة. ألم تكن ذات يوم حلقة الوصل بيننا وبين قائدك؟ ما تسلمناه من نقود، هي أموال الشعب السوداني وليست أموال المصريين أو الأتراك، نحن مع الثورة، ولن نخونها مقابل مال دنيا زائل، هذه زمزمية ماء وهذا كيس القرقوش من غنائمكم، قد تصل غدًا إذا أسرعت، انزل ضيفًا عند من تمرُّ بهم سيكرمونك. أهل القرى كرماء.

لم أعقِّب على حديثه يممت شطر الجنوب الغربي مهمومًا محزونًا مهزومًا، أمشي منكَّس الرأس، وأنا أتذكَّر لحظات الهزيمة المرة. كلما دنوت من قرية أجد الطعام والحديث الطيب، سألوني عن الثورة وقائدها البطل، كنت أتهرَّب من الإجابة، البعض استفسر عن الحملة الحكومية للقضاء على الثورة، وهم يعنون قوتي، أنكرت معرفتي بنتائج المعركة، ما فتئت أمشي وأمشي مطرقًا كئيبًا محزونًا. بت في خيمة استضافني صاحبها الكريم بدوي قصير شعره طويل، قدَّم لي عصيدة بلبن. ما أحلاها! كنت جائعًا حقًّا، أيقظني لصلاة الفجر، خدعته صليت معه. أنا وثنيٌّ، ورغم ذلك تظاهرت بالإسلام لكيلا أفقد تعاطف مضيفي، هو ختمي ينتمي إلى طائفة الشيخ الحسن الميرغني، كذلك قلت له أنا ختمي. فرح فرحًا شديدًا، ودعني بعد أن زودني بالماء والطعام، تحرَّكت متغلغلًا متوغلًا نحو كسلا عروس الشرق، سألجها سقيمًا أسيفًا، ماذا أقول لقائد الحامية، لا بدَّ أن أدخلها ليلًا، سأتوارى خجلًا، سأذهب إلى بيتي مباشرة، لأحكي لجدي هول المأساة التي تبيض لها رؤوس الولدان، وتقشعرُّ لها الأبدان.

36

استشرفت مدينة كسلا غانية الشرق وجبل توتيل يطرِّز لها زفافًا رائعًا كعروس، وقبة الشيخ الحسن الميرغني تتلألأ كأيقونة مقدسة، كان ذاك في اليوم الثالث، تلكأت في المشي حتى يحل الظلام، لكيلا يراني أحد. سأتوجه إلى بيتي وأنا مأزوم محزون، بلغ بي الإعياء مبلغه، أين جنودك؟ أدفنتهم هناك يا خميس جمعة سبت؟ يا ملعون. لماذا لا تموت أو تُؤسر معهم؟ أتقبل أن ينقذك الكلبان الجاسوسان محمَّد عثمان وصالح؟ يا لي من رجل تائه في متاهات الزمان! ليتني قُتِلت أو أُسِرت. ماذا تفيد الحياة مع الهزيمة المريرة؟ الموت كان أفضل. كم تمنيت أن أموت ولكن هيهات.

ظللت أمشي وأمشي، تلك كسلا الغادة الحسناء، غدت قاب قوسين أو أدنى، لبثت في الغابة حتى حلول الدجى. المهزوم لا بدَّ أن يلج المدينة خلسة متواريًا هاربًا، لئلا تنوشه العيون، الشمس تدلك إلى المغيب ناعسة ذابلة. العسجد ينسكب على نهر القاش المنساب في كبرياء، كاد فصل الخريف أن يطل، هطلت أمطار على الهضبة الحبشية ها هي تيقظ النهر الوسنان، ما زلت أمشي رويدًا رويدًا، حلَّ الظلام، أعطف ذات اليمين وذات الشمال متنكرًا. لففت رأسي بشال وهبه لي محمَّد عثمان، هذا هو قشلاق الحامية بسوده ببازنجره عبيد الرب والناس، كيف أدخل من غير أن يراني أحد، يا للعار! هذا هو بيتنا الكئيب بعد ثلاثة أسابيع من الجهاد المزعوم كما يقول المسلمون.

من حسن الحظ وجدت البيت خاليًا خاويًا على عروشه، إني لأسمع أصوات معازف ومزامير وطبول ورائحة خمر، أهلنا في لهوهم كعادتهم، ربما سماية ولد بول موسس، أنجبت زوجته طفلة قبل أسبوعين، أو

ربما خطوبة نيارك، المهم لم أجد أحدًا. سقطت على السرير وجسدي المنهار يتمدد مكدودًا؛ ليسبح في بحيرة السبات العميقة، لم يوقظني أحد، بُعيد الفجر استيقظت، كل الأسرة تغط في نوم عميق، عاودت النوم حتى شروق الشَّمس، غرَّدت العصافير الصفراء على أفنان دوحتنا الخضراء بأصوات عذبة كرنين الذهب، تمددت انكمشت، تلَّفتُّ ذات اليمين وذات الشمال، شعرت بحركة رتيبة كئيبة، هي حركة زوجتي، وهي تدور وتمور. يبدو أنها فوجئت بوجودي في الديوان، إنها قلقة يبدو أنها تنفَّست الصُّعداء بعد انقطاع أخباري خلال أسبوعين، جدي هو الأهم، ماذا سيقول عن الهزيمة الأليمة، لقد خيَّبت ظن قائدي وكل من راهن على جسارتي وخبرتي.

كوابيس انتابتني في أثناء النوم، هي انعكاس لما حدث يوم المعركة، يا لها من هيجاء رعناء! يهاجمون بضراوة عشرات يحملون الرماح والسيوف، في قلب معسكرنا شجرة ضخمة استند إليها وارتكز عليها الضباط الثلاثة وفي يد كل واحد مسدس، يدورون حول الشجرة اتقاء سهام الأعداء رماة الحدق، كل جنودي خلف الحظيرة يطلقون النار بكثافة. ورغم ذلك، الأعداء المتعطشون للدماء يتهافتون يتدافعون يتساقطون أمام جدار الرصاص، العشرات اخترقهم الرصاص والعشرات اجتاحوا واخترقوا الحظيرة بأرجلهم كخيل جامحة راكضة. وأعملوا سيوفهم في رقاب وبطون جنودي الهاربين، شجاعة نادرة للأعداء. أحدهم يطارد الضابط باهر بسيف مصقول، جروا خلفه كذئاب تطارد شياهًا، هم يدورون خلف الشجرة تجنبًا للسنان السامة والسيوف الحادة التي ستجتث الرؤوس، قطعوا رؤوسًا كثيرة. مجزرة بشعة. وأخيرًا تعثر باهر فقطع المهاجم رأسه، ثم ظهر بجاوي بالاتجاه المعاكس، قفل الضابطان عائدين هاربين مرعوبين وسرعان ما وجدا أنفسهما وسط السيوف، اجتثوا رأسيْ سامر وتامر وهما يصرخان: نحن أسرى نرجوكم!

لم يعبأ الأعداء، أمَّا أنا فقد سقطت تحت حماية عدوي، هما أنقذاني من الهلاك، لا أدري لماذا.

تشجَّعت؛ استيقظت، صافحت أفراد الأسرة بشوق وشغف، جاء جدي وعانقني، بكت زوجتي، كيف أجابههم بالحقيقة، قدموا إليَّ الشاي بالزلابيا، عيونهم تقول ماذا جرى، لا بدَّ أن أكشف الحقيقة كاملة، جدي في انتظار الحقيقة. حكيت له كل تفاصيل المعركة انزعج للهزيمة النكراء الشنيعة وللخسائر الكبيرة. ولكن عاد وقال بثقة: هكذا الحروب، هزيمة أو نصر أو انسحاب، لقد أنقذك دينقديت. إله الجنوب. هو عطوف وبشوش ورحيم،

طالبني جدي بالذهاب إلى قائد الحامية للإبلاغ عن كل ما حدث، ترددت توجست. الخزي العار يمنعاني من التوجه إلى الحامية، ماذا يقول المهزوم الهارب، ماذا يقول من لم يستطع دفن موتاه، ماذا يقول من سلَّم كل أسلحته للأعداء فقوَّاهم ومدهم بأسلحة نارية. مئات البنادق، وعشرات صناديق الذخائر، مؤن وعشرات الجمال كغنائم، ماذا أقول. ليتني مت هناك. كيف أبرِّر، كيف أعتذر؟ لماذا انهزمنا من أوباش يحاربون بأسلحة القرون الوسطى البيضاء؟

كان جدي مصرًّا على ذهابي للحامية لأبلغها بما جرى، ولكنني مترددٌ، أخشى العتاب والحساب، لقد خيبت ظن القائد. ماذا أقول؟ المجابهة صعبة ومحرجة، أقول له خاننا المخبران، خاننا الجاسوسان، هو الذي اختارهما، هو كمصري لا يعرف غدر البدو، لديهم ولاء مطلق لقبائلهم، أكلوا أموال الحكومة دون أن يقدموا أي خدمة في الوقت المناسب، خذلوا الحكومة دفعوا جيشنا إلى المحرقة، تتبعوا جيشنا، قادونا إلى الكمين الذي قضى علينا بين جبلين، ما أشدَّ غبائي! لماذا وثقت بهما، لقد شتتا شملنا بعثرا جهودنا، فانقضَّت علينا جحافلهم فمزقتنا شر ممزق.

37

بعد عناء أقنعني جدي للمثول أمام القائد. بقائي بالبيت لن ينجيني من المسؤولية، يممت شطر الحامية مبكرًا؛ لأحضر التمام، ارتديت الميري - الكاكي المكوي، منذ الفجر كنت في ميدان التمام الشرقي عند مدخل الحامية، أبكي وأبكي وأنا مسؤول عن هلاك أربعمائة جندي مع ثلاثة ضباط مصريين مغضوب عليهم، دفعهم القائد للتخلص منهم، لينأوا عنه. شوق شديد واحتضان وسلام ممزوج بحب وريبة وتوجُّس، كل زملائي يسلمون ويسألون عن نتائج المعركة، آثرت أن أكتم السر، وأجعله في طي الكتمان، لن أبوح به إلَّا أمام قائد الحامية البكباشي الذي كان في أحر من الجمر لمعرفة نتائج حرب قواته مع الدراويش، الجنود يتوقون إلى معرفة النتيجة ويتوقعون انتصارًا كاسحًا، كانوا يظنون بأني اتجهت صوب سواكن وسنكات وطوكر غازيًا بعد أن سحقت جحافل الدراويش ذات الأسلحة البيضاء، كانت هذه هي تحليلاتهم وتوقعاتهم، ولكن هيهات، قلت لهم سأزف النبأ أمام القائد، تبقت نصف ساعة. توجَّست تردَّدت، القائد الآن في مكتبه، لم أتجرأ لمقابلته، سأقابله أمام الطابور. يا للمفاجأة! ماذا سيقول عن هلاك قواته؟ وهل سيحاسبني على الهزائم؟ وخاصة أنني كهارب من الميدان، أي انسحاب هذا الذي يجعل القائد يفر وحده وجنوده أسرى وقتلى وجرحى. البدويان أنقذاني، ليحرقاني هنا، لأموت موتًا بطيئًا تحت وخز ولسع العار المستطير، وتأنيب الضمير. ماذا أقول وكيف أدافع عن نفسي، ليتني متُّ أو أسرت في المعركة، لأتجنب هذا العار والشنار.

اصطف الجنود للطابور، هم مصريون عدا القليلين، الأغلبية تراقب نتائج الحملة المهزومة، آثرت أن أسكت، جرت عملية التمام كل الضباط المصريين يصطفون ينتثرون يأخذون التمام، كان القائد في

منتصف الميدان. حتى الآن لم يشعر بوجودي أي ضابط، أَمَّا الجنود فقد صافحني معظمهم، وهم يتوقون ويشرئبون إلى سبر غور الحقيقة وإلى عجم عودها، هل أتحرَّك الآن لمقابلة القائد لأخبره بالهزيمة المريرة؟ هل أتركه ليرجع إلى مكتبه ثم ألاحقه، ماذا أفعل؟ أنا الحائر الخائر، فجأة لمحني ضابط مصري أبيض وسيم يوزباشي، فأخبر القائد، رنا إليَّ القائد وهو يختال كالطاووس، قلت لا بدَّ أن أسرع لأحييه وأخبره وسط الطابور مهما كانت النتائج. لن أدفن رأسي في الرمال كما النعامة.

توجَّس القائد، فجأة دمدم صوته الأجش قائلًا بنبرة مخيفة:

- فليتقدم الجاويش خميس جمعة سبت، أمر غريب متى حضرت؟ احك للحامية كل ما جرى!

تقدمت بسرعة وعيوني جاحظة زائغة، وقلبي قد بلغ حنجرتي، جفَّ ريقي، تصببت عرقًا باردًا، حييت القائد وانتصبت كالتمثال أمامه، أردف قائلًا بغلظة:

- خاطب ضباط وصف ضباط وجنود الحامية، سنستمع الآن، لنعرف ما جرى، بعد ثلاثة أسابيع من انقطاع الأخبار، هيا تحدث.

تصببت عرقًا تارة أخرى، تلجلجت تلعثمت ترددت، عراني الفزع والرعب، وأخيرًا طفقت أطلق حديثي كما المدفع، رويت لهم ما حدث بكل تفاصيله الأليمة، ذهلوا من هول المفاجأة. ألجمت الدهشة لسان القائد، طأطأ رأسه وجم كئيبًا، وفجأة رفع رأسه كما الأفعوان الهائج، احتقن الدم على وجهه المحمَّر، ثم دمدم:

- ألا تحس بالحياء؟ اختطاف؟ أسر! إذا سلمنا جدلًا بأن محمَّد عثمان وصالح الخائنين قد اختطفاك لينقذاك، لماذا لم ترجع إلى جنودك لترى ما جرى لهم؟ أتنقذ نفسك وتترك جيشك ليهلك؟ مجرد كذب

وجبن وخسَّة ونذالة، لقد ساعدك العدو في الهرب أليس كذلك؟ أنت مخطئ وهارب من المعركة بحجج واهية، أوهى من خيوط العنكبوت. أنت هارب من المعركة، أنت مذنب. ستقدَّم إلى محكمة عسكرية. يا بد جاويش محسن مكرم الأسواني، اقتده إلى السجن إلى القفص، إلى أن يُحاكَم في غضون أسبوع.

جاء محسن مكرم واقتادني إلى الحبس كسجين على ذمة التحقيق، حزنت حزنًا شديدًا. لم يرحمني القائد، بل أهانني أمام الضباط وصف الضباط المصريين.

وجدت نفسي في محبس معتم في قعر مظلمة، هل أقول كما قال الشاعر الحطيئة عندما سجنه الخليفة عمر بن الخطاب، ما أجمل أبياته التي تقول:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فأغفر عليك سلام الله يا عمر

جزع وهلع الحطيئة، وكان الخليفة عمر رحيمًا عادلًا فعفا عنه، أمَّا أنا فلن أتوسَّل ولن أتضرَّع، لن أطلب الرحمة، سأظل في محبسي القهري والقسري. حارسي جندي مصري، من خلال القضبان أعطوني الماء والفطور، غرفة حارة جدًّا، شعرت بالوحشة، رقَّ الدجى، منحوني العشاء، طعام بائس، هل سأقدَّم لمحاكمة عسكرية كما قال سيادة البكباشي. أنا مستعد للدفاع عن نفسي. عراني الوسن. ثم استيقظت مذعورًا عند منتصف الليل بعد كابوس ضار. إني لأرى صورة كير وهو يستسلم لمطارديه، يا للعجب! قطعوا رأسه بعد استسلامه، لهذا بول يركض بقوة، لقد رأى مصير زميله، كالأرنب يعدو خلفه صبيان وسيمان بجاويان يقهقهان يضحكان من هربه، إذا قبضاه سيمثلان بجثته، يا إلهي هل سينجو! تعثر سقط ولكنه وثب وواصل الجري،

كانا ككلبين عقورين، في يد أحدهما رمح والآخر يقتني سيفًا، رأيته مصقولًا مهنَّدًا، خمسة أتوه من كل الاتجاهات، لا مفر من الاستسلام، زعق صبي: لا تقتلوه هذا العبد سيكون مهري لبنت عمي. إياكم، هو غنيمتي! ها هو يستسلم، هو صغير وقوي، يصلح لرعي الإبل، عشرات من رفاقي يسقطون في الأسر يتعثرون يستنجدون يستغيثون يولولون، يبكون كما تبكي النساء، أغمض عينيَّ لكيلا أرى، لأنسى ذاك الشريط المأساوي الذي لا يمكن أن أنساه. أيقظتني الجرذان التي طفقت تعبر جسدي كقنطرة كجسر لجنوب الغرفة. أتمدد أنكمش أرفس أرمح الجدران بهستيريا، زنزانة ضيقة. أضرب رأسي بالجدران لكي أنتحر، لأغيب عن الوعي، الأرض تدور تغوص. أنا في نفق في قمقم حائر خائر. منهار منكسر كالذي يتخبطه الشيطان من المس أنام على بطانية بغير وسادة، أحسُّ بلسع أنفاس الأرض. هذه أوامر القائد الغاضب المهزوز المهزوم، لقد راهن عليَّ فخذلته.

لم أنم طوال الليل؛ أجتر الذكريات الأليمة، كم من رفاقي فكَّروا في الغنائم والحوافز بعد النصر والظفر، ولكن هيهات، ومن الطرائف والغريب كان أكثرهم تفاؤلًا بالغنائم لتكون مهره، هو الجندي نفسه الذي أُسِرَ، وقال عنه البجاوي الشاب، سيكون هذا العبد الأسير مهرًا لبنت عمي إياكم وقتله، ردد الدراويش، خذه وعشرة من الأسرى، قال: لا يكفيني هذا العبد الطويل القوي الأسود، أوثقوه جندلوه وسلموه كفريسة لسيِّده الجديد. كم حزنت لتلك المشاهد التي تقشعر لها الأبدان وتبيض لها رؤوس الولدان، منظر اجتثاث رأس الضابط باهر حينما رفع معصميه، اتقاءً لضربة السيف، فأجتث السيف الرأس والمعصمين، رأسه صرخ بكلام غير معروف أو مألوف، همهمة وغمغمة، لماذا انهزمنا، هل الرب دينقديت تخلى عنا؟ هل دعوة إمامهم الهادي على حق ويسندها الرب؟ نحن وثنيون، هراطقة زنادقة ملحدون كما يقولون.

38

لبثت في الزنزانة ما يقارب شهرًا دون أن يستجوبني أحد، رغم إنَّ قائد الحامية وعدني بمحاكمة عادلة، وبعد أسبوع من الشهر الثاني بدأ يوزباشي مصري يستجوبني ويدون كل ما أقوله على دفتره، اسمه ممدوح أفندي صالح من صعيد مصر، لونه ليس أبيض بسمرة أقرب إلى اللون الأصفر، كان ودودًا بشوشًا متعاطفًا معي، ردَّد كثيرًا: من الخطأ أخذ تقارير المرشدين مأخذ الجد، لقد خان الكلبان، دفعاك إلى كمين مُعَدٍّ بذكاء، لعنة الله عليهما. لا تخف لن يحاكمك أحد، وخاصة أن الدراويش هزموا حاميات الشرق كلها. لديهم إصرار غريب، وشجاعة فريدة نادرة. الويل لهم!

حديث ممدوح بثَّ في نفسي الأمل، وطرد منها هواجس الرعب والفزع. حتى اللحظة لم يظهر أي جندي من حملتي، إذن فكلهم هلكوا، استشهدوا أو أُسِروا كما شاهدت، اعتقدت أن بعضهم ربما يهرب ويأتي هربًا، ولكن هيهات طوتهم لجج الردى، كان جدي يزورني في المحبس القهري، ويطلب مني الصبر.

صبرت حتى عجز الصبر عن صبري، من حسن الحظ أعطوني حرية نسبية، طفقت أجلس مع القرقول، وأتناول وجباتي معهم في الهواء الطلق، ولا أستأذن عند ذهابي إلى دورة المياه، أَعِفي البدجاويش محسن الأسيوطي من حراستي، غدوت شبه حر، حتى الآن لم أُحاكم رغم الاستجواب بمحضره الكبير. مرت الأيام بسرعة، وبعد بضعة شهور أُطلِق سراحي، ولم أُحاكَم. الآن وصلت الأنباء بأن كل السودان يشتعل ثورةً، الإمام الجديد الثوري يتمكَّن من الاستحواذ على قلوب الناس يبشرهم بالجنة، وقال لهم الترك كفار، هُبُّوا لقتلهم، قال إن النبي بشره

بالنصر في الحضرة النبوية، جيوشنا على وشك الإهلاك، مصير دولتنا في كف عفريت، عُيِّن حكمدار جديد اسمه علاء الدين ويُقال إنه صحب حملة هكس باشا القائد الإنجليزي المؤهل الذي اختير لسحق وقمع الثوار في كردفان، حتى الآن نحن معزولون، قادتنا في ارتباك واضطراب ورعب، كالذي يتخبطه الشيطان من المس، يبدو أن الهزائم هي التي عجَّلت بإطلاق سراحي، جُنِّد مئات من السود ليحدث التوازن بعد إبادتهم أو أسرهم في حملتي الفاشلة، رُقِّيتُ إلى بد جاويش. شريط رابع رفع من شأني رغم هزيمتي.

هذا اليوم طابور الصباح وتمامه غير عاديين. كل الضباط المصريين حضروا منذ وقت مبكر، يتقدمهم قائد الحامية، وقفوا وسط الطابور قبل اصطفاف الجنود، أمر محير. وجوههم عابسة مقطبة منقبضة، مطرقون واجمون، لا بدَّ أنَّ ثمة أمر جلل قد حدث، وبغير مقدمات انتصب البكباشي قائد الحامية وسط الطابور كئيبًا عابسًا، وجهه محتقن محمر، سالت عبراته جففها بالمنديل، تلجلج تلعثم، ورويدًا رويدًا ثبت وطفق يتحدث بصوت منقبض متوتر مأزوم. دمدم:

- حاولنا خلال سنوات قيام تمرُّد الدراويش ألا ننقل لكم كل كبيرة وصغيرة، وللأمانة حجبنا عنكم الحقائق، ضللناكم لكيلا نرهقكم نفسيًّا بتلك المآسي التي تبيض لها رؤوس الولدان، أمَّا وقد بلغ السيل الزبا، سأواجهكم بالحقائق مجردة صادقة، حديث من القلب إلى القلب، تنوير حقيقي عن الموقف بغير تسويف أو تقليل أو اختزال، كما هو، كونوا رجالًا بحق وحقيقة، لا تبكوا بكاء النساء، هو قدرنا وهل سنفر منه، كلا ثم كلا، سأسرد كل التطورات والأحداث بكل صدق. لقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبا، انتصر الدراويش على حملة أبو السعود في الجزيرة أبا، وراشد بك أيمن مدير فشودة سيَّر حملة في ديسمبر 1882م فأبادوها، أخبرت المهدي رابحة الكنانية فكانت مأساة

الهزيمة، سقطت دار فور واستسلم مديرها رودلف لسلاطين الأنصار وما زال أسيرًا، كذلك سقطت الأبيض في يوليو 1882م وأسر مديرها البطل محمَّد سعيد فأعدموه ظلمًا وجورًا، أكبر حملة للقضاء على المهدي في كردفان كانت حملة هكس باشا الضابط الإنجليزي الذي صحبه فيها الحكمدار علاء الدين باشا، فقضوا عليها في نوفمبر 1883م، أما في شرقنا فقد سمعتم بما جرى ولكن سأعيده تارة أخرى، حرَّض شيخ عثمان قبائل البشاريين والأمرار بل كل قبائل الشرق للثورة ضدنا، جمع عشرات الآلاف من المتعطشين إلى الدماء، هاجموا سنكات فردتهم على أعاقبهم خاسرين، وفي قباب سبتمبر 1883م انهزم هزيمة نكراء تبعثر وتشتت الدراويش، ولكن شيح عثمان يعمل بطريقة حرب العصابات، فهو لا ييأس؛ جمع صفوفه؛ هزم حامية سنكات في فبراير1884م واستولى عليها، وبالطبع تمكَّن من قطع التليغراف ما بين سواكن وكسلا، هاجم سواكن ولكن هُزِمَ وطُرِدَ، حامية سواكن قوية ومحصَّنه يمدها الأسطول بما تحتاج، بعد ذلك نجح أنصار الهادي من قطع طريق سواكن الخرطوم بربر، عندئذ أرسلت الحكومة القائد فالنتين لفك حصار طوكر ولكنه فشل، ثم أرسلت الحكومة حملة بقيادة جراهام ولكنها فشلت في هزيمة الشيخ عثمان، سقطت طوكر كما سقطت سنكات، أرسل الجنرال شارلس جردون لقمع الثورة، ليس لإخلاء السودان كما يزعمون، بذل جهودًا مضنية لفك الحصار عن الخرطوم، ولكن الدراويش طمعوا حلموا قتلوا سفكوا دمروا عليهم لعنة الرب يسوع، غجر، عُيِّنَ جردون أمامهم ملكًا على كردفان وأرسل له كسوة شرف، وكذلك لم يزدهم هذا الكرم إلَّا غلوًا وغرورًا، مساع كبيرة بُذِلت لإنقاذ الخرطوم. الهادي يأتي بجحفل وطيس الرمل لأم درمان، حاصروا الخرطوم بنحل بجراد، حملة الإنقاذ لم تحضر، رفض جردون البطل أن يتحرَّك قيد أنملة، والباخرة تمخر العباب، كل الناس

طلبـوا منـه أن يركـب، ولكنـه رفـض لـكي ينقـذ النـاس مـن الهـلاك، لـن يتحـرَّك إلَّا حينـما يكـسر شـوكتهم، ويفـرِّق جمعهـم، ويشـتِّت شـملهم. طمعـوا في الغنائـم وفي سـفك الدمـاء، وفي السـيطرة عـلى الدولـة، اليـوم 27 ينايـر 1885م، حـدث بالأمـس 26 ينايـر، مـا لم يكـن متوقعًـا ولـو في الخيـال، لم يكـن في الحسـبان...

أجهـش في البـكاء تلعثـم تلجلـج، نحيـب ونشـيج؛ احترنـا ارتبكنـا مـاذا يريـد أن يقـول، انسـابت دموعـه كـما الينبـوع تمخَّـط زعـق توتـر، مـا يريـد أن يقـول لنـا مـن خـبر، أخـيرًا تماسـك، وأردف قائـلًا:

• أقـول لكـم الوحـوش المتعطِّشـة للدمـاء، تنمـرت واستأسـدت، صكـت أسـنانها للافـتراس وأنيابهـا الحمـراء الملوثـة بالدمـاء، أتـوا مـن كل حـدب وصـوب جياعًـا عـراةً حفـاةً. للأسـف هاجمـوا الخرطـوم كالأسـود الضاريـة، اخترقـوا كل التحصينـات، اجتاحـوا الموانـع، تغلغلـوا توغلـوا، البطـل جـردون لم تطـرف لـه عـين كان في ثبـات الجبـل وهـو يرنـو إلى الرمـاح والسـيوف والحـراب، هجمـوا عليـه قتلـوه، قتلـه محمـد ود نوبـاي شـيخ بنـي جـرار، قطعـوا رأسـه ليسـتمتعوا كسـاديين، مثَّلـوا بجثتـه، لهـم الخـزي والعـار، سـقطت الخرطـوم، جـاء عـصر البطـش والقتـل والحبـس والظلـم والجهـل والأسـاطير والشـعوذة والدجـل والخرافـة، لا أدري مـاذا سـنفعل أأنسـحب إلى الحبشـة، سـواكن أم ننتظـر كالسـمكة التـي جـفَّ مـاء مسـتنقعها؟ قولـوا أجيبـوا لا وقـت للتفكـير في ظـرف هـذا الأسـبوع لا بـدَّ أن نتـصرف، هـوت خـرَّت شـجرتنا، دفعتهـا الأعاصـير، أيـن المفـر، رجـال قسـاة طغـاة متعطشـين للدمـاء، قـال إمامهـم الـترك كفـار، سـيتعاملون معنـا وفـق الفتـوى المتعصِّبـة المتزمتـة الظالمـة، الآن أمنحكـم عطلـة مـدة يومـين لتتناقشـوا لتتفكـروا مـع مراقبـة الثغـرات والمداخـل، لـن نحـارب بعـد اليـوم. سـقطت دولتنـا، الآن نبحـث عـن طـوق النجـاة فقـط، لاهـمَّ لنـا غـير ذلـك؛ الرجـوع إلى وطننـا مـصر أم الدنيـا، ولا نامـت أعـين الجبنـاء!

القسم الثالث

39

اعتبرونا غنائم، أسرى عبيد في البداية، ولكن من الذي أوعز لقيادة الدراويش بأن تستفيد من سلالة البازنجر من السود من بني جلدتنا الذين معظمهم في الشمال من الرقيق، طلبوا منَّا أن نبايع إمام المسلمين الجديد الذي خلف الشهيد جردون صديقنا وقائدنا المغدور به والمذبوح ذبح الخروف، شارلس جردون، بايعنا على مضض مكرهين؛ كيف نصافح يد الإمام الذي ولغ في دماء رجال دولتنا الساقطة والآفلة، في أم درمان العاصمة الجديدة انتظمنا مثل الدراويش تمامًا، ارتدينا جبة قصيرة مرقَّعة، وعمامة صغيرة وصندلًا من الجلد، هجروا الخرطوم. سكنت سرايا جردون القطط والبوم والغربان، تنعب وتنعق وتموء، اعتبروها عاصمة النصارى، تسللنا ذات يوم وزرنا قصر جردون أو سرايا الحكمدار، على السلَّم وجدنا آثار دماء جردون الطاهرة، قتله أولئك البرابرة الهمج المتعطشين إلى الدماء، أقاموا المذابح والمجازر باسم الجهاد وتكفير الترك، تسللنا، عدنا بالمركب إلى أم درمان لننضم إلى معسكر السود من الجنود الأسرى، أكرهونا على اعتناق الإسلام وعلى صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم، كنت أصلي أحيانًا بغير وضوء، وأدعو في أثناء الصلاة إلهي الوثني دينقديت وألعن الدراويش وإمامهم. ختنونا جماعيًّا رغم أنوفنا، كيف عرفوا؟ فتشوا يقولون للأسود (املص سروالك) ليُفحَص الذي كشفنا كغلف ككفار كما يزعمون، الجزار أو الخاتن ملأ كيسًا من جلودنا وقذف بها إلى الكلاب الجائعة لتلتهمها، وكان يردد في أثناء الختان: (كافر نجس أغلف) كان أوَّل من ختنهم، سمعته يقول: (كبيرهم الذي علمهم السحر). لماذا انتبهوا وركزوا على شخصي. وجدنا صعوبة في العثور

على خمر المريسة والعرق والتمباك، جففوا منابعها، كثفوا مراقبتهم لصناعات الخمر المحلية، العقوبة السجن والجلد وأحيانًا القتل لبائع أو بائعة الخمر. ما زلنا السود أسرى نتجمَّع في عرائش وبعضنا في العراء، أكرهونا على أن نكون أنصارًا للإمام، ثم دفعونا زرافات ووحدانا لكي نبايع الهادي للصراط المستقيم، رابني الأمر لماذا اختاروني لأصافح يد أمير المؤمنين الجديد الذي خلف جوردن في الحكمدارية، ركعت قبَّلت يده مكرهًا كما يفعل سائر الناس، قال بابتسامة صافية: مرحبًا بالأمير خميس جمعة، قلت: أهلًا بسيدي الإمام، خلفه وأمامه حرس قوي مدجج بالسلاح، قفلنا عائدين. ما زالت رائحة الإمام عابقة بيديَّ، مديد القامة، عريض المنكبين، بالنسبة إلينا نحن الجنوبيين وبالنسبة إلى العرب فهو طويل. ملتح أصفر اللون. طلق المحيَّا، بسام الثنايا، يبدو أنه رجل طيب. ولكن كيف اغتال محمَّد سعيد باشا الأسير مدير الأبيض. أعطاه الأمان ثم غدر به، بعد أن رفض تسليم ثروته المخبأة، ربما أعدمه نائبه أو أحد الأمراء الكبار، لكنه أعدم آدم أم دبالو ملك جبل تقلي الذي آواه وأيَّده ومكَّنه من كردفان، ربما أخطأ أم دبالو أو قتله أحد الأمراء، كلمة أمير تثير الريبة، هل سيعدمني كأمير أسير، أنا بدجاويش أسير، لا بدَّ في الإشارة شيء ما. ظللت خائفًا وسط جنودي الذين جردوهم من السلاح الناري، استدعاني الأمير الشريف الذي كان يشرف على السود الأسرى، كان عربيًّا وسيمًا ولكنه كالنمر كما لو أن الشاعر يعنيه: وربَّ وجه كصافي النمير تشابه حامله والنمر، قبَّلت يده في انكسار وانهزام وانحناء. والمجزرة البشعة التي حدثت لرجال حكومتنا بعد سقوط الخرطوم ماثلة للعيان، الرعب والفزع يعرواني. سلاح في سلاح، ما أسهل القتل! قبعت على السباتة القرفصاء كقط جائع، بعد أن قبلت يده مثنى وثلاث، لأشبِع غرور سيدي، وأنا في انتظاره ريثما يفرغ من الذين يناقشونه في أمور شتى وكلهم أمراء.

لم يحفل لجلوسي، لبثت ساعة كاليتيم في مائدة اللئيم، قدموا لي تمرًا قضمته كنت جائعًا، ساعة كاملة مرت، يدخل هذا ويخرج ذاك. وأنا الحائر الخائر المسكين، وبعد ساعة طلب مني أنصاريٌّ مدججٌ حازمٌ أن أخرج وأجلس تحت العريش الذي تثقبه أشعة الشمس امتثلت صاغرًا، ربضت على التراب إذ لا توجد سباتة أو فرش من الجلد كما كان داخل كوخ الأمير، كيف كان مكتب الحكمدار والمدير مباني من الطوب الجميل، مكاتب رائعة، هنا بؤس في بؤس، تراب في تراب، وقش في قش. أعشاش كأعشاش الطيور، قلت بيت الشاعر ابن الرشيق في ملوك الطوائف بالأندلس:

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

ما فتئت أرنو إلى الباب كمتهم مدان في انتظار النطق بالحكم من القاضي، ورغم ذلك تجاهلني الحاجب الذي طردني، أظنه يقول ماذا يريد هذا العبد الأسود؟ أسواق الرقيق بأم درمان تغص وتكتظ ببني جلدتنا من المختطفين والمباعين والأسرى، فجأة أذَّن الآذان هرول الجميع بمن فيهم الأمير لأداء الصلاة في جماعة بالمسجد الكبير، هرولت توضأت بصورة غير منتظمة، لا أعرف ترتيب الوضوء، يممت شطر المسجد، وأمامي أميري الذي استدعاني، صفوف كثيرة، آلاف الناس، صلى بنا خليفة أمير المؤمنين، بعد الصلاة انتشرنا، عدت إلى العريش لأصغي لما يطلبه الأمير الجاهل، ولج وقبع. حاجبه الحاقد تجاهلني، كان يدخل العنصر العربي، وأنا كسلالة بازنجر - سلالة العبيد مضطهدة حقيرة - سننتقم ذات يوم، كما انتقم الإسبان في الأندلس من العرب، حيث طردوهم وأعادوهم إلى شمال إفريقيا صاغرين، إلا من تنصَّر، سيأتي هذا اليوم، سرقوا ملكوا بلاد زنوج السودان، لعنة الرب عليهم.

الآن الأمير وحده. فجأة صدع الحاجب قائلًا:

- تفضَّل الأمير يريدك.

وثبت ودخلت متلهفًا، قبَّلت يده، طلب مني الجلوس على السباتة، تراجعت بضعة أمتار، ولكنه أمرني بالاقتراب ثم سجع بصوته الطفولي:

- الأمير خميس جمعة سبت، حياك الله.
- مرحبًا بأمير الأمراء سيدي سعد الدين بحر الدين سيف الدين.
- هات يا محمود قهوة أو شايًا للأمير، كذلك بلح أو بليلة، لا بدَّ من إكرام مثوى عظيم الجنوب.

40

الأمير الوسيم الملتحي، ينشغل عني تارة أخرى بمهام أخرى، مللت البقاء، أكثر من ساعة، وأنا أرنو إلى سبر غور الحقيقة. ماذا يريد مني، ولماذا ناداني الأمير خميس جمعة، وأنا من سلالة البازنجر، عبد في نظره، وكافر، لأني من جيش الحكومة التركية المصرية الذي بعثروه وشتتوه وأسره، وهو يفتي في مسائل عدة، يا له من حازم! يرفع رأسه كما الثعبان، ليوجه كل من يطلب مشورة في إدارته المعقدة، يا له من أمير كبير! وأخيرًا قال لحاجبه:

- يا دراج مرسال، لا يدخلنَّ عليَّ أي فرد، أوصد الباب، الأمر أمر الأمير خميس جمعة، أسمعت؟

انحنى دراج ودمدم:

- لبيك وسعديك! سمعًا وطاعة يا سيدي الأمير، لن يدخل أحد حتى تفرغ من مهمة الأمير خميس جمعة.

- بارك الله فيك.

ثم التفت ورنا لي في وداعة ولطافة، وهمس:

- اقترب أيُّها الحبيب الأمير!

كلمة حبيب بددت هواجسي ووساوسي، شعرت بأن الرجل صادق، ويحمل بشرى بين جوانحه، ربما تكون سعيدة، عمومًا سرت النشوة في جسدي وهفوت إلى سماع ما يروقني. أردف الأمير تارة أخرى قائلًا:

- يا دراج ممنوع دخول أي أنصاري إلَّا إذا كان مرسلًا من الإمام الأكبر أو خليفته.

• سمعًا وطاعة سيدي الأمير. الله أكبر ولله الحمد.

نظر إليَّ الأمير مسرورًا وهمس:

• مبارك الإمارة، لقد عينك سيدي أميرًا حربيًّا، فلتذهب الآن إلى أمين بيت المال أحمد ود سليمان لتستلم كسوة الشرف وراتب الإمام لتطالعه وتحفظه على ظهر قلب والراتب الشهري، أنت مسؤول وأمير على كل جنود الحكومة السابقين من سلالة البازنجر، ستكون قائدهم، سيدي الإمام قرر أن يضمهم إلى جيش الدين، حملة الأسلحة النارية، هل كلهم يجيدون استعمال الأسلحة النارية؟

كدت أطير من الفرح، أجبت:

• نعم كلهم كانوا يستعملون الأسلحة النارية والمدافع استعمالًا وصيانة، ويجيدون فنون القتال، هم مدربون على مستوى عالٍ، سيفرحون، الآن صاروا أنصارًا لله بعد أن غرر بنا المجرمون، لعب بنا الشيطان، ندمنا تبنا، والآن سترون ماذا سنفعل بأعداء الوطن والدين، لا هم لنا بعد اليوم غير الشهادة أو النصر، وقتل أعداء الدين الذين لعب بهم الشيطان.

• قل هذا الحديث لخليفة أمير المؤمنين سيفرح، مطلوب منك، كتابة كل جنودك، الاسم رباعي، هل فيهم كافر ليسلم؟

• هم مسلمون وأنصار في الأسبوع الماضي ختناهم. الختان سنة، وهم الآن أنصار بل مجاهدون في سبيل الله، الله أكبر ولله الحمد.

• سماكم خليفة أمير المؤمنين بالجهادية، ويا له من اسم جميل مشتق من الجهاد، يعني أنتم مجاهدون في سبيل الله.

• الشكر لسيدنا الإمام الكريم الحليم الرحيم، لقد حاربنا ضده وقتلنا الشهداء، إننا نستحق عقوبة الإعدام لوقوفنا مع الباطل مع

أعـداء اللـه ورسـوله، لقـد غـرر بنـا الوسـواس الخنـاس الـتركي المـصري، أمَّـا الآن سـندافع عـن دولـة وطنيـة وتلـك كانـت أجنبيـة اسـتعمارية، كافـرة لعنـة اللـه ورسـوله عليهـا.

عندمـا دلكـت الشـمس إلى المغيـب يممـت شـطر بيـت المـال، قابلـت أحمـد ود سـليمان وهـو عـربي أزهـري درس في مـصر، صافحنـي بـأدب ومنحنـي ملابـسي وراتبـي. والكتـاب المسـمَّى براتـب المهـدي، طلـب منـي تسـجيل كل جنـودي، وسيسـلمني حقوقهـم بعـد تسـلُّم الكشـف النهـائي، عـدت إلى السـود وأخبرتهـم بأمـر تجنيدهـم في جيـش الثـورة كمجاهديـن، فرحـوا فرحًـا شـديدًا، لم ينامـوا في تلـك الليلـة، كانـوا يعتبرون أنفسـهم أسرى سـيباعون في سـوق أم درمـان كعبيـد، ولكـن هـا هـو إلهنـا دينقديـت ينقذنا ويرحمنـا، قلـت لهـم سـتكونون مـن حملـة الأسـلحة الناريـة، أقـوى جيـش في يـد الدولـة، كادوا يطـيرون مـن الفـرح صرنـا حكامًـا، قلـت لهـم منـذ الفجـر اسـتعدوا للتـمام والطوابـير لـكي نقنـع قيـادة الدراويـش بأننـا أنصـار اللـه (جهاديـة) مخلصـين، سنسـحق أعـداء الدولـة سـحقًا، خاصـة أنهـم مـن العـرب الذيـن اسـتعبدونا. سـنقمع سـنبطش سـنضرب كل مـن يتمـرد مـن القبائـل؛ قبائـل الوسـط، الشـمال أو الغـرب. سـننتقم مـن الذيـن اسـترقوا سـلالة البازنجـر التـي خلقهـا الـرب للفقـر والحـرب والـرق.

41

تسلَّم كل جنودي لبسه المرقَّع، ثم تسلَّمنا من مخزن السلاح الأسلحة النارية والذخيرة، سلمونا معسكرنا البدائي، بدأت أنظم جنودي، على كل رأس مئة مقدَّم وهكذا بضع مئات أمير أكبر، لكي يسهل عليَّ إنزال الأوامر، قلت لهم سأنقل نظام الجيش المصري برتبه وكيل أمباشي، أمباشي جاويش بد جاويش صول، رفضوا قالوا هذا نظام الكفر، عملت وفق أوامرهم الصارمة القاسية.

شريط ذكريات أعادني إلى تلك الأيام حالكة السواد، عدت إلى كسلا في آخر الأيام ونحن قلقون مرعوبون محزونون، وأمير الشرق يحقق نجاحات كبيرة و كثيرة، وعلى الصعيد الشخصي أفل نجمي بعد تلك الهزيمة النكراء والانكسار المريع لجيشي الذي تفرق أيدي سبأ، ما بين قتيل وجريح وأسير ومفقود، ها هي الحكومة المصرية تلتمس من يوحنا ملك الحبشة أن يسهل انسحاب حاميات كسلا سنهيت والقلابات والجيرة أن يمكنها الانسحاب عن طريق الحبشة إلى مصوع، ولكننا رفضنا أن نغادر وطننا، الآن ننتظر مصيرنا الحتمي، بعد انهيار الروح المعنوية، والهزائم المتتالية، أرسل المهدي إدريس ود إبراهيم وحسين ود الزهراء، لإسقاط تلك المدن، الملك يوحنا نجح في إنقاذ حاميات، سنهيت والجيرة والقلابات، إذ ساعدها في الوصول إلى مصوع، وبعد حصار عنيف استسلمت حاميتنا في كسلا، ويا له من ذل ومهانة! قبض الأمير عثمان مدير كسلا أحمد بك عفَّت، بأنه هو الذي أوغر صدر الأحباش وحرضهم على حرب المهدية. أنكر المدير السابق أحمد عفَّت التهمة ولم يقم بما اتهمه به أمير الشرق، رسف في الأغلال، شُدَّ وثاقه هو وستة من كبار موظفي المديرية، أطلق عليهم النار كالكلاب

الضالـة، كأبشـع عقوبـة إعـدام ونحـن نشـاهد ونرتجـف فزعًـا ورعبًـا مـن مصـير عفَّـت. تسـلَّمنا الأمـير كأسرى كغنائـم، ونحـن نرنـو وننتظـر ريثـما يتخـذ الأمـير قـراره بإعدامنـا أو باسـترقاقنا. ثـم فضَّـل الخيـار الأخـير.

الآن نحـن مـن الدراويـش حملـة الأسـلحة الناريـة، سـلمونا كل الأسـلحة التـي غنموهـا، بدأنـا التدريـب، الذخـيرة لمـن تكـن بكميـات كبـيرة، ولكـن لا توجـد حـروب، أكـبر مشـكلة واجهتنـا هـو كيـف نتحصَّـل عـلى الخمـر وخاصـة المريسـة، هـي في حانـات سريَّـة، إذا قُبِـضَ عـلى الصانـع؛ فمصـيره الجلـد والسـجن ومصـادرة المنـزل، الأجانـب يشربـون ولكـن كيـف نتحصَّـل عليهـا؟ علمنـا المواقـع السريـة، كيـف أصـل إليهـا؟ إني أخـاف بطـش هـذه الدولـة، ولكـن سـمعنا بأمـير كبـير مـن العـرب يـشرب الخمـر وهـو شـجاع لا يخـشى أمـير المؤمنـين، وفي ذات يـوم أهـداني أمـير دلنـق عسـلية وآخـر مريسـة، شربتهـما في لمـح البـصر وسـألت عـن المـورد، علمـت بـأن هنـاك ثمـاني حانـات سريَّـة خوفًـا مـن بطـش الدولـة، ولعـي بالخمـر جعلنـي أمشي ليـلًا بحصـاني لأعـرف المنـازل، ولكـن يُقـال إنَّ البائعـات لا يبعـن الخمـر لأي شـخص خوفًـا مـن الـضرب والقمـع والقتـل، كل جنـودي عطـشى إلى الخمـر، لا بـدَّ مـن النهـل مـن مـوارد أم درمـان العذبـة، خادمتـي، الأمـة مرجيـة وهـي مـن بنـي جلـدتي، أهداهـا لي الأمـير اللـدر الكبـير قريـب الإمـام. تكفلـت بإحضـار المريسـة، لأن البائعـات لا يخشـين النسـاء، الخـوف مـن الرجـال ففيهـم الجواسـيس والعسـس، بـدأت أشرب ولكـن بقيـة جنـودي يعانـون الظـمأ، قالـت لي مرجيـة بيـوت الخمـر، سريَّـة ويمكـن أن تعرفهـا حينـما تعـثر عـلى كـوم رمـاد صغـير يمـين الطريـق، إذا وجدتـه فابحـث عـن الثـاني والثالـث، حتـى السـادس الـذي سـيكون جـوار بـاب الحانـة، هـذا هـو المفتـاح الـسري! خمسـة مـن المقدمـين مـن البازنجـر، وهـم قـادتي بـدأت أزودهـم بالمريسـة، ولكنهـم يحبـون العـرق، لا بـدَّ أن نجـده، السريَّـة تعـوق العثـور عـلى الحانـات. سـلالة البازنجـر لا تعيـش بغـير خمـور كـما المـاء

بالنسبة إلى السمك.

استفادت الدولة من بعض جنودي في الترسانة لصيانة الأسلحة، غدوت ممن يشار إليهم بالبنان، نحن الآن أقوى سلاح، لولا الحشود يمكننا أن نغير نظام الحكم بانقلاب إذا أردنا، لسنا أنصارًا للإمام أو أنصار الله. لسنا مسلمين ولكننا نظهر الإيمان ونبطن الكفر كي نعيش، بايعنا على مضض رددنا عبرات الوسيلة كالببغاوات شكليًّا، ظنوا أننا مخلصون ولكن هيهات، بدأنا نطارد صانعات الخمور بأمر من الأمير الكبير ونحن أكبر مستهلكي الخمر، أحواض رملة كما يقولون، الخمر المصادر نحمله إلى النهر لنسكبه داخل بطوننا، خدعناهم قلنا لهم بقعة المهدي مباركة مقدسة لا ينبغي أن يُسكَب على أرضها خمر، دعونا نسكبه في النيل ليشربه الكفرة من المصريين، اقتنعوا. ومن ثَمَّ بدأنا نجد مصدرًا رخيصًا وسهلًا، نجلد البائعة ونعذبها ونصادر كوخها، أما العاهرات فكنَّ يجدن عقوبة مغلظة وأحيانًا الإعدام شنقًا. التمباك يعامل معاملة الخمر؛ أمير المؤمنين حرَّمه، وهو صوفي متقعر متنطع، ولكننا نصنعه داخل بيوتنا، قبل سقوط الخرطوم كان يباع على قارعة الطريق كسلعة كسائر السلع. أفتى إمامنا بتحريمه وكذلك السجاير، من قُبِضَ بحوزته فالويل له، ونحن ندخن حتى المخدرات.

42

شعرت بأن ثمة منافسة وحساسية ما بين أهل الغرب وأهل البحر (أولاد البلد وأولاد العرب، جلابة وغرابة) استعر الصراع الخفي. شعر به الإمام، ففي آخر خطبة له تبرأ من أهله الذين يشعرون بأنهم أسمى وأعلى كونهم هاشميين كأشراف، قال مخاطبًا إياهم: إني بريء منكم براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ونفض ثوبه، ثم أوقف التعامل المباشر ما بين ابن عمه الأمير الكبير وخليفته الذي ينتمي إلى عرب الغرب، إذا حدث صدام بينهما ما أجمله! ربما ننقض ونحن حملة الأسلحة النارية، فنعيد الحكم التركي المصري، أو حكم البازنجر السود؛ ألسنا بشرًا ولدينا أحلام وطموحات، لسنا عبيدًا، أنتم الذين استعبدتمونا الويل لكم. رودلف سلاطين باشا ضابط نمساوي، كان مديرًا لدارفور، تمكنت الثورة من هزيمته، دمَّر قوته الشيخ مادبو على زعيم الرزيقات في معركة أم ورقة الشهيرة إذ حطم نصف قوته، حاول أن ينقذ دارفور من الثورة ولكن هيهات. استسلم لمحمد خالد زقل، من أقرباء الإمام، وكان يعمل موظفًا معه، الآن كعبد كخادم يعمل تحت إمرة الرجل الثاني، الذي سيخلف أمير المؤمنين، صادقني وبدأت الزيارات الودية، تفاكرنا تحاورنا، أسلم ظاهريًّا مثلي، اعترف بنصرانيته ورغبته في الهرب من سلطة الجبروت الدولة الدينية المقدَّسة، ظل الله في أرضه، يقول إمامنا حدثني سيِّد الوجود في الحضرة النبوية، ثم يطبع قراراته بمسحة مقدسة، نمت الصداقة، كان يهدي إليَّ هدايا قيمة كأمواس الحلاقة والمشروبات الروحية، كان ذكيًّا يدفع بسخاء للغواصات التي تأتيه بما يرغب، رغم القبضة الفولاذية، وعدته بالمساعدة حينما تحين الفرص، كلنا من أنصار الحكومة المصرية السابقة، نعمل على مضض. إننا

نخدع الدراويش السذج، اعتبرونا قد بايعنا وصدقنا في بيعتنا. سيوفنا مع الدراويش وقلوبنا مع مصر أم الدنيا، أصبحت مشهورًا كقائد لجحفل السود البازنجر وكأمير كبير، حاولت إظهار الولاء المطلق، إني لأشعر بالحياء. نحن نطارد السكارى لنعاقبهم بالجلد كعقوبة حدية، ونحن نشرب الخمر، ونلج سرًّا المواخير في جنح الظلام، نسكر ونلعن في سرنا هذه الدولة الجهادية الظالمة، رواتبنا ضعيفة بضعة ريالات من بيت المال بجانب الذرة الذي يمنح لنا، كبار الأمراء يأخذون أكثر من بيت المال، لا أدري ألأننا سود أبناء بازنجر؟ مستوى معيشة الأمراء العرب أفضل من مستوى معيشة الأمراء السود، جنودي أحيانًا ينهبون ويغتصبون ويسرقون لحاجتهم إلى المال، كثيرون يلعنونهم ويقولون لعنة الله على الجهادية، فهم أقرب إلى قطاع الطرق، ينبغي لعن الدولة التي لا تعطيهم ما يكفيهم، لهذا يسرقون وينهبون ويسطون على ممتلكات الناس، خاصة في الأماكن النائية التي نقلناهم إليها، في حاميات العمالات في الريف، وهناك عاثوا فسادًا، يشربون الخمر في وضح النهار ويجلدون شاربها أربعين جلدة، كان أبناء البازنجر قساة، وهناك مبرر للقسوة، لا بدَّ من الثأر من الذين استرقوا أسلافنا باعوهم في الأسواق بيع البهائم، الموت للنخاسة! ما زلت أرى في أم درمان في سوق الرقيق أبناء وبنات قبيلتي معروضين كالسلع شبه عراة تحت شعاع الشمس الحارق، أحد البدو استبدل بناقة أمة صغيرة، وآخر استبدل ثلاثة عبيد شاخوا بثورين، اشتراهم عربي من قرية العيلفون ليحرثوا وليحرسوا زرعه، وآخر يخدم في المنزل، لغسل الثياب والأواني وكنس الدار، لا يمكن أن ننسى تلك المآسي الصادمة، أنا كأمير لن أفوت فرصة للانتقام من أعدائي، سلاطين الأوربي الجميل الآن عبد من الرقيق الأبيض، يا للظلم! صديقي سلاطين سيهرب ذات يوم وسأساعده بقدر ما أستطيع، هو داهية وذكي وشجاع سيفلت من مستعبديه ذات يوم،

التمس مني أن أترك الديانة الوثنية لأعتنق المسحية، ولكنني اعتذرت، قلت له بل أنت ألتمس منك اعتناق الوثنية إلهي هو دينقديت وهو الذي وفقني وأنقذني ووظفني ونصرني على الطغاة رغم أنوفهم، وسيحفظني من كيد الكائدين، يا إله السود لماذا تقبل أن يستعبدنا العرب المسلمين ألم تر سوق الرقيق في أم درمان وفي كل مدن السودان؟ عليك بالنخاسة إنهم لا يعجزونك، أرجو أن تحلَّ لعنتك بهم، اهزمهم مزقهم شر ممزق، شتت شملهم فرق جمعهم. أنت الأقوى والأعتى من بين سائر الآلهة الافتراضية المزعومة، لن نهادن أعداءك سندسٌ لهم السمَّ في الدسم، لن نتهاون في أي فرصة لإلحاق الأذى والضرر بالمسلمين الضالين.

مَرِضَ الإمام وانقطع عن صلاة الجماعة، بدأ يصلِّي بنا نائبه، أو الخليفة الأوَّل، أبو بكر الصديق، الأخبار السريَّة المتسرِّبة تقول بأن حالته في تدهور. دعا ربه ليشفيه ولكن هيهات، السماء أوصدت أبوابها، حاولت أن أسبر غور الأمر، تعتيم مقصود لا أحد يعلم بحالة أمير المؤمنين إلَّا الدائرة الضيِّقة من الخلفاء وأهله المقرَّبون، تدهورت حالته كما أفشى لي السر أمير من الأشراف صادق، في حالة وفاته من سيخلفه، هل يقبل أهله وابن عمه الأمير الكبير بخلافة عربي من غرب السودان، وكان بمنزلة أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرسول محمد، في تقديري هو مهيأ ليكون الرجل الأوَّل في الدولة بعد رحيل المؤسس، هل سيرحل؟ لا أظن ذلك! عمومًا الكراهية ظاهرة بين المكونين العربيين الشمالي والغربي. أمَّا نحن حلفاء المصريين والإنجليز سننتهز الفرصة لننقض في حالة نشوب الصراع لنقصي ونقضي على الطرفين، كلاهما ظالمان ومسترقان لسلالة البازنجر، الأتراك رغم غزو محمَّد علي باشا للسودان من أجل المال والرجال، رغم ذلك توقفوا عن صيد الرقيق، صيد بالوكالة، العرب يصطادون ويبيعون له ولغيره،

هـم المروجـون، وهـم الذيـن أتقنـوا وتفننـوا في أسـاليب نصـب الفخـاخ لأبنـاء البازنجـر الضعفـاء، سـننتقم ذات يـوم لا بـدَّ مـن ثـورة العبيـد التـي ستسـتأصل وسـتجتث السـادة. قتـلًا وعقـرًا وذبحًـا وحرقًـا. هـذا مـا أتمنـاه.

43

لا أحد يعرف اسمي الأصلي قرنق بول دينق، الآن الأمير خميس جمعة سبت، ألمع الأمراء السود، ود إبريم، أمير كذلك من سلالة البازنجر، لكنه أمير خصي بغير جيش كما يسمِّيه الدراويش، غدت لي مكانة كبيرة رفيعة، أحيانًا يُسمح لي بحضور جلسات مجلس الأمناء في حالات الحرب، بسبب جيشي الذي يجيد استعمال الأسلحة النارية، أقوى مكون، وهم داخل سلاح الملازمين الذي يقود الشاب عثمان، ابن نائب أمير المؤمنين. تسرَّب خبر بأن أمير المؤمنين يحتضر، من سيخلفه؟ أغلب الظن نائبه الأوَّل أو ابن عمه الذي يجلس على مقعد الخلفية علي بن أبي طالب، هل سيحدث صراع في حالة وفاة الإمام. أغلب الظن أنه سيحدث إذا خلفه هذا الخليفة الأول. أعتقد إذا رحل هذا الإمام سيكون لنا شأن آخر، خاصة إذا اختلط الحابل بالنابل وتصادمت قبائل غرب السودان بقبائل الوسط والشمال، سيكون للبازنجر شأن سنضع بصمتنا، وخاصة أن كل الأسلحة النارية بيدنا المدافع البنادق الذخائر. نحن مدربون نجيد الفر والكر، أمَّا هؤلاء البدو لا يجيدون غير استعمال الأسلحة البيضاء. رماح حراب سيوف، أسلحة العصور الحجرية، سنحصدهم حصدًا كالثمار اليانعة، سنستعبدهم استعبادًا، ستكون كلمتنا هي العليا، أتمنى أن تحدث هذه الأحلام لننتقم لنثأر، ليكون العبد الأسود هو السيِّد. والسيِّد الأصفر هو العبد، أعن دينقديت، شتت شمل عدونا الذي أذلنا الويل له! ستحكم الوثنية بسوادها هذه البلاد التي ترجع جذورها إلى السود، العرب هم الوافدون اللاجئون المطرودون الجائعون، أتوا من الجزيرة العربية، طردهم الفقر! ثم طُرِدوا من الأندلس.

عندما استدعاني أبو بكر الصديق وسألني عن تمرد قبائل الجنوب، لماذا وهل هم كفار؟ أيمكن أن أقاتلهم؟ قلت له نعم هم كفَّار، ولي عظيم الشرف أن أقاتلهم من أجل الدين كجهاد، ما أكثر السبايا هناك! كلفوني بهذا الشرف من أجل الغنائم وإسلام الكفرة، فإذا أنت أبو بكر الصديق، فأنا خالد ابن الوليد سيف الله المسلول.

فرح الخليفة فرحًا شديدًا، كان يظنني سأتعاطف مع بني جنسي، وبالطبع متعاطف، ولكن من يعترف أمام الملك بجريرته ليُعدَم، أنا مجرد عبد في نظرهم رغم تعييني أميرًا، أعرف قدري، وكانوا يقولون لنا: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

أقبل شتاء أمدرمان، البرد قارس، الزمهرير اللئيم، يغيظني القيام المبكِّر لصلاة الفجر، كنت أصلِّي بغير وضوء، أمسح بالماء على ظهر قدمي، لكيلا يتعرَّف العسس مسلكي، أصلي كما يصلِّي صديقي رودلف سلاطين، هو نصراني وأنا وثني، نحن مكرهون على الصلاة الإجبارية، كل جار يتفقد جاره، إذا غاب سيخبر الإمام. كم شكا سلاطين من الصلوات الخمس، يصلِّي رغم أنفه. ونحن كذلك مرغمين لنؤدي الصلاة، كنت معهم بجسدي روحي تهيم في عوالم النساء والخمور، قالوا الأمير خميس، هذا في العلن. في السر فأنا عبد آبق، من الأنجاس المناكيد، كما قال الشاعر المتنبي:

لا تشترِ العبد إلَّا والعصا معه، إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد.

أنا في انتظار رحيل المؤسس لنرى ما سيجري بين أعدائنا من أبناء الغرب والشمال والوسط، سلاحنا الناري ربما يحسم المعركة لمصلحتنا. ما أجمل أن نستعمله ضد أعدائنا الذين استرقوا أسلافنا.

علمت من الجلاوزة الذين من أصول أفريقية بأن الخمر يُشرب في حانات سرية، وفي الحقيقة تأتيني كمية قليلة وبصورة سرية، أنا

ظامئ لا بدَّ من معرفة المنبع لنرتوي، أنا مدمن، الخمر طعام أسلافي جزء من ثقافة طعامنا كاللبن بالنسبة إلى البقارة البدو. آه المريسة ما أحلاها! إنها خمري المحبَّب.

مات المؤسس والمُنظِّر والإمام ويا لها من كارثة مجلجلة مزلزلة! لاحظت أن السادة أهل أمير المؤمنين الراحل غير مقتنعين أن يخلف زعيمهم أحد عربان غرب السودان، بدأت المنافسة والمماحكة والمناكفة، منذ عهد الإمام الأول، شعر برفضهم وتكبُّرهم، فقال آخر خطبة جمعة قبل موته: إني بريء منكم براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ثم نفض ثوبه كناية عن البراءة، وقبل ذلك أوقف التعامل المباشر ما بين الخلفية أبو بكر الصديق والخليفة علي ابن أبي طالب، حسب ترتيبه الذي وضعه، وحتمًا سيفضي إلى حكم الخليفة الأول في حال رحيل الإمام، وحدث ما توجسوا منه، بعد أن بويع كخليفة - هجَّر الرجل أفراد قبيلته ليحدث التوازن، أعطاهم إمارات كبيرة، اختل ميزان القوى لمصلحته. أوغر هذا صدور السادة المزعومين، أقول كما الشاعر نصر ابن سيار، حينما ارتاب في حركة العباسيين المناوئة للأمويين:

إني أرى تحت الرماد وميض نار فأخشى أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أوَّلها كلام

وقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أميَّة أم نيام

44

كنت أثق بأنَّ هذه المنافسة بين الأشراف من آل الإمام الراحل وأمير المؤمنين الذي ينتمي إلى عرب جنوب دارفور لن تمر دون إراقة دماء، السادة بقيادة محمَّد ابن عم الإمام الراحل شعروا بالخطر على نفوذهم ومصالحهم، خاصة بعد هجرة التعايشة إلى أم درمان، بدأت الاتصالات للتحضير للانقلاب على الرجل القوي، اتفق الخليفة محمَّد مع اثنين من أبناء الإمام الراحل بالانقضاض على السلطة وإقصاء أمير المؤمنين، وكان الأمر في غاية السرِّية في طي الكتمان، كلهم وضعوا أيديهم على اليمين على ألَّا يبوح أحدهم بسر المؤامرة، إلَّا لصديق يثق به، أحد أمراء الجعليين. وكان صديقًا للأمير فأفشى السر، عندئذ أعدَّ الرجل قواته وأمرنا بأن نكون على أهبة الاستعداد لمجابهة العدو الداخلي. كنت أتمنَّى أن يحدث صدام دموي لنجيره لمصلحتنا لضرب الطرفين، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. أطلَّت ساعة الصفر. تجمَّع المتآمرون شمال بيت الحاكم للانقضاض عليه، لكنهم كانوا متوجسين مترددين، أطلقوا النار بكثافة، سقط خمسة من جيش الإمام الجديد، ردُّوا عليهم بنيران خفيفة، تدخَّل نائب الأمير علي، وفاوض الثوار وكذلك أمير المؤمنين وبعد ساعات طويلة توصل إلى حل أرضى الطرفين يتمثل في قسم الأمير بالعفو، إعطاء شريف مكانة في مجلس الإمام مع إعادة رايته، ومنحه فرصة تجنيد المتطوعين، دعم مالي كبير لأسرة الإمام الراحل وابن عمه شريف، موافقة الثوار على تسليم أسلحتهم والانصياع لأوامر أمير المؤمنين والتوبة والإخلاص، شريف وأبناء الإمام لم يسلموا أسلحتهم، بعد ذلك نكص أمير المؤمنين وقبض على ثلاثة عشر رجلًا وهم يمثلون رأس الفتنة ونفاهم إلى فشودة، وحينما عثر عليهم

الأمير الزاكي وضعهم في زريبة مدة ثمانية أيام وقتلهم ضربًا. استشاط شريف غيظًا، فلعن الأمير على رؤوس الأشهاد، أمر القضاة والأمراء بالقبض عليه، تحرَّك الملازمون بقيادة عربي، فقبضوه من الجامع واقتادوه حافيًا، ولم يمكنوه من لبس الحذاء، سقط مرتين، زجوه في سجن الساير وكبلوه بالأغلال.

كنا كجهادية على استعداد لفعل أي شيء يضعف الدولة ويفقد الثقة بها، قسونا على شريف في أثناء قبضه، فرحنا لهذا الصراع المتناسل والمتشظي، ولكن أمير المؤمنين أجهضه بذكائه المفرط، الثورات القبلية قمعناها بعنف وبقسوة، مارس جنودي كل ما هو مشروع وغير مشروع، قبضوا شيخ قبيلة بني مدرار العربية متمردًا ثائرًا، بعد أن حصدنا جيشه حصدًا، هم يقاتلون بالأسلحة البيضاء، في شجاعة نادرة وبسالة فائقة، قبضنا الشيخ، ضربه جنودي ضربًا، وقالوا له إذا أردت أن ترتاح من العذاب فقل إني امرأة أمام حريمك، سنطلق سراحك، نعت جنودي بالعبيد الأنجاس المناكيد جهادية، يا له من انتقام كانتقام جنكيز خان وهولاكو التتري، جمعوا نساءه الأربع وبناته ونساء الحي، شرع رجالي يضربونه بسوط العنج، قال لهم الأمير مسمار الجاك دراج وهو نائبي، لا تنزلوه إلَّا حينما يجزع ويصرخ، ويبكي كما تبكي النساء ويقول (واي أنا مرة) صمد نصف ساعة، بدأ يتلقب ذات اليمن وذات الشمال، حمله أربعة من الجهادية الأقوياء الشباب، شدوه كل واحد ممسك برجل أو يد، بطنه تواجه الأرض وظهره السماء، ألهب ظهره، انفجر الدم بعد الضربة المائة، كان الجلاد تمساحًا قاسيًا بشعًا قال لشيخ ميمون الأسدي، أأنت أسد أم لبؤة، لن أنزلك إلَّا إذا قلت أنا لبؤة و(واي أنا مرة) طفق يتمدد وينكمش كحية اتقاءً للضرب، هو قوي، جذبهم الأربعة. انقلب على بطنه، بعد أن أوسعوه ضربًا مبرحًا تمزَّق جلبابه القصير تلوَّث بالدم تبرقع. جمَّع الأمير مسار الجاك،

نساء الحي وزوجاته الأربع، وواصل تمساح طرقه ورجمه بغير رحمة، زغردت زوجته مشجعة، ثم انطلقت عشرات الزغاريد، صكَّت عنان السماء، الرجل يرتجف، يتمدد ينكمش، يتلوى كحية، سال الدم ردد له أمير: إذا أردت أن ترتاح فقلها بصوت عال، الزغاريد تلعلع لكيلا ينهار الرجل، فقد التحكم في جسده تبوَّل، قهقه رجالي بأصواتهم المنكرة، زمجر مسمار: قلها قبل أن تتبرز، لن أتركك.

في كل الحروب القبلية كانت لنا بصمة، القبائل بعد رحيل الأمير الكبير تمردت على الأمير الصغير، اعتبرته عربيًّا جاهلًا نكرة، ليس وليًّا صالحًا، فلماذا يطيعونه، لا بدَّ من الخروج عليه، قمعناهم قمعًا شتتنا شملهم تشتيتًا. لعقوا الندم ونحن نكبِّل قادتهم بالقيود ونجرُّهم إلى أمدرمان، لينالوا العقاب الرادع، إعدام وقطع بالخلاف، ومصادرة ممتلكات، كل من لعب الشيطان برأسه بكى كما تبكي النساء، وللأمانة كانوا شجعانًا رغم عنفنا.

45

صداقتي مع رودلف سلاطين تعززت، كان يهرب ليزورني في كل أسبوع مرة، لنشرب الخمر الإفرنجي المهرَّب والبلدي. كان مراقبًا خوفًا من تجسُّسه. يبدو أنَّ خليفة المسلمين يرتاب ويراقبه رعبًا من فراره، فجعل مسكنه في تماس مع بيته، حاول أن يزوِّجه ولكن سلاطين رفض، وهو يعلم بأن الزوجة ستكون مجرد جاسوسة أو غواصة لتحصي أنفاسه، أوضح لي سلاطين رغبته في الهرب. وطلب مني مساعدته، سأسعى إلى مساعدته بقدر ما أستطيع رغم القبضة الفولاذية للدولة الدينية القبلية، كلنا نرنو ونصبو إلى هزيمة هذه الدولة، وستنهزم ذات يوم، علمت من رجال المخابرات بأن الإنجليز والمصريين يخططون لدحر هذا الكهنوت، متى؟ الرب يعلم بأننا لا نحبهم، نحن نكره من استعبدونا وأذلونا، نعمل معهم مكرهين بغير قناعة، هم ينظرون إلينا مجرَّد عبيد أنجاس مناكيد. شيء آخر أرقني وهي شجاعة هذا الأمير الأسمر الذي هزم الأحباش ودخل عاصمتهم غندار وقتل ملكهم، لقد خلف الأمير حمدان بعد موته، أوغروا صدر أمير المؤمنين، حسدًا وحقدًا ووشاية، قالوا له حاور الأحباش والإيطاليين، إنه خائن، سينفصل سيستقل بمنطقة القلابات، سيخون الأمانة، دعاه أمير المؤمنين إلى أم درمان لتجديد البيعة، ربما تلكأ بعض الشيء، طلبوا مني قبضه وتسليمه لسجن الساير، عندما جاء، طلبت منه تسليم سيفه، لا يمكن أن نسمح لرجل مسلح ليقابل خليفة رسول الله كما يزعمون، بعد جهد سلمني السيف، كان مرتابًا متوجسًا، هجمت عليه. غدرت به، صارعته، فصرعته، يا له من نحيل! ولكنه يقتني قلب أسد. أسقطته كبلته بالسلاسل وسلمته للساير مدير السجن، لم تطرف له عين، باسل

باسـل. أخـذه حـرس السـجن ولم يسـمح لـه بمقابلـة الأمـير الـذي طلـب منـه المثـول لتجديـد البيعـة، زج بـه في سـجن السـاير في عـش صغـير، مُنِـعَ الطعـام والـشراب، يُقـال إن القـاضي أحمـد ود عـلي كان ضالعًـا في عمليـة قتلـه بسـبب عـداوة قديمـة بينـه وبـين الـزاكي، اعتقـد بعـض النـاس بـأن من طمـع في الإمـارة بخلافـة حمـدان، هـو الـذي أوغـر صـدر أمـير المؤمنـين، هـل هـو ابـن عمـه الأمـير أحمـد؟ لسـت أدري ولكنـه كان يطمـح ويطمـع في أن يكـون أمـيرًا بديـلًا للراحـل حمـدان، البريـد الـذي أرسـل مـن أم درمـان أمَّـر الـزاكي، فمهـما يكـن فقـد مـات الـزاكي مظلومًـا في سـجنه، وهـو ضحيـة لمنافسـة البطانـة مـن الأمـراء الأقربـاء، حزنـت لموتـه، لم يجـزع، تـمَّ الانتقـام مـن القـاضي أحمـد ود عـلي، لقـد غضـب أمـير المؤمنـين لجريمـة اغتيـال أشـجع الأمـراء فوضعـه في الحبـس الفـردي، في الكـوخ نفسـه، الجـزاء مـن جنـس العمـل. مؤامـرات كثـيرة مسـتطيرة. كثـيرون يتآمـرون عـلى بعضهـم، يأكلـون بعضهـم كـما السـمك، يتآمـرون ونحـن نتآمـر عليهـم، سـيأتي يـوم الخـلاص كـما قـال صديقـي رودلـف سـلاطين.

46

زارني صديقي رودلف سلاطين والدجى، وباح لي بالسر الأهم، هو أنه على وشك الفرار، المخابرات هذه المرة جادة في إنقاذه من القبضة الفولاذية، كادت ساعة الصفر تطل، وضعت كل الترتيبات، الجمال والمرشدون، خطة محكمة وضعت لإنقاذه من سطوة الدولة المهدية المترنحة، بواسطة الجنرال ريجنالد ونجت مدير المخابرات في مصر، شربنا ولكن لم نسكر، هو الآن يجهل الخطة الذكية المحكمة، قد تنجح هذه المحاولة الجريئة، طلب مني أن أتلكأ في البحث عنه، شل وتعطيل وتخذيل فرق البحث بما لديَّ من سطوة وسلطة، وحتمًا سينطلق الجيش مذعورًا مسعورًا للبحث عنه بعد هربه، عليَّ أن أموِّه حتى يصل الهارب إلى أبعد نقطة يصعب الوصول إليها، كان يظن بأن ربه يسوع سيقف معه هذا المرة، سيغشي عيون الأنصار الكفار على حد قوله، إنها مغامرة محفوفة بالمخاطر، إذا فشلت فستطيح برأسه، لن يرحمه عبد الله سيكبله بالأغلال سيوثقه، سيرمي به في سجن الساير السيئ الذكر، سيعدمه، تسامرنا بأصوات خافتة، حتى زوجتي لم أتح لها فرصة أن تسترق السمع، أو معرفة من هو سميري كما طلب رودلف صديقي الوسيم.

إذًا هذا الأسبوع سيهرب صديقي وعدني أن يأتي ليودعني قبل فراره، هو رجل حذر حذر الغراب، لا أظنه أن يخبرني بساعة الصفر خوفًا من انكشاف أمره، ولكن يبدو أن ساعة الصفر قد دنت وأزفت ولولا ذلك لما أتى، قال لي أنت مدمن إياك أن تسكر وتذكر اسمي؛ العسس الجلاوزة سيفتكون بي، سيكون مصيري كمصير البطاحين؛ القبيلة التي ثارت فدفعناها الثمن مضاعفًا، قال لي إذا فشل هربي سأموت في

السجن بعد قطعي من خلاف، أمير المؤمنين ذكي لماح يرتاب في مسلكي، له قراءة جيدة، ذات مرة أكلنا طعامًا لذيذًا فهمس مازحًا: أنت يا شويطين منافق، تظهر خلاف ما تبطن، ولكن الشريعة لها بالظاهر، فليهدك الله، أخافني حديثه كما لو أنه يقرأ ما بعقلي وقلبي، قلت لسلاطين هذا العربي ذكي، وهو يعلم كرهك نظامه، بحدسه بتحليله شخصيتك! احذر غضبه المدمِّر، مغامرتك قد تؤدي إلى هلاكك، احذر. قال لي: قل لي فليكن الرب الأب والابن يسوع في عونك، قلت له بما طلب مني، أنا وثني لي ديني ولهم دينهم كنصارى، طلب مني أن أتنصر، وفعلًا بدأت أتعاطف مع النصارى، لأنهم أصدق وأجمل. وذاك أمر آخر، هل سيعينه ربه على الهرب؟ وهل سيتركه رب المسلمين ليفلت منهم؟ هذا ما ستثبته الأيام القادمات.

المجاعة تفتك بالناس مجاعة 1306هجرية 1890 م أطل المحل، خريف ضعيف، قضى الجراء على المحاصيل الكاسدة الضعيفة، لم يفض النيل، انخرط الناس في سلك الجندية من أجل الجهاد المزعوم. تركوا القطاع التقليدي الرعوي والزراعي، واكتظوا في أم درمان وفي الثغور، فجاءت الكارثة؛ مات الناس جوعًا. هم يهاجمون التجَّار والجزارين وبائعي الطعام وأصحاب الدكاكين، المجاعة حصدت مئات الآلاف، في المدن والريف، أكل الناس الأشجار والفطايس والجلود، بل صديقي رودلف سلاطين قال لي: بأنه رأى حمارة ولدت جحشًا وسرعان ما هاجمت بعض النسوة على الجحش فنهشنه والتهمنه كنمور جائعة تهاجم فريسة، رأيت امرأة ميتة على قارعة الطريق وطفلها يرضع، مناظر تقشعر لها الأبدان، نحن كجهادية كنا أفضل من غيرنا؛ الدولة تعطينا الذرة، وفي الريف ننزع اللقمة من فم الجائع، أرهبنا، خوَّفنا، سلاحنا الناري يفزع ويرعب، الدولة تعرف تجاوزاتنا ولكن تغمض عينيها لحاجتها إلينا في قمع خصومها.

أمـر آخـر أدهشـني يتمثَّـل في قضيـة إبراهيـم أمـين بيـت المـال الـذي عيَّنـه الإمـام، كان في خـلاف مـع شـقيق الأمـير، ثـم إن الوشـاة نقلـت لأمـير المؤمنـين نقـده شـخصه وأهلـه، ويبـدو أن الرجـل تفـوه في حالـة انفعـال بألفـاظ غـير لائقـة وفيهـا تهكـم وسـخرية لمقـام الإمـارة الرفيـع، لديـه ثـروة كبـيرة، جمعهـا مـن الجزيـرة، قُـدِّم للقضـاء الـذي حكـم عليـه بالقطـع بالخـلاف أو الإعـدام، ففضـل الإعـدام، نفَّذنـا إعدامـه شـنقًا وسـط السـوق، كان شـجاعًا رفـع سـبابته وهـو يصعـد إلى المشـنقة بمعنـى أنَّ اللـه واحـد، خلفـه النـور، منصـب أمـين بيـت المـال والقـاضي خطـيران. يمكـن أن يزجـا بمـن يشـغلهما في مشـكلات كثـيرة، فالقضـاء مسـتقل ولكنـه تحـت رقابـة أمـير المؤمنـين الـذي يمكـن أن يؤثـر في سـير العدالـة، في الحقيقـة الأمـير هـو الـذي يعـزل، ويعـين إذا فالقضـاء تابـع للدولـة رغـم اسـتقلاله الشـكلي والاسـمي، وهـو لا يعـصي أمـرًا للدولـة في قمـع خصومهـا، مـا أكـثر ضحايـا الدولـة، في أمانـة بيـت المـال والقضـاء، حسـين الزهـراء، أحمـد ود سـليمان، كلهـم عُزِلـوا أو سُـجِنوا أو قُتِلـوا، نحـن أداة الجريمـة، السـكين التـي تسـتخدمها الدولـة في الذبـح، نحـن البازنجـر العبيـد أبنـاء الرقيـق كـما يزعمـون، الويـل لهـم سـنثأر ذات يـوم، إذا صـح حديـث سـلاطين سـيطيح الإنجليـز والمصريـون بدولـة الدراويـش، سـيجري غـزو السـودان؛ عندئـذ سـنفرح كـما وعـدني سـلاطين، سـيكون لنـا شـأن كبـير، نحـن ننتظـر يـوم الخـلاص، لأنهـم يسـتعبدون أهلنـا، ولـو أنهـم جنَّدونـا برواتـب ضئيلـة ليسـتخدمونا ضـد خصومهـم. كـم مـن ضحايـا مـن أبنـاء البازنجـر البواسـل، قـال لي صديقـي رودلـف سـلاطين بعـد أن شربنـا العـرق رغـم أنـف الدولـة: غـيروا اسـمك إلى خميـس جمعـة سـبت، لعنـة الـرب عليهـم، وأنـا غـيروا اسـمي مـن رودلـف س إلى عبـد القـادر صـلاح الديـن. فحُـرِّف الاسـم إلى سـلاطين، سـنكون السـادة ذات يـوم وسـيكونون هـم العبيـد، الإنجليـز عادلـون متحـضرون، سـيحاربون تجـارة الرقيـق، وكذلـك سـيفعل المصريـون

الـشيء نفســه، طـوبى لهـما كـما يقـول صديقـي رودلـف، الـذي ختنـوه وأكرهـوه عـلى اعتنـاق الإسـلام، ختنـه المدعـو مـوسى الكاظـم!

47

في هـذا اليـوم لم أتحصَّـل عـلى قـارورة الخمـر، داهـم رجـالي وكـرًا، فوجـدوا رجـالًا يشربـون، جلدوهـم وسـجنوهم وصـادروا أموالهـم والـدار، كان ينبغـي أن يحـضروا لي الخمـر المصـادر، ولكـن هجومهـم صـادف مـرور أحـد أمـراء التعايشـة بجوقتـه، فدلـف نحـو الحانـة المحـاصرة. فشـاهد وشـارك في تصفيتهـا، أراق الخمـر بنفسـه وهـو يـردد: حسـبنا اللـه نعـم الوكيـل، الخمـر أم الكبائـر، لم يعـطِ فرصـة للجهاديـة البازنجـر لـكي يأخـذوا الغنائـم، كانـوا يزعمـون بأنهـا سـتنجس الأرض ولا بـد مـن سـكبها وإراقتهـا في النيـل، كـما أفتـى أمـير المؤمنـين، ولكـن الحقيقـة كان جـوفي هـو النيـل، نتقاسـم الخمـر المُصـادر، بـل الهـدف مـن المداهـمات أن يرتـوي رجـالي حتـى الثمالـة. أسـلحتهم الناريـة تفـزع وترهـب النـاس، وفي اليـوم الثـاني هدمـوا ماخـورًا. وصـادروا الرقيـق والخمـر، بـين السـمار خواجـة يونـاني، سُـجِنَ وجُلِـدَ وصـودرت أموالـه، الأمـير تـوم مسـاعدي أخـذ منـه زوجتـه غنيمـة كسـبية، ولكننـي تدخلـت وحررتهـا منـه ورددتهـا إلى زوجهـا بتوجيـه مـن صديقـي سـلاطين، لـو رآهـا الأمـراء العـرب، لما عـادت سـوزان إلى لويـس؛ لاسـترقوها وتسروهـا، بـكى لويـس كـما تبـكي النسـاء، سـاعدته، شـكرني حذرتـه مـن مغبـة الجنـون، لـولا سـلاطين لمـا أنقـذت زوجتـه مـن براثـن النـورس! ابـن أمـير المؤمنـين هـو أميرنـا قائدنـا. ولكـن فعليًّـا أنـا القائـد، رغـم وجـود أمـراء يعتـبرون أنفسـهم نوابًـا لعـدم معرفتهـم بفنـون القتـال وإدارة الجنـد، لي مكانـة كبـيرة، رجـالي السـود هـم حَمَلَـة الأسـلحة الناريـة. العـرب لا يعرفـون اسـتخدام الأسـلحة الناريـة، لهـذا نقمـع كل الثـورات العشـائرية والقبيلـة، دائمًـا أفـرح حينـما أُكلَّـف بقمـع العـرب، أتوجـس مـن ثـورات السـود، إنهـم يقولـون سرًّا: اقتـل العبـد بالعبـد،

كل من يهلك من العرب يعجبني. أتمنى أن يموت ألف عربي مقابل استرقاق زنجي، كما يقول العرب حينما يشمتون: اللهم اجعل كيدهم في نحرهم. إني أهتم بهرب سلاطين، وهو عزيز قوم ذل؛ لأنه سيأتي في ركاب قوات الغزو لإسقاط هذه الدولة التي جعلتنا وقودًا لمعاركها الدموية، سأفرح لفرار صديقي الذي سيعتبر قاصمة لظهر هذه الدولة القبلية المتعصبة والمتعطشة للدماء، أتمنى أن تشرب بالكأس نفسها التي سقت به أهلنا الزنوج، أعن دينقديت إله السود والأدغال والأمطار. سلِّط عليهم البؤس والمحل والمرض، وقوات غزو وطيس الرمل، جحفل أوَّله في الخرطوم وآخره في القاهرة، يكنس يمسح يفضح، قبيل صلاة الصبح جاءني عبد سلاطين اسمه بارود سلمني هدية؛ أمواس حلاقة إنجليزية، شكرته، آه تذكرت، لقد هرب سلاطين، أنقذه ربه من شر جيشنا المطارد. قال لي ذات يوم: إذا أرسلت لك عبدي بارود بعد الفجر، فهذا يعني بأني قد هربت، طلب مني أن أخدعهم وأضللهم لكيلا يسرعوا في الملاحقة والمطاردة، إذن هرب صديقي، سأبذل قصارى جهدي، لديَّ خطة محكمة، لتأخير الملاحقة، سيدي سيغضب على الهرب، لديه غضب مدمِّر، هرولت ببطء إلى الصلاة بغير وضوء، صلى بنا سيدي، حتى تلك اللحظة لم ينتبهوا للهرب، أشرقت الشمس، لاحظت عبيد سلاطين مرتبكين مضطربين تحاصرهم قوات الجهادية، من أمرهم وحركهم لمحاصرة دار سلاطين، انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم.

أمير المؤمنين يغتاظ أيما اغتياظ، تجلى غضبه المدمر، لو عثر عليه لمزَّقه إربًا إربًا، طلب مطاردته وملاحقته، والقبض عليه حيًّا أو ميتًا، عطَّلت القوة، تلكأت في تجهيزها على اعتبار أنَّ الرجل قد يكون مختبئًا في حانات ومواخير أم درمان. ولكنه أصرَّ أن الرجل قد هرب، ناحية الشمال، وبعد تسويف حرَّكت الجمال بالعشرات انتثرت،

اخترقت الآفاق في اتجاهات مختلفة، لا بدَّ أن سلاطين هرب عند منتصف الليل، مضت أكثر من عشر ساعات، لن نتمكَّن من اللحاق به، طلبت من جهاديتي ألَّا يرهقوا الجمال بالجري السريع، قلت لهم تمهلوا تريثوا، الجوع والظمأ سيفتكان بالدواب، الشمال صحراء، قاهرة قاسية، احذروا لا تبتعدوا عن مجرى النيل وإلَّا هلكتم، تزودوا، ارتاحوا، ستلحقون به، لا تقتلوه، كبِّلوه، أوثقوه، وأرسلوه إلينا في أم درمان لينال الجزاء الرادع، مرَّ اليوم الأوَّل للمطاردة. الفريسة تطير ونسور تحاول أن تفترسها، لا شكَّ أن سلاطين كان ذكيًّا، استمر لمدة أسبوع يخرج ويتأخر لكيلا يعرف الأعداء أنه هرب حينما يهرب، كنوع من التمويه، لختل أمير المؤمنين، كتمهيد للفرار، فرَّ، كانت المطاردة قد بدأت بعد عشر ساعات من فراره، لأنه قال لي ذات مرة، لو هربت لا بدَّ أن أقطع مئات الأميال قبل أن يلهثوا في المطاردة، بدأت المطاردة عند الساعة التاسعة صباحًا، إذًا فهو قد هرب قُبيل منتصف الليل. لا أعتقد أنهم سيقبضون عليه حيًّا، لقد ذاق مرارة وذل الأسر، كان عبدًا عند أمير المؤمنين. ألم يكن مديرًا لدار فور؟ لقد أُسِرَ قبل بضع سنوات بعد سقوط دارفور. ما زلت قلقًا متوترًا، أتظاهر بغضبي لفرار سلاطين ألعنه، وأستفسر وأرسل مزيدًا من المطاردين والملاحقين، كل ذلك لأبعد عني شبهة التواطؤ، قال لي أحد أمراء التعايشة اسمه حامد: كان صديقك ويزورك. ألا تعرف متى هرب وأين هرب؟ أنكرت، وضعت يدي على اليمين على القرآن بأنني لا أعرف شيئًا عن فراره. فعلت بما أمرني به الأمير رغم أنني وثني في الباطن لا أؤمن بالقرآن، وهل يعلمون ذلك؟ كلا، أنا أتظاهر بالإسلام وأبطن الكفر البواح. عرى القلق أمير المؤمنين تأثر لهرب خادمه الذي خذله وختله، ها هو يرسل التعزيزات، ويقف بنفسه. أُبلِغ أمراء بربر ودنقلا وكسلا وطوكر بفرار سلاطين، مرَّ اليوم الرابع كئيبًا وئيدًا وبيلًا على الحكام، غضَّ

أمـير المؤمنـين بنـان النـدم لإهمالـه في سـلاطين، سـلاطين اسـتعمل أمـضى وسـائله في ختـل الأمـير، انسـلخ أسـبوعًا. أيقنـت بـأن سـلاطين قـد نجـا، وكاد يصـل إلى مـصر، وإذا وصـل نتوقـع الغـزو الـذي سـيقصم ظهـر هـذه الدولـة الدينيـة، الويـل لهـا. أمـا آن لهـا أن تسـقط؟

بعـد أسـبوع تأكـد لي أنَّ سـلاطين البطـل، طـواه سراب المجهـول، غـاص في لججـه، لم يعـد يرسـف في أغـلال المطـاردة، غـدا البحـث عنـه كمـن يبحـث عـن إبـرة في كـوم قـش ضخـم، أو كمـن يبحـث عـن شـذرة ذهـب في كثيـب رمـل، شـبه مسـتحيل العثـور عـلى البطـل. جـاءني إحسـاس بأنـه قـد وصـل إلى أرض الحضـارة والمدنيـة والقانـون، سـينقذه ربـه الـذي يحبـه، ولـولا ذلـك لمـا سـهَّل لـه الهـرب والإفـلات مـن هـذه الدولـة الكهنوتيـة، في دوائـر الحـكام، اسـتشرى الحقـد والحـزن، وهـم نادمـون يتلاومـون، الغضـب المدمِّـر. أصبـح ديدنهـم يحرقهـم، ينقـدون بعضهـم عـلى الإهـمال، يتلاومـون! يتذمـرون يلعنـون يسـبون، فرحـت أيمـا فـرح لغضـب عـدوي الـذي يسـترقُّ سـلالات البازنجـر، كـما لـو أن الـربَّ خلقهـم ليكونـوا عبيـدًا في يـد العـرب الكفـار، إني أرنـو وأشرئـب للنبـأ الجميـل نبـأ وصـول سـلاطين إلى مـصر، ليشـنف أذني ليطربنـي وليـسرني، مـا أجمـل أن يصـل إلى بـر الأمـان! ومـن ثَـمَّ سـيأتي - كـما بـشرني الإنجليـز والمصريـون - لـدك حصـون الدولـة المسـماة زورًا وبهتانًـا بالمهديـة.

48

تربطني علاقة جيدة بالأمير علي، وهو قائد قوات الراية الخضراء التي تضم قبيلتيْ دغيم وكنانة، هو رجل متوازن حليم حكيم يستأنس أمير المؤمنين برأيه بجانب رأي أخيه يعقوب الرجل القوي. ملقب بجراب الرأي، لم أرَ الخليفة الحلو منفعلًا غاضبًا إلَّا مرة واحدة، المدعو جار النبي بدوي أنصاري، كذب على رؤوس الأشهاد. قال بأن أمير المؤمنين يعد شقيقه يعقوب ليخلفه، وليس الأمير علي، اشتكى الرجل للقضاء، اعترف بما قال من فتنة وكذب، حكم عليه القاضي بالإعدام لإثارة الكذب والفتنة، أمير المؤمنين، كان لا يرى جريمة تستحق الإعدام وما قاله ليس أمرًا ذا قيمة مجرد كذبة، وفي تقديري ربما لامست حقيقة غائبة وغير مرئية، عمومًا، لم يستطع أمير المؤمنين إنقاذ الرجل من الإعدام، إذ أصرَّ خليفته على تنفيذ الحكم فنفَّذ رغم عدم قبول أمير المؤمنين الذي تربطه المصاهرة مع خليفته، هو زوج شقيقته، أيقنت بأن ثمة خلافات باطنية عميقة، ستعصف بالدولة ذات يوم قُبيل إطلالة جحافل سلاطين القادمة.

عند منتصف الليل، قرع بابي عبدي ألماظ، الشاب الشهم الذي يخدمني بإخلاص، كان مرتبكًا مضطربًا متلعثمًا، اعتذر وسلمني لفافة قال لي بأدب: جاء ملثم قبل قليل وسلمني هذه الأمانة وقال هي لك هامة وعاجلة وسرية، عمومًا آسف للإزعاج ولكنني تعهدت بأن أسلمها الآن رغم مُضِيِّ ثلثي الليل، خذ أمانتك، مع فائق تقديري.

انصرف ألماظ كئيبًا، أمسكت اللفافة، وهرولت نحو الديوان لأرى ماذا تحمل هذه الرسالة في هذا الوقت بالذات، غيَّرت رأيي، دلفت

نحو غرفة نومي لأفتحها عند الفجر، ولكن هيهات الوسواس يئزني أزًّا، لا بدَّ من استقصاء واستقراء محتوياتها لعلها تحتوي على شر مستطير، هل هي من أمير المؤمنين خليفة مهدي الله ورسول الله، ربما كانت إيماءة أو إشارة لإحدى حضراته النبوية، ربما حدثه سيِّد الوجود في إحدى الحضرات الليلية، لا بدَّ أن أسبر غور النص، مزَّقت القماش وهي مغلفة مجلدة بجلد سميك جيد محكم الرتاج مخيط جيدًا، فضضت سدولها بسكيني الحادة، آه آخ خطاب: يجب حرق الرسالة بمجرد الاطلاع عليها، احذر!

أخي، ق - ب – د (خ - ج - س) الأمير! لك حبي وشكري، المجد لله في الأعالي وعلى الدنيا السلام وبالناس المسرة، بفضل الرب الأب والابن وروح القدس، كلأني الرب حتى استشرفت الفردوس المفقود. أرض الأهرامات، مصر أم الدنيا، أرض الحضارة والمدنية والسلام والقانون. أفلتُّ من البرابرة المتعطشين إلى الدماء، تحررت من العبودية، أنا الآن تحت رعاية ولي العهد، احتفى بي الشعب والحكومة كبطل. أيام الشعوذة والدجل السياسي باتت معدودة اطمئن، سيكون للبازنجر شأن، ستستعبدون العرب كما استعبدوكم، ستضطهدونهم كما اضطهدوكم، ستكونون السادة وهم العبيد، ستتحول الدولة إلى دولة علمانية، ستسقط الدولة الثيوقراطية الكهنوتية الظلامية. أبشرك بقرب الفجر الصادق، أبشرك بأني سأعود؛ لأنتقم من الأوباش، من الدهماء والغوغاء والسوقة، فقط تنبهوا تراخوا تهاونوا ابعدوا عن مرمى نيراننا لتكون الخسائر في العدو الأصلي الكافر الهرطيق الزنديق، الآن نعكف مع العباقرة كتشنر وونجت على وضع اللمسات الأخيرة. لتأفل وتغرب دولة الظلم والاستبداد والطغيان، سنلتقي بأم درمان تارة أخرى وسترى المكانة السامقة اللامعة التي سأضعها لكم، في غضون عام سترى ما يحل بدولة البدو الرثة سندك معاقلها، من الآن بدأنا، أحذرك

مـن أن تذهـب في القـوة الهزيلـة التـي سـتجابهنا، جنِّـب السـود الفنـاء. حذرهـم مـن مغبـة التهافـت عـلى القتـال، الآن يمكـن أن أقـول قـد انتهـت المهديـة، عمومـا أنـت رجـل ذكي وتعـرف مـا تقـوم بـه الآن في ظـل مـا ننـوي القيـام بـه، سـيكون ثـأرًا غجريًّـا تتريًّـا تمـشي بـه الركبـان، هـذه الرسـالة أرسـلتها مـع أيـدٍ أمينـة مـع غواصاتنـا، مـع عيوننـا المبثوثـة التـي سـهلت هـربي، سـنأتي في وضـح النهـار لتجفيـف مسـتنقعات الأسـطورة والخرافـة والشـعوذة والدجـل السـياسي، أسـتودعك الـرب، سـنلتقي عـلى مشـارف أم درمـان، إني لأثـق باللقـاء عـلى مشـارف جبـال كـرري، نصيحـة هامـة. إنكـم لا تسـتطيعون أن تثـوروا لشراسـة الدولـة. ولأنكـم كحملـة للأسـلحة الناريـة سـيدفعونكم إلى المقدمـة، أخـبر ومُـرْ جيشـك أن يلتـزم أقـصى اليسـار كـما لـو أنـه خـارج المعركـة، اتركـوا فاصـلًا بينكـم والبـدو حملـة الرماح السـيوف لتقليـل الخسـائر، سـنبيدهم سـنحصدهم، هـذا توجيـه مهـم، مـع فائـق شـكري وتقديـري. ر. س.

بمجـرد أن تقـرأ هـذه الرسـالة احرقهـا فـإذا عـثر الأوبـاش عليهـا فلـن يكـون مصـيرك بأفضـل مـن مصـير إبراهيـم أمـين بيـت المـال، والأمـيران الـزاكي ومادبـو، كـما يقـول الهراطقـة والزناقـة الذيـن حكمونـا واسـتعبدونا: هـذه هـي رسـالتي خذهـا مأخـذ الجـد!

49

أسرفت في شرب الخمر، ثملت تأرجح رأسي، آه ما ألذ الخمر الأوروبي! قناني الخمر جاءتني ليلًا مع ثلاث دجاجات محمرة، داهم أباليسي حانة سرية. ماخور إفرنجي يديره يوناني. جندلوه أوثقوه. ادعوا بأنهم سيأخذون قناني الخمر والنبيذ لسكبها على النيل لكيلا تدنس الأرض الطاهرة التي دُفِنَ فيها الإمام المنتظر، أخذوا نقودهم جلدوهم كعقوبة حَدِّية. شارب الخمر يُجلَد، صودر البيت والمال والطعام، استمتعت بالغنائم، قد أشرب مدة شهر. آه ما أروع الصيد السمين! هل صدق صديقي النمساوي الهارب، قال لقد دنت النهاية، هو لا يكذب كما يكذب المسلمون. النصارى صادقون، في جيبي ورقة أدخلها لي موسس كوال، أو أحمد سعيد كما تسمِّيه دولتنا، تخلَّصت من اسمه الأصلي، ولكن موسس همس في أذني قبل أن يغادر: هذا خطاب من صديقك أحضره عبده السابق الآبق مريود مرجان، آه لقد مرَّ عام على الخطاب الأوَّل لا بدَّ أنه ينطوي على أسرار، تحرَّكت نحو الفانوس وقبسه الذابل الشاحب يحد من حدة الظلمة، يبدد يصهر عتمة الغرفة الطينية، فضضت الرسالة نفس خط صديقي:

"أخي خ ج س، أو ق ب س، لك عاطر التحايا، أنت تعلم بأني لا أكذب، أبشِّرك فقد تحركت جحافلنا يتقدمها خط سكة حديدية، جيش وطيس الرمل، مسلح بأحدث أنواع الأسلحة، دولة الظلم ستترنح ستتهاوى سندك معاقلها، نفِّذ الخطة نفسها التي رسمتها لك لكي تجنب سلالة البازنجر الفناء، لك حبي وشكري وتقديري المخلص ر س، احرق هذه الرسالة قبل أن تقع في أيدي العسس والجلاوزة لكيلا يكون مصيرك كمصير من هلكوا من أعوان الطغيان".

آه! كتبتها قبل شهرين بدأت معركة التحرير. الآن حصحص الحق، جاء المتحضرون المتمدنون، سقطت الأسطورة والخرافة، جاءت المسيحية بتساميها بتسامحها، سيتحرر البازنجر من العبودية، هل خلق الرب السود ليسترقهم العرب؟ الويل للعرب والمسلمين هنا! لنأخذن ثأرنا. سيأتي اليوم، بل وصل إلى شمال البلاد، ريح صرصر عاتية ستقتلع خيام الظلم، ألم يطردوا من الأندلس؟ من الممكن طردهم إذا ساعدنا الإنجليز لتظل بلادنا بيضاء، صافية بغير رق.

بدأ يدور همس، ارتباك ظاهر، وأخيرًا تحدث الأمراء عن الزحف لالتهام أطراف الدولة الشمالية. دبَّ الذعر والفزع، نبأ الجحافل الغازية غدا حقيقة ماثلة للعيان. ارتباك وتلعثم ودعوات! من سينتصر؟ السماء توصد أبوابها، حديث الغزو يثملنا يطربنا كلما توغلوا وتغلغلوا جنوبًا. جاء نبأ مصرع الأمير موسى الحلو شقيق الخليفة علي، بدأ وقعه مؤلمًا، سمعت نشيج الأرامل ونحيبهن وولولتهن، رغم تحذير المنظِّر من البكاء بصوت على الميت، قوات هربرت تفتك بالأنصار، هناك مئات القتلى والأسرى، قوات لا قِبَلَ لهم بها، جيش بعدد الرمل، بدأ أمير المؤمنين يعد حملة لملاقاتهم في الشمال، أعلن الجهاد، وأطلق سراح السجناء السياسيين، دفعوا بأولادنا البازنجر الجهادية في المقدمة لأنهم حملة الأسلحة النارية، اختير الأمير محمود لقيادة الحملة يعاونه أمير الشرق عثمان، محمود صغير وليست له خبرة كعثمان، وهنا مكمن ومنبع الخطأ، ولكن لو قادها أمير المؤمنين نفسه كحرب جهادية لما انتصر ولصار مصيره كمصير النجومي في توشكى.

طُلِبَ مني أن أقود الجهادية في معركة التصدي للغزو المزعوم، وهو إنقاذ إنقاذ تحرير تحرير بغير أدنى شك، رقدت على سريري أهذي أخطرف، أتصنع أمثِّل المرض. أتظاهر بشدة المرض، كاليت تمامًا. أنا أدري خطورة المهمة المهزومة، علمت بقوة الجيش الإنجليزي المصري

وحتما سيكون مرشده صديقي رودلف الذي بشَّر بمقدم القوات التي ستسحق دولة البدو الرثة الدينية. تركوني لأتعالج بواسطة طبيب يوناني وهو الغواصة التي كانت تحمل لي الأنباء. تحركت القوة ودعها أمير المؤمنين كئيبًا، امتطى صهوة جواده وأبو جكة عن يمينه وكان في الماضي يمشي رودلف شمال البرذون الشامخ، الآن سيحدث العكس أمير المؤمنين سيمشي راجلًا منكَّس الرأس أسيرًا صاغرًا، سيشرب من الكأس نفسها، سيهرول يمين هربرت وأخوه يعقوب سيمشي شمال حصان ريجنالد، نصحت نائبي الأمير مرجان دراج بأن يصطف أبناء البازنجر ناحية الشمال. لأن القلب سيفنيه كتشنر، ستسقط عليه القذائف والدانات، ستمزق الأجساد رغم تسربلهم بالتمائم والحجابات، يا لغباء السحر والسحرة! يتوهمون بأن الرصاص لا يثقبهم، مصفحون مدرعون. يا للوهم والجهل! قوات العربان المتحالفة التي كوَّنها كتشنر من السودانيين الناقمين على الدولة، بقيادة مصعب الزبير باشا - ستحصدهم حصدًا!

50

كنت أدري الهزيمة النكراء التي ستحل بجيش الدراويش. جيش بغير إمدادات، يعتمد على الغذاء الذي يمده به الساكنون البائسون المكرهون، ورجالنا تستيقظ غرائزهم ليلًا يحبون النساء والخمر، يهربون رغم صرامة الأمراء العرب، نحن شهوانيون ولا نخاف الفضائح، ورب الأدغال يأمر بالتكاثر. والشهوة خلقها الرب، ولا يمكن قمعها أو كتمها، لأنها هي التي تنفح وتعطي الأطفال، كنت أتوقع الهزيمة النكراء، وصل الجيش الغازي إلى مشارف عطبرة، وجيشنا البدائي تحرّك بسلحفائية، الجنود على صهوات الجمال الحمير والبغال والأغلبية راجلة مع السموم والهجير والظمأ، والشمس الحارقة تتوهج على هاماتهم القاتمة، وكعادة جيشنا، يخشى أمير المؤمنين على النساء، فيطلب من سكان القرى والمدن أن يخلوها وينؤوا عن مسارات الجيش الجائع للطعام والشراب، هذه المنطقة زعيمها أمير في المهدية هو عبد الله، ويدري طريقة الدولة في إبعاد العوائل وإمداد الجيش بالغذاء، أعتقد أن الأمير عبد الله رجل طيب، لكن تدخل رجال قادوا الفتنة وسولوا له الثورة وعدم إخلاء المدينة، ويقال إنهم أرسلوا إلى هربرت وريجنالد الأميرَ إبراهيم محمد فرح ليمدهم بالسلاح، لا أستبعد، لأن تمردهم يساعد كتشنر! والوقوف في وجه الجيش المتجه للتصدي للغزاة المزعومين، وجد الأمير محمود نفسه أمام مأزق، أرسل لهم وفدًا للحوار ولكنهم قتلوا رُسُلَ الأمير، عندئذ أمر بقمع التمرد، ولما كانت أسلحة تلك القبيلة بيضاء وجيش الحكومة يمتلك أسلحة نارية. لم يجد جيش الدراويش صعوبة في هزيمة تلك القوة الصغيرة، شجاعتها تبلغ مرحلة التهور، القتلى أقل من مئتي وكذلك هناك جرحى، قُبِضَ على

رأس الفتنة الأمير عبد الله وأَوْدِعَ سجن الساير، كنت أتوقع إعدامه ولكنه محظوظ، قضاة أمير المؤمنين لا يرحمون، لديه عمر طويل لهذا أفلت من القطع بالخلاف أو الشنق، تقول الروايات بأن بعض النساء انتحرن غرقًا خوفًا من السبي أو الاغتصاب، كنت أتمنى أن يحدث ذلك، ألم يذكروا ما فعله جدهم الزبير رحمة بسلالتنا في بحر الغزال؟ بيع وشراء، استرقاق، أساطير كثيرة تناولت حرب هذه القبيلة مع الجيش الجهادي الذي لفيالقنا النارية دور كبير في سحق العرب المتمردين.

انتصر الجنرال كتشنر، أسلحته النارية حصدتهم كالثمار اليانعة، شتت شملهم بعثر جمعهم، قتلى وأسرى وجرحى، كان أميرنا الشاب محمود ضمن الأسرى لم يولِ الأدبار، قال لن أهرب من خواجة كافر، سلَّم نفسه للأسر. كنوع من الحماقة والتهور، عثمان ذكي انسحب وهرب! قال كتشنر لمحمود: لماذا أتيت أرضي غازيًا؟ لم يرد؛ كبَّلوه رُسِفَ في الأغلال، أُرسِلَ إلى مصر، سُجِنَ في سجن رشيد بمصر حيث مات فيه، لا بدَّ أن صديقي رودلف في قيادة هذا الجيش، وصل نبأ أسر الأمير مع هزيمة نكراء، دبَّ الرعب والذعر والارتباك، دعوا ربهم ليقصم ظهر الجنرال الكافر، ولكن هيهات السماء توصد أبوابها، أقاموا الليل في صلوات جماعية، كنا أسعد الناس بتباشير الغزو، بدا أمير المؤمنين قلقًا، استدعى أمراء العمالات، لن ينقذوه؛ الجيش الغازي مارد عملاق، يمم شطر أم درمان بقوة كاسحة ماسحة، تحصينات هشة لا تسمن ولا تُغني من جوع، كبيت العنكبوت، ما هذه الطوابي الترابية، قذيفة واحدة ستحيلها إلى كوم تراب، تحصينات أوهن وأوهى من خيوط العنكبوت!

أُعلِن الجهاد، الكفار يطرقون أبواب الدولة الإسلامية، أيام دولة البدو غدت معدودة، وصلتني رسالة من صديقي رودلف، تؤكد بأنه في المقدمة للثأر من مسترقِّيه، أعطاني خطة محكمة لتجنيب أبناء

البازنجـر المغـرر بهـم نـيران المدافـع، ولكـن هـذه خطـة مـن المسـتحيل تحقيقهـا. سـأحاول، خـط السـكة الحديديـة يمـشي أمـام الحملـة. هربـرت كتشـنر. يكـوِّن قـوة مـن العـرب الحاقديـن عـلى الدولـة. دربهـم لحمـل السـلاح لقتـال بنـي جلدتهـم. سـمَّاها العربـان المتحالفـة بقيـادة مصعـب الزبـير باشـا، وهـي كتيبـة مشـاة تسـير غـرب النيـل قوامهـا ثمانيـة آلاف مقاتـل، كماشـة سـتواجهنا. بـدأ التدريـب وشـحذ همـم النـاس، كان أمـير المؤمنـين رابـط الجـأش قـال في صـلاة الجمعـة، نطلـب مـن اللـه النـصر أو الشـهادة، هـل سـيثبت ويصمـد وينتظـر المـوت، أم مجـرد ادعـاء أجـوف. سـنرى حينـما يحمـى الوطيـس، الآن بـث عيونـه لمتابعـة سـير حملـة المـوت، وكان الأمـير عبـد الباقـي عبـد الوكيـل يرسـل التقاريـر ويتابـع الحملـة مـذ أن تحركـت مـن مـصر، سـتنتهي دولـة الشـعوذة والدجـل والأسـاطير والخرافـات، سـينتصر الإنجليـز سـيفتحون لنـا الحانـات والبـارات والأنـادي والأنديـة لنـشرب حتـى نرتـوي خمـرًا معتقًـا نهـارًا جهـارًا، وسـيفتحون لنـا المواخـير لنلاعـب الغـواني الحسـناوات العربيـات وغـير العربيـات، سـينتهي الـرق، سـيتحول العبـد إلى سـيِّد والسـيِّد إلى عبـد، مـا أجمـل أن نـرى عـرب غـرب السـودان مـن البقـارة مهزومـين فاريـن. نسـاؤهم سـبايا ولـو يومًـا واحـدًا، نتـزوَّج منهـنَّ مـا نشـاء مـن نسـاء الأمـراء الجميـلات، أتمنـى أن تسـتباح أم درمـان يومًـا واحـدًا لننتقـم، حينـما تدخـل قـوات كتشـنر، إذا كنـت عـلى قيـد الحيـاة، سـأهرول ومعـي رجـالي لنحـرر الرقيـق في سـوق أم درمـان، ثـم لنقتـل كل تجَّـار الرقيـق، سـأرمي بجثثهـم في النهـر، وسـنجند الشـباب منهـم في الجيـش الجديـد الـذي سـيكون قوامـه أبنـاء البازنجـر، كـما قـال لي صديقـي رودلـف سـلاطين في رسـالته المطولـة.

51

الآن بلغت القلوب الحناجر، وزاغت الأبصار. قوات كتشنر قبالة جبال كرري. برًّا وبحرًا، النيل يساعد، الطبيعة تظاهر في وضح النهار، كادت تطرق أبواب أمدرمان، جحفل عرمرم، كقوات هولاكو التتري وجنكيز خان. بواخر تزمجر وهي تدعس عباب النيل باثة الرعب والذعر، اجتمع مجلس الأمناء ومجلس الشورى، أنا العبد الوحيد، كلهم مسلمون ومعظمهم من بطانة أمير المؤمنين الذي ضاقت أمامه فرص النجاة. حُشِدت كل الجيوش وكل الرايات الزرقاء الخضراء الحمراء. راية أمير المؤمنين عمر الذي يتبوأ مكانه الخليفة علي ودحلو، تقف في المقدمة. جيش الملازمين ومعظمه من البازنجر الجهادية حملة الأسلحة النارية، أفشيت السر لبني جنسي لتقلَّ الخسائر، هذا آخر يوم لدولة المهدية.

في الاجتماع الأخير للدولة، الاجتماع المصيري، ومدافع الإنجليز قد وجَّهت فوهاتها إلى قلب الدولة، كادت تدمدم إيذانًا بنهاية الدولة الدينية، ما زال سلاطين يتواصل معي عن طريق الجواسيس، هيجاء سيتحمل وزرها الأوباش وحدهم. أجمع مجلس الحرب على حرب النهار، بعد صلاة الفجر قُبيل شروق الشمس، خالفهم الأمير الشاب إبراهيم الخليل، إذ اقترح الهجوم ليلًا، لتكبيد العدو أكبر الخسائر، ولكنَّ أمير المؤمنين آثر النهار، كذلك بقية الأمراء، عندئذ غضب الأمير الشاب قال متهكمًا: (المهدية مهديتكم ونحن قدنا بنسدو، لكن نصر ما في) هذا الارتباك سيمهد لإنقاذ أكبر عدد من عترتي، زحف كيوم الحشر كما يقول المسلمون، لم أنم طوال الليل، عراني القلق والسهاد، لا سبيل إلى النوم، أسرفت في شرب الخمر الذي توفر وتيسَّر بسبب

الفـراغ الأمنـي، وخـوف العسـس والجـلاوزة مـن النهايـة الحتميـة التـي دنـت، دب الرعـب والذعـر، في حـين أن النصـارى كلهـم يثرثـرون فرحـين بمـا يجـري، وخاصـة في حـي المسـالمة الـذي جمعهـم فيـه المهـدي، أقبـاط أغاريـق وشـوام وأروبيـين، سـقوط أم درمـان أمـر حتمـي، غـدا ستسـقط الشـجرة المنقعـرة ليطـير الطـير زرافـات ووحدانًـا . الطـوابي الطينيـة عـلى شـاطئ النيـل كبيـوت العنكبـوت، يحرسـها إنسـان العـصر الحجـري بسـلاحه البـدائي، قذيفـة واحـدة سـتحيل تلـك الطـوابي إلى أكـوام تـراب، مـا أجهـل هـؤلاء القـوم بفنـون الحـروب!

الفجـر الصـادق بـدأ يبتسـم. أومـض الكـون ببريـق بديـع، شـفق كالياقـوت حمـرة، حشـدت الدولـة كل أسـلحتها، شـحذوا همـم الجنـود للجهـاد. النـصر أو الشـهادة، دمدمـت المدافـع بواخـر سـباحة تطلـق القذائـف. دمـرت قبـة الإمـام المهـدي، تناثـرت إلى شـظايا، ضربـة معلـم، سـقوط القبـة لديـه رمزيـة، إنَّ الأنصـار يعتـبرون ذاك مسـتحيلًا لأن الملائكـة تحميهـا. أسـقط في أيدييهـم، دب الرعـب والذعـر. اسـتعرت المعركـة، رصاص يصـك الآذان، كـما لـو أن دوي المدافـع قصـف الرعـد، اشـتعلت المعركـة غـير المتكافئـة. اختبـأت في كهـف في جبـل كـرري بمنظـاري الـذي غنمتـه قبـل سـنوات، حيـث تـدور رحـى المعركـة، كيـف سـأعثر عـلى صديقـي سـلاطين، لا شـكَّ أنـه بالقـرب مـن الجـنرال هربـرت، وونجـت، آلاف الأنصـار تسـاقطوا حصدتهـم الأسـلحة الناريـة، بعضهـم حـاول سـد فوهـة المدافـع برؤوسـهم، تناثـروا أشـلاءً، شـجاعة تحلـق في أوديـة الأسـاطير، الأمـير يعقـوب بمنزلـة وزيـر الدفـاع هـو في قلـب المعركـة، أرسـل إليـه أمـير المؤمنـين عـلي الجلَّـة للتشـاور في كيفيـة الانسـحاب، أشـاح برأسـه عـن الدعـوة، وقـال لأخيـه (التبلديـة وقعـت في الخواجـات نتلاقـى في الدايمـة)، يعنـي الآخـرة. أي الجنـة، استشـهد الأمـير الخليـل وحمـل نعشـه عـلى بغـل وحينـما رآه يعقـوب، قـال: يستشـهد هـذا الولـد الصغـير، ونحـن الكبـار لا نـزال نعيـش،

اندفع فحصده وجندله الرصاص، انتهت المعركة ببسالة نادرة، وللأمانة كانوا أسودًا، لم يهربوا واجهوا الموت في شجاعة كعادة العرب لا يفرون حينما يدنو الموت! العرب شجعان رغم إجرامهم في حق السود، خفت على نفسي، ما زالت ثمة جيوب تقاوم، أين أمير المؤمنين؟ ألم يشهد هذه الهزيمة النكراء؟ سنقبضه لنسلمه للجنرال كتشنر؟ كتشنر كشَّر عن أنيابه، تسللت من الفوهة الجبلية التي كانت بمنزلة بطن الأم، رفعت راية مزركشة زودني بها سلاطين وهي ملونة كريش الطاؤوس أين صديقي رودلف؟ قال لي: أرفعها لأعلى لأعرفك، وفعلًا يممت شطرهم وجنوده يطلقون النار على الجرحى، القتل الرحيم كما أظن ليس بوسعهم علاجهم واستيعابهم في المشافي، لهذا تخلصوا منهم، رآني سلاطين وسرعان ما قاد قوة نحوي، وهم يمشون على القتلى والجرحى يئنون، والمشاة يتعثرون، الآلاف لفظوا أنفاسهم والدماء تجري بحورًا، الأرض مبتلة، عانقني رودلف بشغف وشوق وحميمية، ترفع وتعالى الجنرال هربرت كتشنر بنرجسية. لم يحفل لأقوال سلاطين عني، في حين أن الجنرال ريجنالد ونجت صافحني بحرارة وهنأني على السلامة، ونجت كان في المخابرات، وهو الآن نائب كتشنر، عرفني رودلف على صديقه في قلم المخابرات نعوم شقير الشامي اللبناني، الذي سألني عن وثائق المهدية، وهو متلهف في العثور عليها، كان ذلك كل همِّه.

52

تحركت الجحافل مخترقة أم درمان عثر كتشنر على جثمان الأمير يعقوب، ولكنه لم يعثر على جثمان أمير المؤمنين، كلنا تحركنا تغلغلنا كغزاة فاتحين. كنت في قمة النشوة، كما لو أنني غازٍ وفاتح، خسائر البازنجر قليلة جدًا، نفذوا خططي بحذافيرها، بل خطة رودلف الذي أُستعبد وأُسترِقَّ ذات يوم، كان ضمن الرقيق الأبيض، ولكنه الآن سيغدو من الذين يشار إليهم بالبنان، تحرَّك الفاتحون لاقتحام أم درمان، وأنا ألهث خلفهم، هجم الجنود على أم درمان بعد أن أصدر كتشنر أمره بإباحة أم درمان ثلاث ليال حسومًا، اغتصابًا وسرقةً ونهبًا وعنفًا وإرهابًا انتقامًا من المهدية التي قتلت تشارلس جردون وقطعت رأسه، جاء أوان القصاص الهمجي البربري، ثواكل وأرامل، الجنود من الخواجات والمصريين والسودانيين يفترسون الفتيات ويقتحمون المنازل. ما أكثر الجنود السود! إنهم هاجموا جيش الأنصار في كرري بضراوة، والآن هم أفظع وأجشع وأنهم في المال والجنس، كتشنر يتوق إلى القبض على الخليفة وسجنه ومحاكمته، ولكن هيهات، رجال الاستخبارات قالوا إنه وباقي جيشه انسحبوا إلى غرب أم درمان.

لم أصدِّق بأن الجنرال الغازي يتصرف بتلك الهمجيَّة والبربرية، فجَّر ضريح المهدي. ونبش الرفات بعثره فتته وأخذ الرأس ووضعه في صندوق وأرسله إلى المتحف الإنجليزي. عمل بربري لم يرقني بل أثار في نفسي الكآبة والأسى. ماذا يستفيد هذا الرجل من هذا العمل الهمجي؟ ولكنه حاول دحض مزاعم الأنصار الذين يعتقدون بأن جسد شيخهم المقدس وغير المدنس، لن يتحلل ولن تلتهمه الديدان، أو أن كتشنر لن يعثر عليه لأنه في الفردوس.

طلب مني أن أستصحب نعوم شقير إلى دار وثائق ومخطوطات الدولة والتي تحتوي على منشورات المهدي وخطابات خليفته، كلها جُمِعَتْ ووُضِعَت عليها حراسة مشددة، شبع الجنود من الخمر واللحم والجنس بعد الإباحة، عبر كتشنر إلى الخرطوم ورفع علمي الحكم الثنائي على أطلال السرايا! ظل كتشنر يذبح الثيران حتى بشم القوم، تحركت بعد تسلم دار الوثائق التي هرب حرسها من الأنصار ولحقوا بزعيمهم المنسحب في خزي، نحن البازنجر، حاقدون شامتون، يممت شطر سوق العبيد، ومعي قوة تقدر بمئة من الجهادية الحاقدين على العرب، اقتحمنا سوق الرقيق، التجار ذاهلون وجلون فزعون وهم يحرسون سلعتهم الآدمية ووهج الشمس يحرق أجساد العبيد والإماء، فتيات شبه عاريات، المشترون يجسون يهمزون يلمسون حتى الأعضاء الحساسة، سلاسل غليظة تطوق أجساد العبيد الذكور وحبال غليظة تلتف حول أعناق الفتيات الإماء المسكينات، قلت لهم:

- هلموا يا عرب يا تجار الرقيق، الآن كل الرقيق أحرار، أطلقوا سراحهم حرروهم الآن، دولة العرب البقارة سقطت، الآن جاء دور دولة العبيد، أفهمتم؟

قالوا بصورة جماعية كورالية:

- لن نحررهم، لن نطلق سراحهم، اشتريناهم بأموالنا، هذا أمر دونه الموت، سندافع عن أموالنا مهما كان الثمن.

كانوا مصرِّين على المقاومة. عرب من كل أنحاء السودان، لصوص مجرمون، قلت لجنودي: حرروا العبيد، اكسروا القيود، حلوا الحبال؛ هجم جنودي يحررون بني جلدتهم من سطوة النخاسة الجبناء، قاوموا، أحدهم طعن جنديًّا، سرعان ما أمرت جنودي بإطلاق النار، دوى ودمدم الرصاص. تساقطوا كأوراق الشجر الذابلة أمام العاصفة،

مجـزرة مذبحـة ثأريـة، قتلـوا ثلاثـين، وفـرَّ عـشرون، فيهـم عـشرة جرحـى، عـلى التـو حررنـا العبيـد وسـلَّحناهم، وقلنـا لهـم: اذهبـوا فأنتـم الطلقـاء، لم يعاتبنـي أحـد عـلى المجـزرة. أثنـى عـليَّ ريجنالـد ونجـت وسـلاطين، في حـين اغتـاظ كتشـنر ولكنـه لم يعاقبنـي، كسـونا المحرريـن سراويـل وتنانـير للبنـات، والأطفـال شـبه عـراة. الشـيوخ والشـيخات، السـلعة الآدميـة مـا أقبـح ذلـك! كانـوا يلبسـون ملابـس مـن الجلـود، والمـرضى وأصحـاب العاهـات معزولـون لا يشـتريهم أحـد، بـل تجـار الرقيـق يهدونهـم مجانًـا لمـن يشـتري أكـثر، يُوظَّـف هـؤلاء المعاقـون في الحراسـة وأعـمال المنـزل وتسـلية الأطفـال بالركـوب عـلى ظهورهـم كنـوع مـن المتـع للمترفـين، وأحيانًـا قـد يسـتخدمون في أعـمال وضيعـة، تنظيـف دورات الميـاه، الكنـس، الغسـل، وإعـداد حفـر الدخـان لزوجـات الوجهـاء النبـلاء، وأغـراض أخـرى كالتسـوُّق، سرُّوا أيَّمـا سرور للحريـة التـي لم يكـن ليحلمـوا بهـا لـولا هـذا الغـزو الـذي حررهـم مـن سـطوة وتسـلُّط العـرب، أمرتهـم بمقابلتـي غـدًا، لمسـاعدتهم ليبـدأوا حياتهـم الجديـدة.

53

انهارت الدولة الرثة، كتل الرمل أمام عاصفة هوجاء، قبضة فولاذية من الدولة الجديدة التي قامت على أنقاض الدولة الدينية، كما قال لي صديق الجديد العربي النقي الشامي، سكن كفأر في دار الوثائق، استقراءً واستقصاءً لكل وثائق المهدية، كرجل مخابرات حاذق، هل هو مؤرخ فُرِّغَ للعمل الوثائقي! لست أدري! قال لي سأكتب عن جغرافية وتاريخ السودان! رُقِّيت إلى ضابط، وطلب مني تجميع الجنود السود ليجري حصرهم وإعادة تعيينهم في قوة دفاع السودان، تحت مظلة الحكم الثنائي الإنجليزي المصري، الجهود تتساوق وتتواثق للقبض على أمير المؤمنين الفار، كونت قوة بقيادة الجنرال ريجنالد ونجت، أركان حرب القوات الغازية، أرسل الكولنيل هنتر في المحاولة للقبض عليه حيًّا، ولكنه أخفق. معظم الكتيبة من أبناء البازنجر، كنت من ضمن القوة، تعرَّفت ونستون تشرشل الملازم والمراسل الحربي الذي كان طموحًا ويشرئب لأن يرى نهاية الدولة الدينية، وجدت صعوبة في التفاهم مع القادة، حاجز اللغة حال دون ذلك، سأتعلم اللغة الإنجليزية آجلًا أم عاجلًا، إذا أردت أن يكون لي شأن. أين يختبئ قادة الدولة؟ هذه القوة ستقضي عليهم ولو صعدوا قمة جبل مرة، أو دخلوا في بطون أمهاتهم، سأتلذذ بموتهم أو أسرهم، سأستجوب كبار الأمراء، وحبَّذا لو أُسِرَ أمير المؤمنين وقُبِضَ عليه حيًّا، سأذكره بأني لست عبدًا للعبيد، العبيد هم العرب والمسلمون، ما زلت ألازم صديقي رودلف الذي سيكون له شأن كبير في النظام الجديد. وأوَّل الغيث قطرة. الآن جرى استيعاب كل أبناء البازنجر في الجيش، رواتب جيدة. غدوا القوة الفتية التي ستهزم خصوم الدولة

الجديـدة. بـدأت الاسـتعدادات لمطـاردة رمـوز الدولـة، كان لي شرف الإشراف عـلى قيـادة البازنجـر ليشـأروا مـن عدوهـم، جـمال وبغـال وبواخـر نيليـة، مدافـع وبنـادق. مـؤن وذخائـر، بعـد غـد سـتتحرك القـوة للقبـض أو لقتـل قـادة الدولـة الهائمـين عـلى وجوهـم.

أعتقـد أنَّ النصـارى قـد انتـصروا عـلى المسـلمين. ألم يقولـوا بـأنَّ ربهـم سـينصرهم، أنـا مـع النصـارى رغـم وثنيتـي حسـب مصلحتـي، ربي دينقديت سـينصرنا عليهـم أجمعـين، نعـوم شـقير وسـلاطين وونجـت يجمعـون المعلومـات، كل القبائـل غـدت مـع كتشـنر وضـد الدولـة الآفلـة والغاربـة، الآن جـاء أوان تسـديد الفواتـير، بـث ونجـت عيونـه؛ تحـرَّك المرشـدون والخـبراء لجمـع المعلومـات في الغابـات لسـبر غـور بقايـا الدولـة، الأنبـاء تنتـشر بأنهـم غـرب النيـل الأبيـض، في وضـع مـزرٍ مأسـاوي قلبـت لهـم القبائـل ظهـر المجـن، تنكَّـرت لهـم، كلهـا تعرضـت للعسـف والجـور، الآن سـيظاهروننا، سـيقتفون أدراج مـا تبقـى مـن فلـول جيـش المهديـة، الآن أنـا وسـط جحفـل وطيـس الرمـل. أقـوى جيـش سـيهزم المهزومـين، سـنقتلهم أو نأسرهـم، أخـشى أن يهربـوا إلى دار فـور، إلى رهيـد الـبردي مسـقط رأس التعايشـة الذيـن ينتمـي لهـم أمـير المؤمنـين المعـزول والمخلـوع.

54

فرحت أيما فرح لأنني سأرى وسأحضر نهاية أعدائي المأساوية، الجنرال "ريجنالد ونجدت" يمكنه أن يفتح كل أفريقيا من الخرطوم إلى رأس الرجاء الصالح بجنوب أفريقيا، إذن سنلتهم وسنمضغ ونبلع بقايا جيش الدراويش. أخبرني صديقي "رودلف" بأن الرجل يحبِّذ ويفضِّل الشهادة، أو النصر إذا تسنى له نصر ولكن هيهات! سيخزيه وسيخذله ربه، سينصر عليه النصارى، النصارى قالوا ربهم أقوى وسينصرهم، عدوهم كافر وهو عدو يسوع الرب الابن أرحم وأرق، أمَّا نحن الوثنيون فإلهنا دينقديت، إله الأدغال والأمطار والأنهار. سيهزم كل الآلهة في النهاية، سينتصر العبيد السود من سلالة البازنجر، الويل لكل من ليس أسود! كتيبة السود أقودها أنا، طلبت منهم أن يلتزموا بالموجهات والتعليمات، حذرتهم، قلت لهم: يا جهادية، انتهى زمن الفوضى، إياكم ومهاجمة أموال وأعراض الناس، أنتم شهوانيون، الإنجليز لن يرحموكم، إياكم والطمع. بعد أن نشتت شمل ما تبقى من أمراء المهدية، أسرًا وقتلًا، سأبحث عن الأمير سالم المغبون، لن أنسى إهانته لي أمام رجالي، وأنا أمير أسود بازنجري في رأيه مجرد عبد، حدث التحدي، قلت له سأسبقك بحصاني، أتراهنني؟ قال نعم، وإذا سبقتني أعطيك حصاني مرخوص والفلوة الفرسة نعيمة، وقف الدراويش على الشرط، وكنت أثق لأنه لم يعتد على ركوب الخيل. هو يعرف كيف يركب الثور، أمَّا الحصان فهو ليس ممن يحسنون امتطائه، ويا له من برذون! مرخوص حصان نبيل ولكن بغير فارس، سيسبقه حصاني عمبلوق، وقف بعض الأمراء ليشاهدوا المضمار، ثمة أشجار، قلت له نذهب إليها ثم ننطلق نحو الجهادية وجنودك، ليروا

مـن البطـل. وافـق، ذهبنـا بعيـدًا، وصلنـا إلى نقطـة الانطـلاق، كنـت أثـق ثقـة مطلقـة بالفـوز، هـل سـيمنحني حصانـه مرخـوص الـذي كان يركبـه، كنـت أثـق بـأنَّ سـالم المغبـون، لـن يتمكَّـن مـن امتطـاء مرخـص بالصـورة التـي تمكنـه مـن التفـوق عـلى حصـاني عمبلـوق، انطلقنـا العـرب يصفقـون لسـالم، وأبنـاء البازنجـر يصفقـون لي، إنهـا منافسـة بـين العـرب والبازنجـر، انطلـق عمبلـوق كالنـسر. سرعـان مـا سـبق مرخـوص ببضعـة أمتـار، بـل عـشرات الأمتـار، هزيمـة مريـرة تحسـاها الجاهـل، الأمـير العـربي السـاذج وثبـت مـن ظهـر حصـاني مـسرورًا، قلـت لـه:

- انزل وسلمني مرخوص!

الجنـود ينظـرون إلى الأمـير العـربي البقـاري الأحمـق، دمـدم زمجـر، انتفـخ وجهـه الأصفـر، وكان يفتخـر بلونـه الفاتـح وشـعره الناعـم، كـم مـرة افتخـر بأصلـه العـربي أمـام البازنجـر العبيـد، يـا للعجـب! زمجـر في فظاظـة وفظاعـة:

- لن أعطي حصاني لعبد!

فكـرت في أن أقتلـه، بغـرس الرمـح في بطنـه، ارتعشـت شـفاهي، اشـتعل الغضـب في قلبـي، ولكـن ابـن خالتـي الجهـادي ألمـاظ سـالم. أو كـير بـول مجـوك، همـس في أذني: اصـبر إيـاك والحماقـة، إذا قتلـت الأمـير البقـاري، سـيمزقك البقـارة إربًـا إربًـا، هـم شرسـون مغامـرون بشـعون، سـننتقم ذات يـوم، هـوِّن عليـك.

تماسـكت رويـدًا رويـدًا، سـال الدمـع مـن عينـي الشـمال، ابتلعـت أحـزاني، غصـة في حلقـي، يممـت شـطر بيتـي لأشرب الخمـر تخفيفًـا لـلألم الـذي أصابنـي مـن هـذا الوحـش الأحمـق المدعـو سـالم المغبـون، لم يـفِ بوعـده وعهـده، بـل سـدر في غيـه فأهاننـي.

55

القوتـان تدنـوان مـن بعضهـما رويـدًا رويـدًا، بـل نحـن الذيـن نتحـرَّك نحوهــم، يبــدو أنهــم لــن يهربــوا، مــا زالــوا عنــد أوهامهــم، النــصر أو الشـهادة! أنـا الضابـط الوحيـد مـن أبنـاء البازنجـر، كلهـم جنـود، انقلبنـا لنحـارب عدونـا الأوَّل.

مـا زلنـا نتغلغـل ونتوغـل غـرب النيـل الأبيـض، نتحـرَّك في حـذر، كسـلحفاة هرمـة، العـدو يزحـف في بـطء كسـمكة جـف عنهـا المـاء في مسـتنقع، أعطـاني رودلـف سـلاطين منظـارًا مكبرًا قويًّـا، سأسـتعمله في أثنـاء المعركـة لأتابـع حركـة سـالم المغبـون، تاجـر الرقيـق الأمـير يمتلـك أكـثر مـن مائتـي رأس مـن جنـسي الأسـود، لهـذا قـال: لـن أعطـي حصـاني لعبـد. إذا أُسِرَ سأسـتعبده ثـم أقتلـه. هـذا مـن أتفـه العـرب، اليـوم سـتدور عليهـم الدوائـر. يبـدو أنهـم صمَّمـوا عـلى الانتحـار لكيـلا يقولـون عنهـم جبنـاء، عـرب غـرب السـودان شـجعان لا يهربـون، ولديهـم حماقـة وغشـامة. إذا قتـل أحدهـم فـردًا دون أن يـراه أحـد يذهـب إلى الشرطـة ليسـلم نفسـه. ربمـا يمـشي يومًـا كامـلًا، ولا يخـشى نتائـج جريمتـه، نعـم تهـور وطيـش وغبـاء.

رجـال الاسـتخبارات يقولـون إنَّ أمـير المؤمنـين اسـتدعى الأمـراء البعيديـن مـن أبنـاء قبيلتـه ليموتـوا معـه، أحمـد فضيـل، عـربي، دفـع اللـه، الختيـم مـوسى، إني لأرى وسـط الأشـجار قـوات الدراويـش تنتـشر مسـتعدة للقتـال، لم أرَ أمـير المؤمنـين، ربمـا كان وسـطهم، الجنرال ريجنالـد رجـل طيـب. طلـب منهـم الاستسـلام ولكـن هيهـات. هـم مصممـون عـلى المـوت، يعتقـدون بأنهـم شـهداء وسـيدخلون الجنـة، وتلـك فرصـة للشـهادة

كـما يزعمـون، مدافعنـا مصوَّبـة نحوهـم بجلـل كبـيرة سـتمزِّقهم تمزيقًـا، سـيدمدم وسـيزمجر الرصـاص، سـتدوِّي وسـتدمدم المدافـع، متلمظـة جائعـة لـلأرواح لتلتهمهـا، تلـك النسـور تسـف وتعلـو، عقبـان ضخمـة، تشـم رائحـة المـوت، فحرَّكـت فيهـا غريـزة حـب لحـم الإنسـان، ستشـبع اليـوم مـن لحـم الأنصـار الدراويـش. ربنـا سـينصرنا عليهـم، رب السـود والأدغـال والأمطـار دينقديـت، الماهـر، هـل ترانـا؟ أعـن أبنـاء البازنجـر في مهمـة اليـوم، إنهـا معركـة أم دبيكـرات، التـي سـتغرب وتأفـل فيهـا شـمس المهديـة الذابلـة المصفـرة. هأنـا أرى النسـاء والأطفـال غـرب ميـدان المعركـة يحرسـهم رجـال يمتطـون حصينًـا ويتنكبـون رماحًـا، كانـوا مرتبكـين متوجسـين، وهـم يـرون مدافعنـا مصوبـة إلى نـواصي جيـش الدراويـش الـذي كنـت ذات يـوم جـزءًا منـه. أمَّـا الآن فقـد قلبنـا لـه ظهـر المجـن، إني لأرى المدافـع تـكاد تسـعل لتنفجـر الحمـم. بعـد قليـل سـتجندلهم جندلـة، سيتسـاقطون كالثـمار اليانعـة أمـام الحاصـد، نحـن نرتـدي ملابـس الجيـش الغـازي القطنيـة، كاكي بيجـي مصنـوع في لانكشـير. جميـل كالسـندس والإسـتبرق، كنـا نلبـس المرقَّع مـن القنجـة والدمـور، إمعانًـا في الزهـد الشـكلي. في حـين نـأكل الدجـاج ونـشرب النبيـذ حينـما نختـلي بجوارينـا وعشـيقاتنا، نتظاهـر بالتقشُّـف والزهـد، وحينـما نلـج بيوتنـا نطلـق العنـان لشـهواتنا، وهكـذا كل الأمـراء. الآن عليهـم أن يتقيـأوا مـا ابتلعـوه. ذاقـوا حـلاوة السـلطة، عليهـم الآن أن يذوقـوا مرارتهـا.

واضـح أنهـم سـيثبتون، وسيتشـبثون بأذيـال الأمـل! وربمـا لن يفـروا طلبًا للشـهادة المزعومـة، نحـن كوثنيـين لا نؤمـن بجنـة ولا نـار، جنتنـا الدنيـا ولـن نفـرِّط فيهـا، كانـت صـلاتي معهـم زيفًـا وخداعًـا، لـن يمـوتـوا كلهـم، سأسـتجوب الأسرى عندئـذ لـن يـروا أمـيرًا مزعومًـا اسـمه خميـس جمعـة سـبت، بـل الضابـط قرنـق كـير، وسـيرون مـا يحـل بهـم، صديقي نعوم شـقير مهتـم بي، أمَّـا رودلـف فهـو سـميري وأنيـسي، جئنـا إلى أم دبيكـرات بعـد أن

بيـع الخمـر في الأسـواق وفي الطرقـات في أم درمـان، لا جلـد ولا سـجن ولا مصـادرة. الدعـارة مباحـة بـلا خـوف، الرقيـق حـر وممنـوع بيعـه، سُرِّحُـوا وأُطلِـق سراحهـم، دولـة الدراويـش كانـت تمنـع التبـغ والتمبـاك وكل أنـواع التدخـين، كلهـا محرَّمـة بمنشـور مـن إمامهـم، الآن الدعـارة مباحـة متبرِّجـة! العشـاق بالصفـوف، الآن الحانـات مفتوحـة آنـاء الليـل وأطـراف النهـار، لا رقابـة عـلى النسـاء، يمكنهـنَّ أن يخـترن عشـاقهنَّ ويشربـن ويرقصـن، بغـير عنـف ذكـوري، غـدت المـرأة حـرَّة في وقتهـا ولبسـها وعشـقها، أفلـت الدولـة الظلاميـة المسـماة بالمهديـة.

المنظـار السـحري يمكِّننـي مـن رؤيـة المشـهد كـما لـو أنـه أمامـي، كاد ونجـت أن يطلـق طلقـة مـن مسدسـه إيذانًـا بسـحق دولـة البـدو، الأمـراء كلهـم في المقدِّمـة كالأسـود لا تظهـر عليهـم علامـات الرعـب، كان ريجنالـد مشرقًـا مبتهجًـا كـما لـو أنـه في رحلـة صيـد برِّيـة سـياحية، أمـير المؤمنين على فروتـه يبـدو أنـه استسـلم لقـدره كـما يقـول المسـلمون، وزَّع لنـا القـس بيـتر سـايمون المرافـق للحملـة الصلبـان كلهـا لبسـناها، صليبـي ذهبـي كبـير وهـو يتـلألأ عـلى صـدري، دعـا ربـه يسـوع لينصرنـا عـلى الدراويـش، وهـل نحـن نحتـاج إلى مسـاعدة ومعاونـة الـرب لننتـصر؟ كلا، فليكـن الـرب مـع الدراويـش الضعفـاء، أمَّـا نحـن كأقويـاء لا نحتـاج إلى عـون الثالـوث المقـدَّس الأب والابـن وروح القـدس، أنـا كوثنـي لا أؤمـن بهـم جميعًـا؛ أربـاب النصـارى والمسـلمين، أنـا وثنـي رغـم لبسـي للصليـب مكرهًـا، لـن يخذلنـي دينقديـت إلـه الأدغـال والأمطـار والأنهـار، فهـو الأقـوى والأشرس، هنـاك نسـاء الدراويـش الجميـلات، لـولا الجـنرال ونجـت لسـبيناهنَّ وبعناهـنَّ وتزوجناهـنَّ، يـا لهـنَّ مـن عربيـات جميـلات! الجـنرال هربـرت كتشـنر، مُنِحَ لقـب لـورد الخرطـوم، لأن مقاطعـات المملكـة المتحـدة العـشر لـكل مقاطعة لـورد اعتـبر السـودان المقاطعـة الحاديـة عـشرة، لهـا لـورد وهـو كتشـنر! هـو متشـدد وكذلـك نائبـه ونجـت، مصمـمان عـلى سـحق تجـارة الرقيـق، لهـذا

لـن نجـد فرصـة في اسـترقاق المهزومـين والمهزومـات.

الآن دمدمـت وزمجـرت المدافـع، دوي هائـل صـك الآذان، لظـى مضطـرم لهـب ودخـان ونـيران. دم قـاني أرجـواني ينسـكب عـلى الأرض. إنهـم يتسـاقطون كأنهـم أعجـاز نخـل خاويـة. يصمـدون يسـتميتون يندفعـون، النسـاء خلفهـم يزغـردن ويدفعنهـم ويشـجِّعنهم للجهـاد والاستشـهاد كـما يزعمـون، إنـه الانتحـار عينـه، الأمـير أحمـد فضيـل كالأسـد يصـول ويجـول ويوجـه، يبـدو أنـه القائـد الفعـلي للمعركـة، الآلاف يتسـاقطون والأرجـوان يطـرِّز ثيابهـم المرقعـة، توجـد دائـرة في الوسـط، يبـدو أن أمـير المؤمنـين يقبـع فيهـا، ينتظـر قـدره كمشـايخ العـرب، كعادتهـم، لا يهربـون حينـما يسـتيقنون مـن المـوت، يتسـاقطون يتراكضـون يتزاحمـون على المقدمـة التي تحصدهـا القذائـف والجلـل والرصـاص، نصـف قوتهـم الآن عـلى الأرض مـا بـين قتيـل أو جريـح، يئسـوا مـن الحيـاة، لا يزالـون يتهافتـون عـلى مقصلـة ومحرقـة المـوت، وهـم يـرددون (لا إلـه إلا محمـد رسـول اللـه، والمهـدي خليفـة رسـول اللـه) مـا برحـوا في الاندفـاع نحـو الحمـم واللظـى، قـال ونسـتون تشرشـل المـلازم والمراسـل الحـربي: إنهـم أشـجع مـن مـشى عـلى ظهـر الأرض مـا هزمناهـم ولكـن حصدتهـم الآلـة الحربيـة، كادت تضـع الحـرب أوزراهـا، مـا فتئـوا يرسـلون رماحهـم وسـهامهم نحونـا وهـي لا تصلنـا. ويضربـون ببنادقهـم الصدئـة القديمـة، لا يصـل مداهـا إلى موقعنـا، يستبسـلون يندفعـون، تلبسـتهم حالـة جنـون يبحثـون يلهثـون عـن المـوت، جعلـوا أجسـادهم دروعًـا بشريـة لتحمـى الدائـرة المقدَّسـة التـي تقبـع فيها فـروة أمـير المؤمنـين، صفـوف متراصـة كالبنيـان، الدائـرة كادت تنكشـف بعد سـقوط دروع و جـدار الأجسـاد. إني أرى أحمـد محمـد أبـو جكـة مـلازم الأمـير يفتـح ذراعيـه وصـدره أمامـه سـيده ليحميـه كـدرع بـشري، هـل صمـم أن يمـوت معـه، سـقط أبـو جكـة احتضنـه سـيِّده كالأم الـرؤوم، جـدار مـن مطـر ورذاذ، زخـات تنهمـر عـلى الدائـرة التـي انكشـفت مقدمهـا،

وغـدت تضيـق رويـدًا رويـدًا. العـشرات بـل المئـات يتهافتـون نحـو الدائـرة، كخليـة النحـل، ربمـا أصيـب الرجـل، تمـدد مضرجًـا بالأرجـوان القـاني، إنهـا النهايـة، أمـر ونجـت إيقـاف الـضرب، المدافعـون يندفعـون نحـو الدائـرة، هــل أصيــب زعيمهــم الروحــي، أصيبــوا بالرعــب والذعــر، دبــت روح التخـاذل، عندئـذ أمرنـا ونجـت بحصارهـم، لم يعـد هنـاك دوي للرصـاص، انطلـق بـكاء الأطفـال والنسـاء نحيـب ونشـيج وولولـة، خيـم الحـزان أرامـل ويتامـى وثـواكل، ذاقـوا حـلاوة الدنيـا عليهـم أن يذوقـوا مرارتهـا. نحـن الآن كجنكيـز خـان كهولاكـو التـتري كتيمـور لنـك، يطربنـا ويثملنـا بـكاء الأطفـال والنسـاء.

56

استسلموا تمامًا، رموا أسلحتهم، ما أشبه الليلة بالباحة! كانوا هكذا يهزمون العبيد من قبائلنا، أمر ريجنالد ونجت بوضع الأسرى في حظائر من الشوك، مع الاهتمام بالأمراء لكيلا يهربوا. أهم أسير هو قائد سلاح الملازمين والجهادية، عثمان الابن الأكبر لأمير المؤمنين. كان مجروحًا كئيبًا، اقتفيت أدراج الجنرالات يتقدمهم "ونجت"، إنهم يتفقدون الموتى هل من بينهم أمير المؤمنين خليفة رسول الله، ثمة عربي شريف كما يقولون يلهث خاف "ونجت"، العربي الوحيد الذي كانت له مكانة، وهو ابن طريقة صوفية عريقة، اضطهدتها الدولة غير المتسامحة، بل حلَّت ومنعت كل الطرق الصوفيّة، لتحل محلها الأنصارية، رغم عراقة تلك الطرق الصوفيَّة، كان يتفقد الجثث المنتثرة، كان متأكدًا بأن أمير الأمراء قد هلك، كما قال لي هذا العربي القصير المكير، استشاط شيخ الأزهر غضبًا لمسلكه الانتهازي والأناني والخياني، كفَّره لأنه اقتاد النصارى للفتك بالأنصار واحتلال أراضيهم المزعومة، ثمة آية في القرآن تقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) هذه هي الآية التي بمقتضاها كفَّر شيخ الأزهر هذا الشيخ المتعاون مع النصارى، الشريف، هذا العلي يثب كالأرنب نشوان لسحق الأنصار الذين اضطهدوا طريقته وجعلوه يهرب إلى مصر خوفًا منهم، الآن سيكون له شأن تعاون مع المخابرات كمرشد كمجنَّد، مدير المخابرات ونجدت ظل صديقه، ما زال يجري أمام الجنرالات ليدلهم على جثمان أمير المؤمنين الذي تأكد مصرعه من نواح نسائه، اللائي طردهنَّ جنودنا كأسيرات، فجأة صرخ الشيخ مندهشًا: هذا هو

عبد الله هلموا، ميت! هرولنا نحو جسد مصطبغ بالدم الأرجواني، رمح العربي الصوفي جنازته، وتارة أخرى رفسها كنوع من الانتقام، ثم صدح تارة أخرى: هذا هو أمير المؤمنين. أحاط الجنرالات بالجثمان مندهشين متعجبين، إنها مجزرة، جرى الدم وسقى الصلصال. حلَّقت النسور، التقط المصور الحربي صورةً له وسط مئات الجثث، أعجب الخواجات لشجاعته، إنه يموت كبطل، كان ونستون تشرشل الملازم، يسجِّل كل المعلومات، بعثروا محتويات كيسه الجلدي، ملابس مرقعة، لا يوجد ذهب أو فضة أو نقود. هل هو زاهد لهذه الدرجة؟ جواره الخليفة علي - بمنزلة عمر بن الخطاب، أحمد فضيل، محمد المهدي، وأمير كنانة البشير ود عجب الفيا، جثث عشرات الأمراء مبعثرة منتثرة، وآلاف الأنصار أو الدراويش. وأنا أستمتع بمشاهدة الجثث لمحت جثة عدوي سالم المغبون ساقطًا منتحرًا، ونصف كتفه قد هشمته قذيفة، بندقيته سقطت على بطنه، وهو يمسكها بكلتا يديه، أعلى الجسد ممزق تمزيقًا، رفسته برجلي. وقلت لسقر وبئس المستقر، كما يقول المسلمون، لم يكن ونجت قاسيًا متشفيًا كهربرت كتشنر الذي نبش رفات المهدي وفتتها وأخذ الرأس وأرسله إلى المتحف البريطاني، أمر الأسرى بدفن الموتى بالطريقة الإسلامية، في الموقع نفسه، حفروا القبور الجماعية، صلوا على موتاهم بحزن شديد وأودعوهم قبورهم وسط هذه المفازة والمتاهة المشجرة المسبعة، انفعل كل الضباط الإنجليز وقالوا إنهم أبطال. أطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة في أثناء الدفن، قلت لماذا هذا التكريم؟ ألم يكونوا أعداء الإنجليز؟ ألم يذبحوا جردون وقطعوا رأسه؟ قال ونستون تشرشل: هؤلاء أشجع من مشوا على ظهر الأرض، ما هزمناهم ولكن حصدتهم الآلة العسكرية. yet these were as brave men as ever walked on earth، سجنًا الأسرى بعد دفن الموتى، غنمنا جمالهم الهزيلة وسلاحهم العتيق البدائي، قال

الجـنرال: الآن يمكـن أن نقـول انتهـت المهديـة.

عدنـا إلى الخرطـوم، وبعـد مـدة غـادر "هربـرت" لحـرب البويـر بجنـوب إفريقيـا وغـدا "ونجـت" الحاكـم العـام، أشرت إلى تجنيـد أبنـاء البازنجـر في قـوة دفـاع السـودان، انخرطـوا في سـلك الجنديـة زرافـات ووحدانـا، غـدوا عـماد الجيـش، وكانـوا مخلصـين للحكـم الثنـائي الـذي منـع وبقـوة تجـارة الـرق، ونحـن أسـعد النـاس بذلـك، لأن الرقيـق هـم أهلنـا!

-

57

أصبح صديقي "رودلف" الرجل الثاني في الدولة بعد "ونجت" نائب مدير المخابرات والمفتش العام، أبيحت الخمور والدعارة، وأبطلت تجارة الرقيق. لبسنا كاكي الإنجليز البني - ميري كجنود محترمين في جيش الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، كان لبسنا مرقعًا في دولة البدو الدراويش. الآن للجندية هيبة وسطوة وسلطة، بل ومذاق ونكهة، انتهى عهد البحث خلسة عن الخمر والمحظيات. حرية شخصية قمعها الدراويش بوحشيَّة، جلد سجن وقتل أحيانًا.

راتبي كضابط جديد وأنا أعيش بمستوى معيشي وسط، بدأت أتناول الخمر الإفرنجي في الحانات التي فُتِحَتْ، منحني "ونجت" قطعة أرض في حي الزنوج بأم درمان، وشرعت أبنيها بمساعدة سلاطين، ترقيت بعد بضع سنوات، مع كورسات مكثفة، أجدت اللغة الإنجليزية كتابة ومخاطبة، أولادي كلهم بالمدارس وهم نجباء أذكياء. ليالي السمر مع "رودلف" رائعة خمر وغيد حسان ورقص وفسوق ومجون وعصيان، كما يقول المسلمون. نسكن الخرطوم، منازل ضباط الحامية بحي بري، حياتنا تغيَّرت، نحن أسعد الناس، النظرة الدونية تلاشت ولو ظاهريًّا، الجندي العربي يحييني مكرهًا وفي عيونه ترتسم ما بداخله من نظرة السيِّد للعبد، ولكن هيهات أن يفصح، فقد سقطت دولة العرب في السودان كما سقطت دولتهم في الأندلس، الآن يمكن طردهم كما طُرِدَ عرب الأندلس إلى المغرب العربي، عادوا من حيث أتوا، لو يوافقنا الإنجليز لرددناهم إلى مصر أو إلى الجزيرة العربية، صار العبيد أسيادًا، في الشرطة والجيش غدت سطوة كبيرة، الإنجليز يفضلوننا على العرب، ربما يعتبروننا نصارى، ونحن لسنا مثلهم، كما يقولون معظمنا وثنيون،

ولكننا نتظاهر بالمسيحية.

إيقاع الأيام سريع. السير "ريجنالد ونجت" أدار السودان بحكمة وحنكة، يبدو أنه على وشك أن يغادر ليلحق بصديقي "رودلف" الذي ترجَّل بسبب دخول دولته النمسا في الحرب العالمية الأولى ضد المملكة المتحدة، ونزعت منه أوسمته ونياشينه كجزاء سينمار، حزنت لذهابه الأبدي، لأنه ساعدني في اقتناء وبناء بيتي على ضفة النيل بأم درمان، وها هو "ونجت" يغادر بعد مدة طويلة كحاكم عام. كدت أصل إلى سن المعاش، رُقِّيتْ إلى رتبة صاغ، كأوَّل أسود من سلالة البازنجر يصل إلى هذه الرتبة، كبر أولادي، أكرمني الإنجليز بإدخال ولدي يوسف المدرسة الحربية وحينما تقاعدت تخرج من المدرسة الحربية برتبة ملازم ثان بقوة دفاع السودان، العبودية قدرنا وكذلك الجندية، ستظل هذه السلالة الملعونة تكتوي بنير عبودية العرب أو عبودية الدولة، وشتان ما بين العبوديتين، كدت أخلي المنزل الحكومي، ولكن الكولونيل لويس مايكل قائدي، قال لي: نحن سنعطي بيتك للملازم يوسف خميس جمعة، ابق في بيتك، فرحت فرحًا شديدًا أكملت منزلي بأم درمان، يمكنني أن استغل ريع إيجاره في تحسين مستوى معيشتي. الخواجات طيبون، العرب متسلطون مستعبدون، المسيحية دين فيه تسامح، سأتنصَّر فعليلًا، كنت أخدع الإنجليز بأني نصراني رغم وثنيتي، الآن سأدخل الكنيسة عن قناعة، لا يوجد دين بديل للوثنية غير النصرانية، فالمجد لله في الأعالي وعلى الدنيا السلام وبالناس المسرة، نحن الآن أبناء يسوع ودينقديت، أنا مخلَّط، ديانة مزدوجة. أفريقية وأوروبية، والأب الرب سيرعانا، وأم الرب العذراء هي أمنا، ولن ينسانا إله الشمس الأقوى والأعتى دينقديت، في جيبي أيقونة صغيرة من الأبنوس له، وهو لا ينافس إله النصارى، ولن يدخل معه في صراع، سيحب النصارى الذين نحبُّهم، غدوت أذهب إلى الكنيسة كل أحد عن

قناعـة، كنـت أخـدع الإنجليـز.

ابنـي الملازم ثـان يوسـف - بـدأ يوجـه نقـدًا للاسـتعمار الإنجليـزي، يا له مـن غبـي! لـولا الإنجليـز لكنـت سـلعة تبـاع وتشـترى. كنـت عبـدًا مربوطًـا عـلى أوتـاد العـرب، كأسـلافك مـن البازنجـر، ضابـط أم عبـد؟ أتلعـن أوليـاء نعمتـك؟ يـا لـك مـن عبـد آبـق! شـتمته ولكنـه سـدر في غيـه، بـدأ يسـب ويلعـن الاسـتعمار الأوروبي، يـا لهـم مـن منقذيـن لـولا الاسـتعمار لكنـت في الحقـل أو المطبـخ، تعمـل كعبـد أسـود كسـلعة، أظنـه مضللًا بشـعارات الأغبيـاء، صـار منهـم، مـا زالـت المظاهـرات تسـتعر، تهتـف بوحـدة وادي النيـل، وعـاش فـاروق ملـك مـصر والسـودان، هـذه الأعـمال الغوغائيـة، تقـوم بهـا مـا يسـمى بجمعيـة اللـواء الأبيـض، ويـا للأسـف أبنـاء البازنجـر في الجيـش تعاطفـوا معهـا. مـا يُسـمى بثـورة أربعـة وعشريـن. مجـرد عمـل متأثـر بالثـورة المصريـة هـي صـدى وبوق لهـا! أين سـعد زغلـول؟ مظاهرات عمَّـت كل مـدن السـودان، تحيـا مـصر، عـاش الملـك، هـراء هذيـان، الإنجليز سيسـحقونها، شـعارات سـطحية غوغائيـة. وجـدت منشـورًا يسـبُّ الإنجليـز، ويطالـب بطردهـم، ابنـي يوسـف أرعـن متهـوِّر، أيخدعـك العـرب؟ يـا لغبـاء أبنـاء البازنجـر الذيـن ولـدوا في شـمال السـودان! حماقـة حماقـة، جمعيـة اللـواء الأبيـض تفجِّـر الموقـف، احتجاجـات وتظاهـرات، اليـوم تظاهـر طلاب المدرسـة الحربيـة، ذهبـوا إلى بيـت عـلي المسـجون البطـل المزعـوم، شـعارات غوغائيـة، يفبركهـا أبنـاء البازنجـر مـع مسـتعبديهم مـن العـرب، قُبِـضَ عـلى الطـلاب الحربيـين، قـوات سـودانية تتصـل بالقـوات المصريـة المطـرودة مـن السـودان للالتحـام وتفجـير الموقـف، خذلوهـم لم يفـوا بوعدهـم، دارت هيجـاء حمـراء قانيـة في المستشـفى العسـكري الـذي تحصَّـن بـه الثـوار، قُصِـفَ المستشـفى العسـكري. قُتِـلَ قائـد الثورة ألمـاظ وهو ممسـك بمدفعه. إنهـا شـجاعة تبلـغ درجـة التهـور، لمـاذا يمـوت أبنـاء البازنجـر، أيتحالفـون مـع عدوهـم العـربي؟ ضـد صديقهـم الـذي حررهـم؟ أنسـوا تجـارة الرقيـق؟

أتتحالف مع من باع أسلافك؟ يمكن طرد العرب إذا تحالف البازنجر مع الإنجليز كما حدث في الأندلس، في الأندلس هُزِمَ ملوك الطوائف، كان لزامًا عليهم أن يغادروا إلى صحاريهم، أو يتنصروا أمران أحلاهما مر، نُفِيَ قادة الثورة لمصر. حوكم ابني الملازم ثان يوسف قرنق بول دينق كير، وكان يحب أن يُقال له يوسف خميس جمعة. يا له من مستعرب غبي! الآن حوكم بالطرد من الخدمة والسجن ثلاث سنوات، لارتباطه وانضمامه لجمعية اللواء الأبيض، واشتراكه في الثورة 1924 م.

غدوت أمشي يوميًّا للنيل لصيد السمك كهواية، وبالليل أذهب إلى الحانة لشرب الشري والجن وبالنهار أذهب إلى (الإندايـة) لشرب المريسة، تنفست الصعداء، جفف الإنجليز منابع ومصادر وأسواق الرقيق، مع عقوبة مغلظة تصل الإعدام أو السجن مدى الحياة. أجل فقد حرروا العبيد وحرموا الاسترقاق، وتلك أهم محاسنهم لنا نحن كسلالة للبازنجر! ألم يقل شاعر العرب المتعصب وهو يسب أحد سلالة البازنجر، عمنا كافور الإخشيدي الذي غدا ملكًا مصر، قال المتنبي:

لا تشترِ العبد إلَّا والعصا معه إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد.

تمت الحمد لله

Willows House
منشـــــورات
ويلوز هاوس
WH
TM